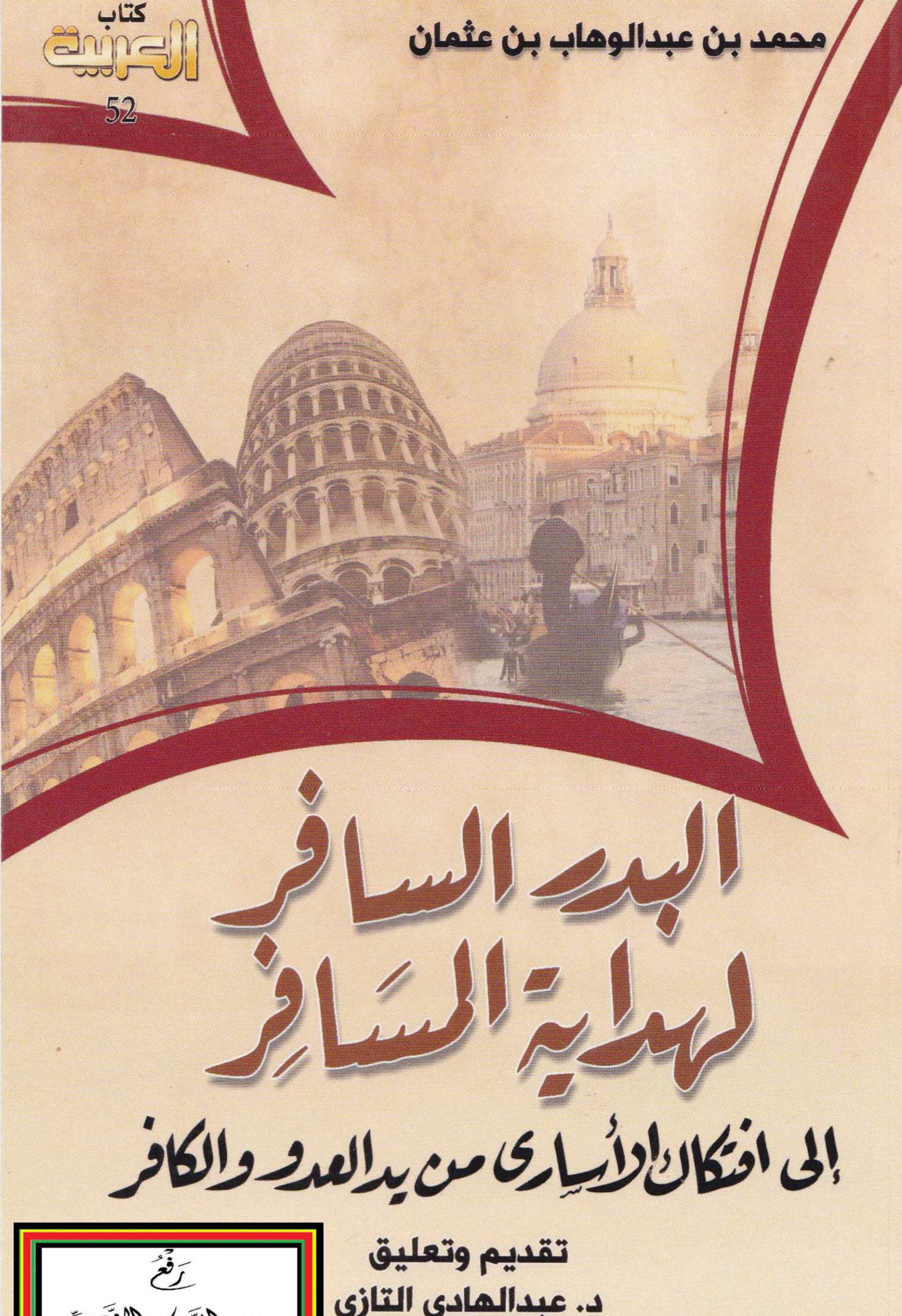

كتاب
العربية
52
محمد بن عبدالوهاب بن عثمان
البدر السافر
لهداية المسافر
إلى افتكاك الأسارى من يد العدو الكافر
تقديم وتعليق
د. عبدالهادي التازي
1433 هـ - 2012م


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



البدر السافر لهداية المسافر

إلى افتكاك الأسارى من يد العدو والكافر

ح المجلة العربية، 1433هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
ابن عثمان ، محمد بن عبدالوهاب
البـدر السافـر لهدايـة المسافر إلى افتـكاك الأسارى من يـد العدو والكافـر. / محمد بن عبدالوهاب بن عثمان .- الرياض ، 1433هـ

252 ص ؛ 21x14 سم (إصدارات المجلة العربية ؛ 52)

ردمك: 1-42-8086-603-978

1 - العالم - وصف ورحلات 2 - الرحلات أ.العنوان ب.السلسلة

ديوي 910.4 1433/2318

رقم الإيداع: 1433/2318
ردمك: 1-42-8086-603-978



البدر السافر لهداية المسافر

إلى افتكاك الأسارى من يد العدو والكافر

رحلة سفارية

طنجة - قادس، مالطة، نابولي، صقلية

تأليف

محمد بن عبد الوهاب بن عثمان

تقديم وتعليق

د. عبد الهادي التازي

عضو مجمعة اللغة العربية بالقاهرة

وعضو أكاديمية المملكة المغربية

الطبعة الأولى

1433هـ - 2012 م



52



52

رئيس التحرير

د. عثمان الصيني

www.arabicmagazine.com

لمراسلة المجلة على الإنترنت

info@arabicmagazine.com

الرياض: طريق صلاح الدين الأيوبي (الستين) - شارع المنفلوطي

تليفون: 4778990-1-966 فاكس: 4766464-1-966

ص.ب 5973 الرياض 11432

المحتويات

تقديم

لقد قمت بتحقيق عدد من الرحـلات على اختلاف أهدافها وأنماطها، وكانت الطريق عادية، أي إنني علقت على ما ابتدأ به الرحالة من الحديث عن أسباب التنقل، وفوائد السفر، إلى أن يأخذ المرء طريقه نحو الجهة التي يقصدها.

لكـن طريقتي في تحقيق رحلة ابن عثمان: (البدر السافر) كانت مزاجية إذا صـح القول! فقد أتيتها، أولاً من أذيالها عام 1977م من القرن الماضي، وانتظـرت الفرصة لكي أعود إليها من الوسـط على أن أقصدها أخيراً من أول محطة انطلق منها السفير، فكيف تم ذلك؟!

لقـد عهـدت إلي وزارة الشـؤون الخارجية في صيـف 1977م حضـور ملتقى أكاديمي دولي بصقلية حـول العلاقات الإيطالية المغربية، بعد انتهاء مهمتـي الدبلوماسية في العـراق وتعييني مديراً للمعهـد الجامعي للبحث العلمي.

ومن هنـا قصدت الأرشيف الدبلوماسي للمغـرب لأستحضر ما سجله السفـير المغربي ابن عثمان قبـل نحو من قرنين عن صقلية، مما صدر بمجلة (المناهـل) المغربية بعنوان (صقليـة في مذكرات السفير ابـن عثمان)، في أعقاب الندوة المشار إليها.

ويبـدو أن هذه المشاركة المغربية حول صقليـة نبهت جامعة باليرمو إلى ضـرورة ترجمتهـا إلى اللغة الإيطاليـة وهو الأمر الذي تولتـه عام 1979م الأستاذة الدكتورة أداجيسا دي سيموني ADLGISA DE SIMONE التي

كان لي معها مقابلة قبل أن تقوم بعملية الترجمة..

وطبيعي أن يحرك كل هذا زميلتي المستشرقة الإيطالية الأستاذة الدكتورة كليليا سارنيلي سيكوا CLELIA SARNELLI CERQUA مديرة المعهد الجامعي للدراسات الشرقية بمدينة نابولي (إيطاليا) التي وجهت الدعوة لي لإلقاء محاضرة على طلبة وطلاب معهدها حول انطباعات السفير ابن عثمان عن مدينة نابولي حيث اغتنمت فرصة رحلتي إلى القاهرة لحضور أعمال مؤتمر مجمع اللغة العربية في نوفمبر 1985م، لأعرج على نابولي وأرضي طلب الزميلة..

وبهذه المناسبة جرى الحديث حول مشروع نشر هذه الرحلة (البدر السافر) بكاملها، شراكة بين معهد نابولي وبين معهد الرباط الذي كنت أديره وقتئذ..

وفي سنة 1989م وبمناسبة انعقاده في كاسيرتا CACERTA (قرب نابولي) حول تاريخ المسلمين في جنوب إيطاليا، كتبت إلي الزميلة سارنيللي تطلب مني تزويدها بنسخة من مخطوط (البدر السافر) المتعلقة بمذكرات السفير ابن عثمان وبعثته عن زيارته لمدينة نابولي.. وهو الطلب الذي لبيته في الحال مما ساعدها على مشاركتها في ذلك المؤتمر حيث تلطفت بإرسال نص الفقرات التي شكرتني فيها على تزويدها بنص ابن عثمان منوهة بعزمي على نشر الرحلة كاملة..

وقد كنت في هذه الأثناء منكباً على إعداد موسوعتي بعنوان (التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم)، وكان علي أن أستجيب لدعوة القنصل الشرفي للمملكة المغربية في جمهورية مالطة عام 1992م، حيث أتيحت لي الفرصة للبحث في ملف السفير ابن عثمان، وهو في

مالطـة، وأمكـن لي أن أقـف، في عين المكان، على ما قالـه ابن عثمان في (البدر السافر) وعن مهمة الوفد المغربي برئاسته في تلك الجزيرة..

ولما علمت أن جامعة مولاي إسماعيل (مكناس) تعتزم تنظيم ندوة دولية حـول أدب الرحلة والتواصل الحضاري اقترحت دعـوة السيد سارنيللي للمشاركة وطلبت إليهـا المشاركة معتذراً لها بغيابي عن الندوة لحضوري أعمال الأكاديمية في غرناطة بهذا التاريخ..

المهـم أن أذكـر أن السيدة حضرت ووجدت ترحيبـاً كبيراً بها سواء من الجامعـة أو من الجمعية الإسماعيلية التي كان يرأسها صديقنا الأستاذ عمر بن شمسي، وقـد كان موضوع مشاركة الأستـاذة في مكناس، كما كان ينتظـره سائر الناس، هو مذكرات ابـن عثمان المكناس في العاصمة نابولي التي زودتها بها على ما أسلفت.. وكما أخبرتني به الطالبة المغربية الباحثة مليكة الزاهدي في رسالتها الخطية بتاريخ 7 مايو 1992م.

وأخيراً تأتيني الفرصة لتلقي دعوة من جامعة قادس الإسبانية عام 1998م مـن القـرن الماضي، للمشاركـة في تكريم أحـد رجالها، زميلـي الأستاذ برافيليو جوستيل Bravilio Justel الذي كان يشرف على الشعبة العربية.. وجدتهـا فرصة لتقديم مذكـرات السفير ابن عثمان أيضـاً عن قادس التي كانـت منطلقـة لسفارته لمالطة ونابـولي ونزوله في صقليـة.. وهو العمل الذي قامت جامعة قادس مشكورة بنشره مترجماً إلى اللغة الإسبانية[1].

(1) – Abdelhadi Tazi، Al–andalous– Maghreb، Servicio de publicaciones Universidada de Cadiz 1998.

وبهـذا الفصـل اجتمعت لي سائـر أطراف رحلة ابن عثمـان الأمر الذي حملنـي على أن أتقـدم إلى أكاديمية المملكـة المغربية بتاريـخ 22 يونيه 2000 بعرض يحمل عنوان: (البدر السافر) إلى افتكاك الأسارى من العدو السافر.

رمت في هـذا البحث إلى زف البشرى للزمـلاء في الأكاديمية بأن تأليفاً جديداً لي قد أنجز..!

وقد أتبع هذا العرض بتعليقات ضافية من لدن معظم أعضاء الأكاديمية[1].

ومنـذ ذلـك التاريخ أخذت أشعـر بضرورة نشر الرحلـة في سفر واحد وأخـذت أفكر في عدد من الجهات المعنية لتغطية النشر حتى لا تضيع هذه الرحلة[2].

وقد حدث في هذه الأيام الأخيرة أن تلقيت هاتفاً من مدينة الرياض من سيـد كريم عرفته عن طريق (المجلة)، التـي دوى صيتها في أرجاء المحلة، وغدت حديث الناس في المجلسـ والنادي، عند الرائح والغادي، وأعني به الدكتور عثمان بن محمود الصيني الذي رحب بنشر وليدي الجديد الذي لاحـظ وهـو يستعرض مؤلفاتـي، أن رحلة (البدر السافـر) توجد ضمن تآليف أخرى لي على لائحة الانتظار! فرحب بها، أكرمه الله، وقد أكبرت فيـه هذا التكريم، ولهذا فإن الخطة التي أراها لنشر البدر من جديد في سفر واحـد أن أبتـدئ بالترتيب الطبيعـي للرحلة: طنجـة - قادس - مالطة -

(1) - دليل أكاديمية المملكة المغربية وحصيلة أعمالها في ذكراها الثلاثين، ص 596، رقم الإيداع القانوني 2010mo-0097.

(2) - سرني أن تقوم الأستاذة مليكة الزاهوي بتقديم الرحلة عام 1426 - 2005م كرسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا. وإني إذ أهنئها لأشكر في ذات الوقت الأستاذة الدكتورة رشيدة نافع رئيسة جامعة المحمدية على ما أمدتنا به من نشرات الجامعة بما فيها البدر السافر متمنين لها المزيد من النجاح.

نابولي – صقلية – طنجة، أي إنني سأدعو القراء للرحلة مع ابن عثمان عبر هذه البلدان الخمس، وسأمهد لكل جزء من أجزاء الرحلة بديباجة مقتضبة قبل أن آتي بالمتن كاملاً عقب التمهيد.

ولقد رأيت أن لا أهتم بما ألحقه ابن عثمان بالرحلة وسماه (الخاتمة) أو (المقامات) لأن هذه الخاتمة أو المقامات زاغت في نظري عن موضوع المهمة التي أنيطت بالسفر وجعلتني أستغرب كيف تحول ابن عثمان من دبلوماسي لبق إلى إنسان آخر يشتم رفاقاً له خصوا بتراجم محترمة من لدن عدد من الكتاب، والمعاصرة، كما يقولون – حجاب!!

كلمة أخيرة أذكرها وهي أن الموجود من (البدر السافر) على ما في علمي لحد الآن، مخطوطان:

الأول يحمل رقم (ح 52) ويوجد بالمكتبة الوطنية بالرباط، ومزيته أنه قرئ من بعض الناس وعلق عليه في بعض الأحيان.

المخطوط الثاني يحمل رقم (12523) وكان في نوبة النقيب المولى عبد الرحمن بن زيدان العلوي، ويوجد اليوم بالخزانة الملكية، وهو الذي كنت اعتمدت عليه منذ عام 1978م من القرن الماضي عندما تحدثت عن صقلية، لكنني في هذا النشر اليوم كنت أستشير النسختين الاثنتين.

رجائي أن لا يبخل علي إنسان ولا إنسانة بملاحظاته وملاحظاتها وتساؤلاته وتساؤلاتها، فالعلم رحم بين أهله، ولا يعرف الخير إلا ذووه! والشكر موصول مرة أخرى لمن مد اليد، وسعى إلى تقريب المسافات بين الأمس والغد!

ماذا عن عصر المؤلف؟

السلطان سيدي محمد بن عبد الله بن إسماعيل

محمد الثالث

يعتبر هذا الملك من أبرز ملوك الدولة العلوية الحاكمة اليوم بالمغرب الأقصى، من الذين ربطوا الصلة بين الغرب الإسلامي وبلاد المشرق من جهة، وبين هذا الغرب والعالم الأوروبي والآسيوي، والأمريكي من جهة أخرى ولذلك فنحن إذ نقدم هذا النموذج من ملوك المغرب نقدم أمثولة تركت لها صدى جيداً في كل جهات العالم بالأمس، هذا الملك هو الذي سجل التاريخ له مصاهرة مع المشرق، مع شريف مكة، اهتزت لها أركان الحرمين الشريفين وكتبت عنها الكتب بكل لسان بما في ذلك ألسن أوروبا!

لقد كان المغرب يعتبر أن خدام الحرمين يقومون بعمل جليل لحماية أول بيت وضع للناس في عالم الإسلام، يحمونه ويصونونه ويرعونه، ومن ثمة كان المشرق القلب النابض لكل الديار التي تعتنق الرسالة التي حملها نبي الإسلام إلى بقاع الدنيا.

ولو حاولنا أن نستعرض المراسلات والمخاطبات التي سجلها التاريخ من التي تتحدث عن علاقات المغرب بالحجاز لوجدنا أنفسنا أمام عالم من الوثائق التي تمكننا من القول بأن التاريخ مشترك ولا يمكن لطرف منا أن يكتب تاريخه دون أن يرجع إلى الطرف الآخر.. قدر واحد ومصير واحد[1]. ولقد شكرت

(1) د. عبد الهادي التازي: مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، أو رحلة الرحلات، نشر مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي 1425هـ 2005م، الجزء الأول، ص 281 – 283 – وانظر مع هذا الرحالة البريطاني بوركهارت، رقم الإيداع 3830/1425.

سمو الأمير تركي تزويدي بمصدر حجازي يتحدث عن هذه المصاهرة الفريدة التي تميزت بنص خطبته الأميرة المغربية للأمير سرور، وكانت من إنشاء المفتي الشهير (عبد الملك الحنفي)..

وإلى جانب هذه الأدوات التي كانت للملك محمد الثالث بديار المشرق كانـت له صلات بحكم القرب مـع جيرانه على حوض البحر المتوسط حيـث تعلقت نفسه بخلق ضمير متوسطي يقوم على الاحترام المتبادل بين الساكنـين على ضفتي المتوسط، ومن هنـا وجدنا لهذا الملك محمد الثالث اتفاقيـات ومعاهدات مع سائر دول أوروبا وآسيا وكذا إفريقيا التي يكون المغرب جزءاً هاماً منها..

هـذا الملـك محمـد الثالـث كان أول ملك علـى وجه الأرض يعترف بالولايات المتحدة الأمريكية ويبرم معها اتفاقية مشهورة بفصولها وبنودها على نحو ما كان الأمر مع باقي دول العالم[1].

هذا الملك العظيم ألهمه الله، ذات يوم من أيام ملكه، وهو يتلو من القرآن هذه الآية (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة)، ألهمه الله إلى الدعـوة إلى تحـريم الـرق والعبودية، وهكذا أعـد مشروعاً لمعاهدة تقضـي بدعـوة ملوك العـالم إلى إلغاء الـرق والإفراج عن سائـر ما تمتلكه أيمانهـم!! وذلك بإصدار بيان أطلقـت عليه اسم تصريح مكناس صدر في 7 شعبـان 1191هـ (10 ديسمبر 1777) يتضمن إلغـاء الرق بين بني البشر،

(1) – د. عبد الهادي التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، المجلد التاسع، ص 90 وما بعدها، رقم الإيداع القانوني، 25 – 1986م، مطابع فضالة – المحمدية – المغرب.

بسائر أشكاله وألوانه.

لم يكتف الملك بالإعلان عن هذا العهد، ولكنه جند عدداً من السفراء المغاربة الذين بثهم في بلاد أوروبا وحتى آسيا ليطلب إلى تلك الدول، بدون استثناء، أن تنضم إلى هذا التصريح غير المسبوق، والذي علقت عليه الصحف الأوروبية آنذاك!!

وكان من أولئك السفراء اللامعين الذين انتشروا في الأرض يحملون رسالة الحرية لبني الإنسان، السفير محمد بن عبد الوهاب ابن عثمان الذي اتجه نحو إسبانيا ونحو مالطة، ونحو نابولي إلى جانب عبد الحق فنيش الذي راح إلى فرنسا، وابن عبد الملك الذي راح إلى إمبراطورية النمسا!!

معلومات وأخبار نسوقها اليوم بمناسبة الحديث عن (البدر السافر)، تبدو مثيرة وغريبة، ولكنها الحقيقة التي تشرف قادة الإسلام أينما كانوا، وتسجل أن المسلمين يقفون إلى جانب حقوق الإنسان أينما كان لا تفرق بين لونه ونحلته.

الحديث عن الملك محمد الثالث وما قام به من تغييرات وإصلاحات على الصعيد المحلي والإقليمي ولم لا أقول العالمي آنذاك، أقول: ما قام به ذلك الملك يعتبر من المبادرات الاستباقية التي كانت تهدف منذ ذلك الزمان إلى الحوار المتوسطي، وبالتالي إلى الحوار مع سائر أطراف العالم بما في ذلك الولايات المتحدة ودول آسيا، ودليلنا على ذلك أيضاً ما سجله التاريخ من معاهدات واتفاقيات ومراسلات مع مختلف قادة العالم آنذاك مما حمل الباحثين والمعلقين على القول إن محمد الثالث ظهر في وقت سابق لأوانه! وإن ما سجله التاريخ كذلك عما صدر عنه من مواقف جريئة

تجعلـه في مصاف قادة العالم الذين اقتنعوا أنه لا طريق للتعايش ولا للتفاهم إلا عن طريق الحوار والحوار وحده!!

في هذه الأجـواء نتحدث عن هذه السفارة التي كان يرأسها - كما قلنا - ابـن عثمان، فمن يكون هذا المكناسي الذي أخذ الطريق ليبلغ الحكام فيما وراء البحار أن هناك رغبة ملحة من ملك مسلم للقضاء على الرق في العالم!!

من يكون ابن عثمان؟

يعتبر السفير محمد بن عبد الوهاب بن عثمان المسطاسي ثم المكناسي من الوجوه البارزة في التاريخ الدبلوماسي للمغرب وخاصة فيما يتصل بالعلاقات مع المملكة الإسبانية ومالطة وإيطاليا والإمبراطورية العثمانية.

وقد ولد بمدينة مكناس أواسط القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) أي أيام الزلزال العظيم الذي ضرب المغرب ولشبونة، ونشأ في تربية والده الذي كان أبرز فقهاء المدينة.

ولم يلبث أن أصبح كاتباً للسلطان سيدي محمد بن عبد الله (الملك محمد الثالث) ثم سفيراً له في أعقاب ما نسميه تصريح مكناس لعام (1191هـ / 1777م) الذي يدعو فيه العاهل المغربي سائر الدول إلى القضاء على الرق بصفة نهائية. لقد اتبع هذا التصريح كما نعلم، بحملة دبلوماسية مغربية مكثفة كانت تهدف إلى تبليغ هذا القرار للأمم الأخرى من جهة، ودعوتهم إلى الالتحاق بمضمونه من جهة أخرى، وهكذا دشنت حركة دبلوماسية واسعة لهذا الغرض فذهب الطاهر فنيش لفرنسا وعين محمد بن عثمان سنة (1193هـ / 1779م) سفيراً لدى ملك إسبانيا كارلوس الثالث، وقد كانت سفارته تلك هي موضوع تأليفه (الإكسير في فكاك الأسر)[1] حيث تحدث عن ثورة الشاي في أمريكا..

وبعد عودته من إسبانيا عين وزيراً لدى الملك محمد الثالث، ثم عين مرة

(1) - حققه وعلق عليه د. محمد الفاسي، وهو من منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي بالرباط، عام 1965م.
Caille:Les accords internationaux de sultan Mohamed Ben Abdellah، P. 223-19 Tanger 1960.

أخرى سفيراً إلى مالطة، ونابولي، وهي السفارة التي خصص لها كتابة (البدر السافر لهداية المسافر إلى افتكاك الأسارى من العدو الكافر)، وهي السفارة التي كانت (قادس) طريقة للوصول إلى مالطة[1]، ونابولي، وقد قام بها عام (1196هـ – 1782)، ولا شك أن هذا العنوان يعرب عن غضب ابن عثمان على حكام مالطة على ذلك العهد وهو الأمر الذي يبرزه ما لقيه من عنت هناك مما أفصح عنه في النص.. ولو أنه حظي بالنزول بقصر سان أنطوان الذي قدر للملك محمد الخامس، أن ينزل به في فبراير 1959 وهو في طريق رحلته السياحية إلى كورسيكا ومدغشقر حيث كان منفاه[2].

وبعد هاتين المهمتين راح ابن عثمان في سفارة من نوع آخر.. ويتعلق الأمر برحلته إلى القسطنطينية العظمى في (1201هـ / 1787م) لإبلاغ السلطان عبد الحميد خان أسباب قرار ملك المغرب باعتباره المبعوث التركي إسماعيل أفندي شخصاً (غير مرغوب)!!

وكان هذا المبعوث تصرف تصرفاً غير مقبول عندما وصل إلى المغرب في مهمة تتعلق بأتراك الجزائر حيث أصدر الملك أمره بطرده وأصحبه بأبي القاسم الزياني الذي حكى عن إسماعيل هذا ما حكاه[3].

وبهذه المناسبة أتيح لابن عثمان أن يؤدي مناسك الحج ويؤلف كتابه

(1) – د. التازي: صقلية في مذكرات السفير ابن عثمان – مطبعة فضالة 1974، قادس من خلال رحلة ابن عثمان / منوعات. Braulio Justel جامعة قادس 1995م. التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج1 ص 129 – 270 – 11، 270× 278. المنون.

(2) – وزارة الأنباء والسياحة (رئاسة الحكومة): الرحلة الملكية إلى كورسيكا ومدغشقر فبراير 1959 – وثيقة هامة في سجل التحرر الإفريقي.

(3) – الترجمة الكبرى للزياني – تحقيق عبد الكريم الفيلالي – مطبعة الرباط 1967م، ص 82 – 83 – 84، د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج9 ص 34 – 35 – 36.

(إحـراز المعلى والرقيب، في حج بيت الله الحـرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب)[1] للمغرب. سواء في دول أوروبا أو آسيا أو الولايات المتحـدة الأمريكية، وقد أدركه أجله في أحداث الطاعون الذي ضرب البلاد حوالي (محرم 1214/يوليو1800).

موقع رحلة (البدر السافر) من رحلاته الأخرى

وإذا كانت رحلته بعنوان (الإكسير) قد حظيت بالتحقيق من لدن أستاذنا السيد محمـد الفاسي رحمه الله وحظيت بالنشر من المركز الجامعي للبحث العلمـي منذ أواسط الستينـات – كما قلنا – فإنه مما يبقى ديناً علينا أن نهتم برحلته الثانية.. وهذا بيت القصيد.

تلـك ومضـة خاطفة عن السفير ابن عثمان الـذي وجدت اسمه في كل مـكان زرته في أرشيفات أوروبا وأمريـكا وآسيا... ابن عثمان الذي يعتبر عندي (ظاهرة) ينبغي أن ندرسها بظروفها، مستفيدين مما قاله الأسبان عنه والطليان والأمريكان والعثمانيون، وما حررته كذلك تقارير الدبلوماسيين الأجانـب: عن وفرته المعطرة، عن خنجـره الفضي المطرز بخيوط الذهب والمنبـت بالأحجـار الكريمة، عـن أناقته في لباسـه، عن أحذيتـه الصفراء الناصعـة.. عـن بسط يده إظهـاراً – كما يقولون – للقـوة والرفاهية، عن

(1) – د. التازي القدس والخليل في الرحلات المغربية رحلة ابن عثمان نموذجاً، منشوات إيسيسكو 1418 – 1997 ص 25 - 26 رقـم الإيـداع القانـوني 1997/1648م مطبعة المعارف الجديدة – الرباط – هذا وقد قدمت هـذه الرحلة كرسالة لنيل دكتوراه الدولة في الآداب والعلوم الإنسانية تطوان عام 2000 – 2001م من لدن الباحث محمد بوكبوط بإشراف د. محمد بنعيود وكنت ضمن لجنة المناقشة... ونشرت أخيراً من لدن مؤسسة ارتياد الآفاق، التي كرمتها مجلة (العربي) لدولة الكويت (دجنبر 2003).

اتخاذه للقراطيس التي تعرف اليوم ببطاقة الزيارة، عن مجاملته ومكايسته في المجالس ولباقته في الحديث مع السيدات، وعن قوله الشعر، وإتقانه الشطرنج حتى لكان ينادى عليه لإنقاذ المغلوبين وهم على أهبة الاستسلام!

إن الذين كانوا يتحدثون إليه ويعرفون عن ظرفه وكياسته واطلاعه كانوا يقدمون لنا شخصية تستحق أن تكون نموذجاً للدبلوماسية المغربية الأصيلة.

من حق السفير ابن عثمان علينا أن نقرأ رحلته (البدر السافر) ليس للمتعة الفكرية فحسب، ولكن لنعرف مدى تحمل الرجل وصبره ومعاناته وهو يرتجف بين الأمواج التي تتهاداه من زاوية إلى زاوية، ويرى مصيره الرهيب أمام اصطخاب المياه وهيجانها ليس ليوم واحد ولا لليلة واحدة ولكن لعدة أيام وأسابيع.. لا يعيش لهمه وحده، ولكن يعيش مع هم أولئك العشرات من الأسرى الذين يصحبهم معه إلى ديارهم وذويهم وأحبابهم بعد أن يسلمهم لعاهل البلاد الذي كان يتطلع لرؤيتهم أحراراً طلقاء! كان في كل لحظة يفكر فيمن كان يصحبه من أولئك البؤساء، في أكلهم وشربهم في فراشهم وغطائهم، كيف كان يتعامل في شأن الأسرى مع الحكام الذين نزل عليهم في نابولي وصقلية، لا بد أنه كان يتوفر على مبالغ كبيرة من المال كان ينثرها هنا وهناك، لكنه مع هذا لا بد له من زاد قوي من المعرفة بأخلاق الناس ومعاملة الناس ولابد من الجرأة على اتخاذ مواقف صارمة تقتضيها نوازل طارئة. مع كل هذا نلاحظ كيف أن الرجل يحافظ على هدوئه لا تقرأ الأحداث على وجهه فهو يجالس القوم ويشاركهم أفراحهم ومسراتهم ويجادل كلاً من أولئك بما يتطلبه المقام فله مع المدير أسلوب وله مع الأسقف أسلوب، ومع النجار أسلوب!!



الفصل الأول



طنجة - قادس

تمهيد

لقد ظهر المغاربة في أدب الرحلات ظهوراً جلياً، ومن هنا أثرت إسهاماتهم العديدة المكتبة العربية أيما إثراء، وأغنت المعلومات التي قدموها سائر حقول المعرفة على مختلف الصعد: الإفريقي والآسيوي وحتى الصعيد الأوروبي! وما يزال دم الرحالة المغربي ابن بطوطة سارياً في عروق أبناء المغرب على طول الأحقاب! ومن غير أن نتعرض لأصحاب الرحلات الذين قصدوا بلاد المشرق لأداء مناسك الحج أو لطلب العلم أو للسياحة إلخ... فإننا نقصر الحديث على الذين راحوا في مهمات دبلوماسية ورأوا أن من المفيد أن يقدموا لنا هذا النوع من الآداب الرفيع.

إن الكتاب الذين حرروا مذكراتهم التي يطلق عليها اليوم اسم (الرحلات) يمثلون في واقع الأمر جانباً إبداعياً في أدبنا المغربي، ومن هنا نحس تلقائياً بميل نفوسنا إلى هذا النوع من الكتابة المحببة لأن ذلك مما يعبر عما يروج في فكر الكاتب دون ما تصنع أو افتعال، ولأنه يجعلنا نرافقه في رحلته، ونشعر بمثل الشعور الذي كان يعيشه سواء كان ذلك الكاتب فقيهاً أو شاعراً مؤرخاً أو عالم اجتماع[1]...

لقد زخرت المكتبة المغربية أكثر من غيرها بعدد من الرحلات السفارية

(1) – التازي: مقدمة رحلة ابن بطوطة، نشر الأكاديمية الملكية، مطبعة دار المعارف الجديدة، الرباط 1997 ص 127.

التـي قدمت لنـا معلومات جيدة عـن الأحوال الدولية علـى ذلك، وعن التطـورات التي تمر بها الأمم آنذاك قاصـدة، دون شك، إلى لفت النظر لما يجري خارج المغرب حتى نستفيد من مجريات الأحوال.

ومن غـير أن نعرض لرحلة يحيـى الغـزّال إلى القسطنطينية، ولا رحلة الإمـام عبد الله ابن العربي إلى بغداد، ولا الرحلة سالفة الذكر لابن بطوطة الذي كان بمثابة سفير متجول... فإن بين أيدينا اليوم رحلة أبي الحسن على التامكـروني إلى الباب العالي (تركيا) التي سماهـا الرحلة المسكية، وعلى عهـد السلطـان مولاي إسماعيل رأينـا السفير ابن عبـد الوهاب الغساني يقـوم بتدوين رحلتـه إلى إسبانيا حيث قدم إلينا معلومـات حية عن الحالة الدوليـة في أوروبا عام 1102هـ/941-1690م، وقد كان أبو العباس أحمد الغـزَّال ممن تلقوا الأمـر من طرف السلطان سيدي محمـد بن عبد الله سنة 1766/1179م بتقييد مذكراته حيث ألف كتابه (نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد) الذي أتى فيه على معلومات جد طريفة...

وقد تميزت سفارات ابن عثمـان بتدوين ثلاث رحلات كانت جميعها رائعـة بما قدمته مـن أخبار ليس فقط عـن الأماكن التي زارهـا في إسبانيا وإيطاليا أو تركيا، ولكن أيضاً عن أمريكا عن طريق المعلومات الهامة التي استقاها وهو مقيم (في مدريد)[1].

لقد قدمت مذكرات ابن عثمان حول إسبانيا معلومات فريدة في بابها، وكانـت زيارة إسبانيـا بالنسبة إليه فرصة للاختـلاط بالمجتمع الأوروبي،

(1) - التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج1، ص 270 - 271، رقم الإيداع القانوني 25/1986، مطابع المحمدية فضالة.

فتحدث أيضاً عن عادة الرقص الغريبة عليه: رقص الرجال والنساء.. ولكنه لم يقاطع حفلاً ولا جافى أحداً، فقد كان مثال الدبلوماسي اللبق الذي تفهم بسرعة واقع الحياة الاجتماعية... وقد تحدث عن صراع الثيران وعن الأوبيرة، على نحو ما سيفعله في سفارته في مالطة، وإلى مملكة الصقليتين: نابولي وصقلية، عندما وصفا للمشاهد والمعالم... وكان يحمل معه (قراطيس) صغيرة طبع فيها اسمه ليقدمها كمرجعية إلى زملائه الدبلوماسيين الأجانب!

فكان بذلك أول سفير مغربي يتوفر على بطائق الزيارة، على نحو ما كانت ابن بطوطة أول متجول مغربي تؤخذ له صورة وهو ببلاد الصين!!

وقد عرفنا من خلال مذكرات ابن عثمان أنه كان يقوم برد الزيارات التي تؤدى له من طرف أعضاء السلك المعتمدين بالعاصمة التي يزورها واتخذ ذلك عادة له...

ولعل من الممتع أن نستمع من الآن إلى ابن عثمان وهو يتحدث في مذكراته بعنوان: (البدر السافر) عن وقوفه على تجارب علمية رائدة قدمها إليه بعض العلماء الأسبان، الأمر الذي أثار انتباهه جيداً وجعله يلقي أسئلته العلمية الدقيقة محاولاً معرفة أبواب تلك التجارب، بل ومقتصداً أو ينقل إلى المغرب أصداء ما كان في قادس آنذاك، قادس التي لم تكن تبعد عن طنجة إلا ببضع خطوات!!

لقد أخذ – وهو يزور مكان البرج القديم الذي يرجع لأيام الوجود الإسلامي بقادس والذي أصبح شبه متحف أو مختبر – أخذ فكرة هناك عن الأكسجين الذي كان قد اكتشفه العالم الفرنسي لا فوازيي، ورأى رؤيا

عـين كيف أن طائراً يحرم من الهواء فيقع على الأرض إلى أن يزود كذلك بالهـواء فيعود له نشاطه، وهكذا قام بترجمـة علمية لما تلقاه من فوائد[1]. ولم تقف حكايات استطلاعه عند هذا الحد فقد أروه مثالاً آخر حتى يتبين أن الهـواء حجم من الأحجام كالماء والتراب، ولو أننـا لا نراه أي الهواء! لقد أتوه بآنية من الزجاج ملؤوها ماء وآتوا بأوانٍ صغيرة من الزجاج أيضاً ضيقـة الأفواه وجعلوهـا في الآنية التي فيها الماء... وقالـوا له: إن الأواني الصغار التـي في داخل الماء ممتلئات بالهواء وهو يمنع الماء من الدخول فيها لأن الهواء كما قلنا حجم الأحجام!

والطريـف في الحكاية أن ابن عثمان تسـاءل عن فائدة هذه المعلومات؟ وهل إنها تخفي شيئاً وراءها؟ وهناك أدرك سر هذه المعلومات، وفضل أن يكشف عنه في مذكراته لإطـلاع الرأي العام عليه.. فقد تتعرض السفينة لخرق وتحتاج إلى عملية ترميم..

وهنـا تحتاج إلى من يقوم بعمليـة التصليح للسفينة في أعماق الماء فكيف يصل الخبير إلى مكان الخرق ولا يتعرض لخطر الغرق؟ هنا نكون في حاجة إلى (مجوف) يمـلأ بالأكسجين يسع الخبير ويمكنه من القيام بمهمته بأعماق البحر في مأمن من الأخطار..

كانت معلومات بالنسبة للدبلوماسي المغربي في مهنتي الأهمية!

وقـد كان مما أثار انتباه السفير المغربي ابـن عثمان بقادس أنه وقف على

(1) – التـازي: التاريـخ الدبلوماسي للمغرب، 1، صـ 271، محاضرة حول الترجمة العلمية... نـدوة أكاديمية المملكة المغربية بطنجة 13–12 دجنبر 1995م.

مكبرة رأى من خلالها البرغوث في حجم العنز! ورأى الشعرة تتحول إلى حجـم حبل!! وقد أطلعوه على آلة (sextante) تتمكن بواسطتها المراكب من الاهتداء إلى طريقها الحقيقي، وهو يذكر أن هذه الآلة هي التي استنبطها أحـد علماء الإنجليز وكافـؤوه عليها بزهاء مائة ألف ريال! وقد تأسف ابن عثمان لعـدم تمكنه من إعطاء معلومات أخرى عن هذه الآلة التي خصص لها جانباً في مذكراته التي استولى عليها اللصوص!!

وهو -أي ابن عثمان- في مذكرات له أخرى في كتابه بعنوان (الإكسير) حـول قادس تحدث عن (الطري) الذي يرى منه، وعلى بعد، سائر السفن النائيـة الآتية إلى الناحية الإسبانية، ولم يفتـه أن يتحدث بإعجاب كبير عن الجهاز الضخم الذي اخترعوه لمقاومة الصاعقة (pararrayos)، وهو يذكر أيضاً بأن الإنجليز هم الذين اخترعوا هذه الحكمة..

وينتقل ابن عثمان للحديث عن الكاتدرائية العظيمة التي كانت الأعمال ما تزال جارية فيها! وكان مما أشاد به، حديث عن الطريق التي شيدها حاكم الجزيـرة والتي كان لها اتصال بالبر بمقـدار قليل لا يتجاوز شأو الفرس... حديـث ممتع عن هذا الطريق بما تحتويه مـن نزهات ومناظر وسواني ودور لبيـع القهوة.. إنهـم يعتزمون إيصالها، على ذلك النحـو، حتى إلى مدينة سانطا ماريا.

وبمـا عرفناه عن ابن عثمـان من حاسة دبلوماسية رائعـة، فقد استجاب للدعوة الموجهة إليه من كبار المسؤولين في قادس، وهكذا وجدناه يحضر حفلـة استقبال شـارك فيها النسـاء إلى جانـب الرجـال.. وإذا كان هذا الاستقبـال تم في ظروف اجتماعية اقتضت عـدم حضور الموسيقى وعدم

مساهمة الرقص في تنشيط الاحتفال، فقد حضر ابن عثمان حفلاً آخر في قرية (خنيطة) Gineta، كان صاخباً ومثيراً حيث كان في صدر المشاركين قاضي المدينة الذي لم يلبث أن خرج لميدان الرقص على ما يحكيه في كتابه (الإكسير).

ومن هذا النص المتعلق بقادس في كتابه (البدر السافر) لابد أن نلاحظ الإشارة إلى مهمته في كل من مالطة لدى حاكمها إيمانييل دوروهان، وفي نابولي لدى الأمير فيرديناند الأول... وقد علقنا على هاتين المهمتين عند الإتيان بالنص بما نكتفي بالإحالة عليه.

متن الرحلة

...[1] وبعد، فإنه لما كانت أسباب الخير ودواعيه وردت متواترة مؤثرة، فيمن يفهم القول ويعيه، وجعل الاعتناء به أفضل مساعيه، وكان من أعظمها ومهمتها فكاك الأسير من الأسر، وإنقاذه من أغلاله والأسر، ولا سيما إذا شفع بإحسان ينعش ما وهن من قواهم ويشد الأسر، كما ورد في الكتاب والسنة، ووعدنا على لسان نبينا صلى الله عليه وسلم...[2].

بالإعراض يسومه.

وكان مولانا أمير أمراء الإسلام، وملاذ الخاص والعام، الذي خضعت

(1) – جرت عادة بعض النساخ أن يتركوا في مقدمة التأليف على نية أن يملأه المؤلف بنفسه أو بعض تلامذته ممن يفوض له من المريدين، يحلون فيه المؤلف بما يناسب من النعوت والألقاب قبل أن يأخذ في صلب المتن، وقد يبقى هذا البياض كما هو في انتظار من يكتبه، وقد يكتب بمداد ملون لا تتمكن الآلة من التقاطه... ونحن نفترض أن يكون البياض مشتملاً على البسملة والتصلية. وذكر ابن عثمان لنفسه متوسلاً إلى الله أن يعفو عنه ويأخذ بيده في هذه الدنيا وإلى أبد الآبدين.

(2) – هنا حديث شريف كتب بمداد ملون فيما نعتقد حاولت أن أرجع للنص الأصلي الذي كان غير متيسر!

الأمــلاك لهيبتــه، وأتت طوعــاً أو كرهاً لخدمتــه وألقت إليه يــد الانقياد والاستسلام، سيدنا ومولانا أمير المؤمنين، وناصر الدين، المجاهد في سبيل رب العالمــين، الغني بنصر الله عن الأنصار، في تمهيــد الأقطار والأمصار، على مر الليــالي والأيام، والدهور والإعصار، وتأمين الضعفاء والمساكين، ومن تمــرد إصابة من بطشه إعصار، سيدنا محمد بــن مولانا أمير المؤمنين، مولانا عبد الله ممــن اختاره الله تعالى للقيام بهذا الوظيف، وشرفه بتوجيهه إليه أيما تشريف، ليبرأه من ظله الوريف ما ليس له تكييف. أراد الله أن يبين فضله عليه، إذا أراد الله بعبد خيراً خلق ونسب إليه.

فسمــت نفســه السامية، لتحصيل هــذه الأمور التي ليس لــه فيها إلا ما يرجوه من الثواب والأجر ممن (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور).

فعجم عيدان كنانته، وتأمل في خيار عصبته، وجهابذة جماعته، فهيأ الله لنــا من أمرنا رشداً، ولا أعد منا مــن فضله مدداً. فوجهني إلى هذا المقصد الــذي لا يضاهي، ولا تحد مآثره ولا تتناهى، وأصحبني ستة وثمانين ألف ريال تصــرف في فداء الأسارى يبــدأ بالنساء والصبيــان والشيوخ وذوي الأعــذار[1]، ثم غيرهـم من الرجال، ابتغاء مرضاة الله ورسوله، بلغه الله من فضله غاية مأمولة وسوله.

وذلــك من جزيــرة مالطة ونابلطــان[2] وما تيسر من غيرهمــا من البلاد والأوطان.

---

(1) – يلاحــظ أن العاهــل المغربي تعمد في تصريح مكناس 1777 أن يعطي الأولويــة في التحرير للسيدات والصبيان والشيوخ وذوي الحاجات الخاصة.

(2) – القصد إلى نابولي.

ورأيت أن أقيد ما أبصرته في سفري، وأنا بذلك غير حري لقصوري عن الإدراك وترادف الشواغل والمشاق العظام على قلب ضعيف، تارة بالقسم على مقتضى أغراضها، وتارة بالاشتراك. وهبني استكملت للتأليف الشروط، والحال بالفراغ مقبوط، وكل كلب مشوش بنباحه مشجور ومربوط. ولو لم يك إلا الإقدام على أناس مختلفي الألسن والألوان والأجناس، ما فيهم إلا ذو مكر وعدوان وعدم المعوان، لكان في ذلك ما يذهل الأديب عن أدبه، وكان في قبقبه ما يشغله عن ذبذبة[1]، فكيف والبضاعة مزجاة، والنفس من كثرة ما تقاسي من ركوب البحر، الذي لم يتقدم لنا به عهد، والإنسان فيه سليب القدرة الاختيار، ملقى كصبي في مهد، لا تتشوف إلا إلى رحمة الله المرتجاة، والسلامة والنجاة، مع مرافقة حسود كؤود لم تكن له في حسب ولا نسب عراقة، ولا له بأسباب الحياء والحشمة أدنى علاقة. قد أخذوا أنفسهم بالمباهتة، وعلى طرقها تدربوا[2]:

إن يسمعوا الخير يخفوه وإن سمعوا
شراً أذيع وإن لم يسمعوا كذبوا

قد تنخلهم الدهر أخبث ما فيه، واختارهم السفيه فالسفيه، ولو لم يكن إلا هذا الفصل الأخير مجرداً عن التكاليف، لكان أقوى سبب في عدم التهيئة إلى التأليف. فهذه الأحوال قد شرحت، والدعوى قد رفضت وطرحت، ومن شيم الأحرار إقالة العثار، وقبول الأعذار، على أني إنما

(1) – القبقب: البطن، والدبدب: المزج، وهناك حديث يروى يقول: من وقى شر قبقبه وذبذبه ولقلقه (يعني لسانه) فقد وفي الشر كله.
(2) – الإشارة إلى رفاق الرحلة ممن خصهم بالخاتمة التي قلنا عن رأينا فيها!

رسمته لأمثالنا المقصرين إذا كانوا له بعين الرضى والإغضا مبصرين.

وسميته: (البدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك[1] الأسارى من يد العدو الكافر).

والله سبحانه وتعالى أستعين، وأسأله أن يكون لنا خير معين، بيده الخير، ولا عبرة بالغير.

ذكر ركوبنا البحر من طنجة وسفرنا إلى جزيرة قادس

... كان سفرنا من حضرة مولانا المنصور بالله حمراء مراكش، نصر الله علمها وأمن حلالها وحرامها في ثاني ذي الحجة متم سنة خمس وتسعين ومائة وألف (19 نوفمبر 1781)، فتوجهنا إلى مكناسة ثم إلى فاس، ثم إلى تطوان بقصد قضاء بعض أغراض من مولانا الإمام، ثم وردنا على طنجة فسمع بنا طاغية[2] إسبانيا كارلوس طيرسيو (Tercero) أي الثالث، وأننا نريد التوجه إلى جزيرة قادس بقصد كراء المركب الذي نتوجه فيه إلى مالطة لكون مرسى الجزيرة المذكورة مقصوداً للمراكب في البحر الكبير والصغير، فبعث إلينا مركباً من مراكب الحرب يحملنا إلى قادس مراعاة لسيدنا ومولانا، ولما تقدم بيننا وبينه من المعرفة لما كنا عنده سنة أربعة

(1) – ذكر عبد السلام بن سودة أن أبا عبدالله محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي نسخها واختصرها وسماها: أنس السائر في اختصار البدر السافر، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، البيضاء، دار الكتاب، 1960، ج2 ص 335.

(2) – اصطلح الفقهاء القدامى على إطلاق كلمة الطاغية على ملك النصارى، وهكذا فعندما كان الشيخ خليل في مختصره في الفقه المالكي (باب الجهاد) يتحدث هناك، أثار قضية الهدايا تقدم إلى إمام المسلمين من لدن الطاغية... لكن الملك محمد الثالث لم يلبث أن استبدل هذه الكلمة في آخر أيامه بكلمة (كبير قومه) أو (عظيم قومه)... التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج1، ص 307، الإيداع القانوني: 25/1986 مطابع فضالة، المحمدية.

وتسعين (1779)[1].

ولما وصلنا طنجة ونزلنا بها وجدنا المركب المذكور في مرساها فنزل منه رئيسه وقدم علينا في جماعة من أكابر قومه مع القنصو الذي هو نائبهم فأظهروا من الأدب في سلامهم ما لا مزيد عليه، وقال الرئيس: إن عظيمه بعثه بقصد أن يحملنا في مركبة إلى قادس، وأنه عند أمرنا، ومهما أردنا السفر فهو متهيئ متأهب، فقلنا له: نحن كذلك موجودون، فقال: إن الريح الآن غير مساعد لسفرنا، وقد كان ذلك في فصل الشتاء، والريح إنما تهب فيه دبور[2] وهو غير موافق لنا، فأقمنا بطنجة ننتظر هبوب الريح الشرقي، اثنين وعشرين يوماً، فقدم علينا ذات يوم رئيس المركب يأذننا (كذا) بالسفر وبالريح المساعد، فتأهبنا وحملنا حوائجنا وأثاثنا إلى المركب، وفي عشية ذلك اليوم هيؤوا زورقاً كبيراً لركوبنا، فصلينا، وركبنا. وذلك في سابع ربيع النبوي سنة ست وتسعين ومائة وألف (20 فبراير 1782)، والبحر من كثرة هيجانه لا يطاق النظر إليه فضلاً الركوب عليه! لأن البحر يعظم بتلك المرسى بالريح الشرقية، فلم يبق من أهواله بقية، فجعل كل من معه حصن أو عوذه[3]، يرددها ويتنجز بالسلامة من الله وعوده! فما انفصلنا عن ساحل البلاد حتى أتتنا الأمواج في قراع وجلاد، والبحر إنما يتزايد في أهواله، وتنافر أحواله حتى أيسنا من الحياة، ورأينا النجاة من ذلك البحر

(1) – تمت هذه السفارة في التاريخ المذكور وكان الهدف منها عقد معاهدة لتجديد الصلح بين الدولتين لافتكاك الأسرى الجزائريين الذين كانوا بإسبانيا.

(2) – الدبور: الريح الغربية عكس الصبا وهي الريح الشرقية.

(3) – القصد بالحسن هنا الورد الذي يتوسل به إلى الله في ساعة الشدة، والعوذة: ما يتعوذ به المؤمن لاتقاء الشر.

لمن أعظم الآيات! فما وصلنا ذلك السفين حتى خر القوم للأذقان جميعاً، وكلهم يقذفون قيئاً أو رجيعاً، كأنهم أعجاز نخل خاوية، أو صرعى بنت خابية[1]! فوجدنا أهل المركب قد أوقدوا شمعاً كثيراً، وصعدوا فوق ظهر المركب إلى ملاقاتنا فرفعونا إلى المركب، وقد وهنت أعضاؤنا، ولم تبق إلا أشلاؤنا، وأدخلونا المكان المسمى بالقامرة[2]، وشغل الرفيق بنفسه عن الرفيق، مستلقياً كل واحد من سكره لا يعيق، ثم قدم إلينا الرئيس كثيراً من الحلاوى والأطعمة والأشربة يكرمنا بها ويهادي.

لقد أسمعت لو ناديت حياً

ولكن لا حياة لمن تنادي!!

واعتذر عن إخراج المدافع التي يتعين إخراجها عند حمل الباشطور[3] على مقتضى قوانيهم بأن الطاغية أمرهم أن لا يخرجوا المدافع ليلاً، ومن الغد يخرجها. فبتنا تلك الليلة بالمركب، ومن الغد عند الصبح إذا أسفر، تأهبنا، وأخرج ما في مركبه من المدافع، وحمل المخاطيف[4]، وسافرنا قاصدين جزيرة قادس. وقد كان الريح ضعيفاً وفي منتصف النهار أنعم الله علينا بريح قوي مساعد، فسرنا به بقية يومنا، وعند المغرب وصلنا المرسى، فحين أراد الدخول تكلم معه في آلة يسمونها البوق، يستفهمونه من هو؟ ومن أين أقبل؟ على عادتهم، فأجابهم بالآلة المذكورة وعرفهم بنفسه

(1) – يعني كأنهم سكارى تناولوا بنت الخابية أي النبيذ التي تختزنه الدنان.

(2) – القامرة: كلمة إسبانية Camara وهي الحجرة والقاعة والمكان الرفيع في المنزل.

(3) – الباشطور كلمة محرفة عن اللفظ الإسباني embajador وهي تجمع عند ابن عثمان في كتابه (الإكسير) لنبشدريس embajadores أي السفير أو السفراء، وكثير هي الألفاظ الدخيلة في التركيب المغربي وخاصة في المجال الدبلوماسي.

(4) – المخاطيف: جمع مخطاف ويقصد به المرساة: الأنجر Ancla.

وأنه أتى من طنجة حاملاً الباشطور، ثم أعاد عليه قوم آخرون السؤال، فأجابهم، كما تقدم حتى توسطنا المرسى، وأرسينا بها، فقدم علينا (رئيس المرسى)[1] وهنأنا بالسلامة، وبعد هنيئة ورد علينا كبير مراكب الحرب بقصد السلام، وقال: كل ما تريد من مراكب الحرب في هذه المرسى فأعلمنا به ولك ما تحب ونحن منفذون لجميع ما تريد، بهذا أمرنا عظيمنا.

فجازيناه خيراً وشكرنا فعل عظيمه باعتنائه بسيدنا أيده الله، إذ اعتناؤه بنا اعتناء به. ثم ترادفت رؤساء مراكب الحرب في الورود علينا ليلاً في فلايكهم[2] بقصد السلام لأن ذلك عندهم أمور لازمة يعتقدون وجودها لمن يجب له ذلك!

ولما استقر المركب بالمرسى وسكن من الاضطراب، وأفاق من أغمي عليه بسبب الميد[3] وغاب، اجتمع لدينا مهنين بالسلامة جميع الرفقاء والأصحاب، واستعذر رئيس المركب للقرى[4] بما لا مزيد عليه، وأحضر من غرائب الأطعمة والأشربة ما لا يهتدي إليه. فتناولنا من ذلك ما شاء الله جبراً لخاطره، ومن الغد بعد طلوع الشمس وردت فلايك من المدينة، متكلفات صنايعهم والزنية، بعثهم كبير البلد المذكور، وفيهم من الأعيان الجمهور، فوردوا علينا وقالوا: إن الحاكم مسلم عليك، وقد فرح بقدومك، وقد كانت بيننا وبينه معرفة سابقة، وبعثنا نائبين عنه في

(1) – إضافة منا ليستقيم المعنى.

(2) – الفلائك جمع فلوكة، وأصلها في العربي الفصيح الفلك بضم الفاء وتسكين اللام، وهي الزورق.

(3) – الميد: دوار أو غشيان من سكر أو ركوب بحر، ماد الغصن يميد: تمايل.

(4) – القرى ما يقدم للضيف من الطعام، ومنه قولهم: إن الحديث جانب من القرى يعني اعتذروا عن أنهم لم يحضروا أكثر من هذه الأطعمة والأمر الواجب يقتضي أكثر من هذا!

السلام عليك، وهو مشتغل بتهيئة المنزل، وهذه الفلوكة المزينة لركوبك، والفلايك الأخر لخدامك وأصحابك.

فتأهبنا، وقربت الفلوكة فنزلت من المركب إليها، فإذا هي في غاية الزينة، وبحريتها كذلك على شكل واحد من اللباس، فلما استوينا عليها أخرج صاحب المركب الذي قدمنا فيه جميع ما به من المدافع وأجابته مراكب أخر كانت بالقرب منه بالمرسى، ثم صفر صافر من وراء الفلوكة التي نحن بها في آلة، وفي ذلك إشارة وإذن للبحرية أن يتوجهوا بنا إلى المدينة، ومهما ساروا مقداراً قليلاً يمسكون المجاذيف ويقفون، وينزعون ما على رؤوسهم، ويقولون بلسان واحد ما معناه: الله يطيل عمر السلطان. ويجيبهم جميع من مروا به من أهل المراكب بعد أن يصعد جميع بحريتهم على الأحبال والصواري.

واستمروا كذلك إلى أن وصلنا الساحل فوجدنا به أكداشاً[1] متعددة أحدها لركوبنا والباقون لمن معنا. ولما نزلنا البر أخرجت من الأبراج مدافع كثيرة في مقابلة ما خرج من البحر.

ثم قربت الأكداش فركبنا وتوجهوا بنا إلى الدار التي أعدوا لنزولنا. فوجدنا بها طائفة من العسكر إظهار للتعظيم والاعتناء، ثم دخلنا الدار وقد هيؤوا بها جميع ما يتوقف عليه من فرش وآنية وخدمة وغير ذلك. ثم ورد كبير البلد مع الأعيان بقصد السلام علينا فأدخلناهم المنزل الذي نحن به وأقعدناهم على كراسي. وأظهروا من الفرح والانشراح بقدومنا

(1) - الأكداش جمع كدش، وهو تعريف للفظ الإسباني coche كوتشي، أي العربة التي تجرها الخيول والبغال.

عليهم شيئاً كثيراً وبقوا هنيئة عندنا، واستأذنوا في الانصراف فودعناهم.

وكتبنا إلى عظيم إسبانية وأعلمناه بحلولنا في بلده وبما فعل معنا خدامه من البرور وأننا متوجهون من عند مولانا أمير المؤمنين إلى ولده عظيم نابل[1] بعد أن نقضي غرض مولانا أيده الله من جزيرة مالطة[2] وفداء أسارى المسلمين منها، وقد تعينت علينا مكاتبته وإعلامه بما ذكر من حيث حللنا ببلاده ولما سبق بيننا من المعرفة السابقة.

ثم أمرت بعض خدامنا القائم بأمورنا أن يتقضى من المؤون والأطعمة كما يجب أن يكون، وزيادة ما فيه إظهار للقوة والرفاهية[3]، فسمع بذلك الحاكم، فقدم علينا وامتنع من ذلك الامتناع التام وقال: إنك تريد بهذا أن تهلكنا عند الملك، فإننا نعرف حقك ومنزلتك عنده فنحب منك أن لا تفعل هذا الأمر فإننا نتأذى منه، وكل ما يحتاج إليه نحن نأتي به، فأجبناه إلى ذلك لما تكرر طلبهم، وتمادوا على إكرامهم وبرورهم بنا. وفي أثناء ذلك وردت أعيان البلد للسلام علينا أفواجاً أفواجاً فرادى وأزواجاً.

---

(1) – كانت نابولي ضمن الدول العشرة التي تناولها المنشور الملكي المغربي الصادر بتاريخ 19 ذي القعدة 1191/20 دجنبر 1777 القاضي بمنحها حرية التجارة مع المغرب على نحو الروسيا وأمريكا... وعلى نحو ما عرفناه في العلاقات المغربية الإسبانية فقد فتح الفصل العاشر والأخير من اتفاقية أرانخويس (Aranjuez) بتاريخ مايه 1780، المجال لملك الصقليتين فردناند الأول ابن ملك إسبانيا كارلوس الثالث للاستفادة من مكاسب الاتفاقية المغربية الإسبانية... وقد وصل السفير ابن عثمان فعلاً إلى نابل أواسط شعبان 1196/ غشت 1782 لتتميم المهمة حيث أقام في ضيافة المملكة النابولية على ما يشير إليه ابن عثمان هنا ويتحدث عنه بتفصيل فيما بعد... التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج 9 ص 278 – 279.

(2) – يشير ابن عثمان هنا إلى أن مهمته في مالطة لدى حاكم مالطة على ذلك العهد إيمانييل دوروهان – Emmanuel Derhan (1775 – 1797) تهدف إلى افتكاك الأسرى المغاربة الموجودين هناك، وقد أوردنا خبر هذه السفارة والأعضاء الذين كانوا صحبة ابن عثمان وما احتف بها من ملابسات مما تأكد لدينا عند زيارتنا لجزيرة مالطة، في المجلد التاسع من التاريخ الدبلوماسي للمغرب ص 320 – 323. وانظر حديثي عن العلاقات المغربية المالطية بمناسبة زيارتي للجزيرة، (جريدة البيان المغربية 8 مارس 99).

(3) – يلاحظ احتفاظ السفير المغربي بالمظهر الذي ينبغي أن يتحلى به الدبلوماسيون من إظهار الأريحية والكرم.

وبعد ثلاثة أيام مــن مقامنا ورد علينا خليفة الحاكم، وهو من قبل الطاغية وليس على يد الحاكم، فقـال: إن أهل البلد بعثـوني أستأذنك في قدومهم عليـك بقصد السـلام، وأن تعين لهم الوقت الذي يردون فيه، فأذنت له في ذلك وعينت له الوقت، ومن الغد حين قرب الوقت المعين، سمعنا دوياً كبيراً وارتجت المدينـة، وإذا بأكداش متكلفة وطبـول ومزامير ومن ورائهم خلق كثير لا يحصى عددهم، فوقفوا بباب الدار، وتقدم واحد من الأكابر وقال: إن القـوم قـد وصلوا، ومن العادة أن تتلقاهم، فإنمـا وردوا بقصد تعظيمك والتنويه بقدر سيدنا ومولانا أمـير المؤمنين، فتلقيناهم فإذا بأمم لا تحصى من الخاصة، فأدخلناهم الدار حتى إذا وصلنا القبة المعدة للملاقاة تميز منهم ثلاثة أناس لابسـوا السواد، علامة لهم، وتأخر الباقـون ودخل معنا الثلاثة فقط والترجمان، فجلسنا معهم علـى كراسي معدة لذلك فتكلم أحدهم بكلام معنـاه: إن المدينة مدينتـك، ومن فيها خولك[1] وخدمتـك، وفي كل شيء نافـذة كلمتك! وإننـا نائبون في السلام وفيما ذكرنا، عـن جميع أهل البلد فبلسانهم تكلمنا، وعما في ضمائرهم ترجمنا، لأننا نعتقد استجلاب خاطر عظيمنا بذلك، فقد رأينا ما لاقاك به من الإجلال والتعظيم المرة الأولى، وإن سيدنـا أيده الله لجدير أن يعظم من انتسب إليه وأولى. فجازيناهم خيراً على حسـن لقائهم والفرح والبشاشة الناشئ من تلقائهـم، وقابلناهم بما يناسب وشيعناهم، وركبوا أكداشهم وتوجهوا على هيئتهم التي جاؤوا عليها، وقد فعلـوا مثل هذا لما قدمنـا عليهم قبل هذا، وتلك عندهم عـادة يفعلونها من

(1) – الخول جمع خولي: العبيد والإماء وغيرهم من الحاشية.

البشطور الذي يرون حظوته ومكانته عند الطاغية. وفي هذه المدة التي أقمنا عندهم بقصد البحث عن المركب الذي يحملنا إلى مالطة أسدوا إلينا إكراماً كثيراً، وورد في أثناء ذلك جواب الطاغية لنا بالترحيب الكثير وإطلاق اليد في بلده وماله، وحكمنا في جميع ما نريد، وأظهر بقدومنا انشراحاً كثيراً، وكتب إلى عامل البلد وحضه على القيام بحقوقنا وتنفيذ جميع مآربنا وكافة شؤوننا، وتقدم إلينا أنه إذا دفعنا في بلده من عندنا ولو أدنى شيء فإنه يخشى على نفسه! فقدم علينا الحاكم وأعيان الجيش وقرأ علينا ما كتب به إليه الطاغية، وجعل يعتذر إن وقع منه تقصير، فكانوا يصنعون من الأطعمة والأشربة ما يكفي المائتين فكنت أوصي الطابخ أن ينقص أشياء كثيرة من الطبخ فيسمع بذلك الحاكم فيأبى، فقد بلغ إنفاقهم علينا في ستة وعشرين يوماً ألفين اثنين وأربعين ريالاً كبيراً[1].

ولا بأس أن نصف هذه المدينة وإن كنا ذكرناها في رحلتنا المسماة بالإكسير[2] فهي تعني (قادس): جزيرة في البحر الكبير متصلة بالبر بمقدار قليل، لها باب واحد إلى البر، والبحر محيط بها إلا هذا المقدار القليل، وأما بنيانها فقد قل نظيره حتى في بلاد النصارى فربما يعتقد من رآها أنها ملك رجل واحد لتناسب بنائها وتشاكل أبواب دورها، وشبابيك الحديد[3]

(1) – حاولت في جلسة خاصة من الزميل الدكتور الأب رامون لوريدو دياز أن أعرف عن صرف الريال على ذلك العهد والوصول إلى تحديد لمبلغ بالصرف الحالي... وإذا اعتمدنا نظرية الأستاذ محمد الفاسي عام 1965 من أن الريال يساوي ألفي فرنك فإن المبلغ يقارب خمسة ملايين فرنك على ذلك العهد.

(2) – سمى ابن عثمان قادس (Cadiz) في رحلته المسماة الإكسير سماها قادص، وكذا يسميها المغاربة، وهي مدينة على المحيط الأطلسي مقابلة لطنجة... وقد مكث فيها ابن عثمان المرة الأولى (12 ذي الحجة 1193/ 21 دجنبر 1779) مكث فيها يومين فقط، لكنه هذه المرة وجد فسحة في الوقت.

(3) – يظهر أن شبابيك قادس أثارت انتباه ابن عثمان الذي تحدث عنها في المرة الأولى ذاكراً أن هذه الشبابيك الحديدية تكون

البـارزات من الجدران علـى عدد طبقاتها في غايـة الاستقامة والتناسب، وأزقتها كذلك مستقيمة مرصفة بالحجارة المبسوطة، عامرة بأهل التجارة والبضائع والحرف والصنائع، مقصودة لكل مشتر أو بائع.

وأمـا مرساهـا فهي جون كبير[1] على شاطئه ست مـدن: إحداها مدينة قادس، فلو رأيت ما يكون بذلك المرسى من الازدحام لرأيت أمراً عظيماً حتى أنهـم جعلوا لها بابين: باب يدخلون منه وباب ويخرجن منه خشية من المصادمة إلا أن هذا المرسى صعب في الدخول والخروج حتى إن أهل البحـر يقولون: (من زعم أنه في البحـر رايس، يخرج من مرسى قادس). وأمـا المراكب التي فيها على الـدوام والاستمرار فكأنهـا الغاب! لا يؤثر في النقصـ منها مـن سافر عنهـا أو غاب، فـكل يوم يخـرج منها العدد الكثـير ثقالاً وخفافاً، ويدخل أمثاله أضعافـاً[2]، وبهذا الاعتبار يظهر لك من يجتمـع بهذه المدينة من المخلوقات في سائـر الأوقات على أن سكان السفائـن، يعمـرون وحدهم مدائن! ومع هذا فكل شـيء يروج في الدنيا يوجد فيهـا والجميع مجلوب حتى الماء يجلب إليهـا في البحر في الزوارق مـن مدينة قبالتنا يقال لها سنطمرية[3]، وكذا حجارة البناء والتراب، وهذا

وقاية لسراديب الزجاج داخل الغرف... انظر الإكسير تحقيق وتعليق محمد الفاسي سالف الذكر.

(1) – القصد بالجون إلى الخليج ويجمع على أجوان، خلجان (دوزي).

(2) – لاينبغي أن ننسى أن ميناء قادس كل محل تجمع لقطع الأسطول المغربي، ويقدر ابن عثمان المراكب التي بالمرسى عند زيارته الأولى بما ينيف على الخمس مائة مركب...

(3) – سانطاماريـة، أي القديسة مريم، وقد أطلق القشتاليون هذا الاسم علـى الميناء المذكور سنة 658–1260هـ تيمناً بانتصار الفونس العاشر في غارته الحربية على مدينة سلا قبل أن يقوم أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق باسترجاع المدينة المغربية، ويقدر ابن عثمان المسافة بين قادس وسانطامارية بنحو ثلاث ساعات وربع.

التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، 7 ص 55، 51 رقم الإيداع القانوني 25/1986.

في غاية الإغراب!

ومن غريب ما رأينا في هذه المدينة مدة مقامنا بها برج قديم قيل إنه كان على عهد المسلمين[1]، رحمهم الله، معد عندهم الآن لوضع الغرائب من آلات الحرب التي استنبطها الحكماء والمهندسون والفلاسفة، فقد توجهنا لرؤيته ذات يوم، فتلقانا كبيره المتولي أمره وأدخلنا، وأرانا العجب المبين، فمن ذلك آلة يجذب بها الهواء من المكان ويرده، وأرانا مثالاً لذلك، فأتى بآنية من الزجاج لا قعر لها، ووضعها على طبلة مركبة فيها تلك الآلة، وأخرج طائراً من قفص وأدخله تلك الآنية وغطى فمها ونحن نرى الطائر من ظاهر الزجاج، فقال: إن داخل هذه الآنية مملوء بالهواء، وفيه يجول نفس الطائر، وها أنا أحرك هذه الآلة وأجذب ما في داخل هذه الآنية من الهواء فلا يجد نفس الطائر مجالاً فيموت، فأدار تلك الحركة مرات قلايل وإذا بالطائر اضطرب وسقط لحينه فقال: إن تماديت على هذا العمل يموت، وها أنا أرد له الهواء فيفيق، فأدار الحركة إلى الناحية الأخرى، فدخل الهواء إلى الطائر.

وأرانا مثالاً آخر فأتى بآنية من الزجاج ملأها ماء، وأتى بأواني من الزجاج أيضاً صغار ضيقة الأفواه وجعلها في الآنية التي فيها الماء وقلب عليها آنية من الزجاج أخرى، وقال: إن هذه الآنية قد اشتملت على ما

(1) ~ يبدو أن القصد إلى حصن روطة عند مدخل عند مدخل خليج قادس، الذي يعتبر الوحيد الذي يجمع بين السمة العسكرية والدينية، وربما أقيم في نفس الموضع الذي كانت تقوم عليه رابطة روطة التي ذكرها الإدريسي.
وقد تعرض لغازات جيش أبي يوسف يعقوب. الإدريسي: نزهة المشتاق، طبعة نابولي. ابن أبي زرع: روض القرطاس، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1973، ص 326 - 347. سحر السيد عبد العزيز سالم: مدينة قادس، كلية آداب الإسكندرية، 1990، ص 135.

تحتهـا من الهواء والأواني الصغار التي في قلـب الماء ممتلئات بالهواء، وهو يمنع الماء من الدخول فيها، وها أنا أجذب الهواء فتمتلئ ماء.

فـأدار تلك الآلة فبينما نحـن كذلك إذ امتـلأت الأواني بالماء فقال: إن الهواء قد خرج منها، فدخل الماء، والآن أرد إليها الهواء إذ امتلأت الأواني بالمـاء فقال: إن الهـواء قد خرج منها، فدخل المـاء، والآن أرد إليها الهواء فيخرج المـاء. فأدار الحركـة للناحية الأخرى فجعل المـاء يخرج من تلك الأواني ونحن نراه من ظاهر الزجاج. فقلت له: وما نتيجة ذلك؟ وما فائدة هـذا العمـل؟ فقال إنه إذا كان المركب في البحـر وجعل يدخل الماء قعره، وليس بالقرب بر يأوي إليه، فإنهم يأتون ببيت من الخشب على قدر قامة الإنسـان مثل البيت تحمل فيه العرائس المسمى عندنا بالمغرب العمارية[1] ولـه ثلاث صفائح كالشكل المثلث، ألصقـت فيه سلاسل مربوطة في قعر ذلك المجوف، ويدخل المعلم في جوفه، ويقف على تلك الصفائح وقامته في داخل المجوف، ويصحب معـه الآلة التي يخدم بها ويدلونه في البحر بأحبـال في داخل الماء وقد علم الموضـع المفتقر للإصلاح، فقيل إن الماء لا يدخـل لذلك المجوف، وإن الهواء الذي به يمنع الماء من الدخول إليه، وإن المعلـم يخرج رأسه من أسفله فيخدم مقـدار ما يصبر في الماء، ثم يرد رأسه داخـل المجوف فيتنفس ثم يعـود إلى العمل، وهكـذا إلى أن يتمم عمله! وقيل إنـه إذا أبطأ في داخل البحر وطال مكثـه فإن ذلك المجوف يسخن عليه فيأتون ببراميل يعمرونها بالريح بآلة، ويسدون أفواهها ويدلونها إليه،

(1) - العمارية عبارة عن الهودج الذي تزف فيه العروس إلى زوجها، وقد يسمى البوجه. يكون بمثابة بيت خشبي صغير يسع العروس.

فإذا وصلته يدخلها معه ويفتح أفواهها فيخرج منها هواء بارد، ويفتح طاقاً في أعلى المجوف فيصعد منه الهواء الساخن، قيل إنه أخف من البارد، ولا يدخل عليه الماء إلى أن يفرغ من عمله ويجعل لهم علامة ويجذبونه.

وفيه من الغرائب المرآة التي تظهر البرغوث مثل رأس العنز، والشعر مثل الحبل وغير ذلك مما لا يفي التعبير بحقيقته! ومن غريب ما أرونا آلة ذكروا أن المراكب إذا ضلت في البحر ولم تهتد سبيلاً فبتلك الآلة[1] يعرفون أين يتوجهون وقد استنبطهما الإنجليز فذكر أن المعلم الذي استنبطها قبض زهاء مائة ألف ريال حلوانا وقد كان ذلك محققاً في المبيضة، فضاعت منا فيما أخذه اللصوص من حوائجنا جبرها الله علينا[2].

ومن غريب ما رأينا بقادس أيضاً خزين كبير خارج عن البلد بناحية البحر يضعون فيه البارود، وداروا به سوراً مثل الشاذروان[3] وعمدوا إلى وسط سقط الخزين وركزوا فيه حديدة وربطوا فيها أربع سلاسل رقاق ممتدة، كل واحدة إلى ركن من أركان الخزين وتجاوزته إلى أن وصلت الشاذروان، وقد جعلوا فيه حلقاً من الحديد أدخل في كل واحدة سلسلة من السلاسل على أربعة أركان وحفروا حفياً في الأرض لكل سلسلة أدليت فيه، واجتمعت الحفرات كلها وجعلوها حفيراً واحداً أخرج من

(1) – لعل القصد إلى السدسية (sextante) آلة ارتفاع الأجرام السماوية من سفينة أو طائرة متحركة.

(2) – من الطريف أن نجد ابن عثمان يشكو من ضياع مذكراته على نحو ما تعرض له ابن بطوطة قبل ابن عثمان ببضعة قرون، هذا وقد يكون من مشمولات المبيضة ما ذكره في الإكسير عن (الطري) (torre)، البرج، وجمعه طريس، مثل الصومعة وفيه مرآة عظيمة... بقصد مراقبة المراكب التي تظهر في البحر فيراها المكلف عن بعد كأنها أمامه، حيث يعرف عن هويتها ويرفع تقريراً عاجلاً عن السفينة وجنسيتها إلى صاحب المرسى ليكون على بصيرة من أمره.

(3) – الشاذروان يعني خزان ماء، أصل الكلمة فارسي.

تحت الأرض ومن تحت الشاذروان إلى أن وصلوه إلى بئر بالقرب منه، وفي وسط ذلك الشاذروان، بقرب خزين البارود المذكور، عمود كويل في رأسه مثل السنان من ذلك المعدن المصنوع منه السلاسل وفي أصله حفير أيضاً مشروك مع الحفير الأول. قيل إن الصاعقة إذا نزلت يجذبها ذلك السنان الذي في رأس العمود من نحو أربعين ذراعاً من كل ناحية، وتلصق به لا تفارقه، وتنزل معه إلى أن تنتهي إلى الحفير، وكذا إن سقط شيء منها على ظهر الخزين فإن تلك السلاسل تجذبه مثل المغنطيس وتبقى الصاعقة مستصحبة معها حتى تدخلها تحت الأرض وتمر في الحفير[1] حتى تسقط في البئر المذكورة! قيل إن المعدن المتخذة منه السلاسل المذكورة والعمود، له ملابسه الطبع مع الصاعقة وملازمة، فكل منهما يطلب الآخر ويجذبه ولا ينفصل عنه، فلذلك يجعلون هذه السلاسل في الأماكن التي يخاف عليها من الصاعقة ولاسيما البارود، فإذا نزلت الصاعقة تتلقاها السلاسل وتبقى مصاحبة لها إلى أن توصلها إلى البئر كما ذكر آنفاً، وقيل إن هذه الحكمة استنبطها الإنجليز، ووجدوا هذه السلاسل في بعض مراكب الإنجليز، وأخذها الإسبانيين في الحرب التي كانت بينهم قريباً[2].

ومن غريب ما رأينا بقادس الكنيسة التي أنشأت منذ ستين سنة، ولا

---

(1) - يظهر أن هذا الحفير الذي فصل الكلام عليه هذه المرة هو نفس الحفير الذي اكتفى بالإشارة إليه في المرة السالفة عندما تحدث عن (حفير كبير جداً مبني بأوثق بناء، وعليه قنطرة من خشب لها حركات وسلاسل ترفع وتوضع بها...) وهو يذكر هنا أن الإنجليز هم الذين اخترعوا أيضاً هذه الحكمة على نحو ما كان منهم في الحكمة السابقة.

(2) - يشير ابن عثمان إلى الحرب التي كانت بسبب محاصرة جبل طارق من سنة 1779 إلى 1782، هذه الحرب التي تعرف عن الموقف الخاص للمغرب إزاءها. Ramon Lourido Diaz، Marruecos yel mundo exterior en la segunda mitad del diglo xviii: ICMA، 1989، page، 447-464.

زالت الخدمة بها إلى الآن لم تصل إلى السقف، في ضخامة البنيان والنقوش الفائقة الغريبة الإتقان، والحنايا العظيمة الكبيرة الاتساع السامية الارتفاع، وكلها من الحجارة المنتخبة المجلوبة من البلاد: مالقة وقطلونية وغيرها، فقد أرونا عموداً من أعمدتها من الرخام الأحمر طوله نحو ستة عشر ذراعاً من حجر واحد مجلوب من مالقة وقطلونية، وقد كان عندي محققاً في المبيضة. ومن غريب بناء هذه الكنيسة أن في كل عمود من أعمدتها وتسمح بذلك نفس الشحيح البخيل، والمليون عشرة مائة ألف ريال، ولا زالت تحتاج في تكميلها إلى مال له بال، وقد صعدنا إلى سطحها، ولما يكمل بناؤها، بنحو مائة وبضع وخمسين درجة وهم بعد ذلك يجردون المنار في أعلاها[1].

ومن غريب ما رأينا بهذه المدينة ما أنشأه حاكمها في الطريق التي تتصل بها إلى البر، فقد تقدم أن لهذه الجزيرة اتصالاً بالبر بمقدار قليل مقدار شأو فرس[2]، وفي بعضها أقل حتى لا يبقى إلا مقدار نحو ثلاثين أو أربعين خطوة بسبب البحر حين يقرب ويبعد، وفي بعض الأماكن خلجان يتخللها البحر. فضربت الطريق فوقها بالبنيان فعمد إليها هذا الحاكم، وبني على جانبي الطريق بناءات وركز فيها قوائم الخشب مصبوغة بالأخضر واستمر مع الطريق على هذه الكيفية، وقد وصلت الخدمة فيها مسيرة نصف ساعة، ومن وراء تلك الشبابيك سواني لاستخراج الماء،

(1) – يذكر أن الكاتدرائية ابتدأ بناؤها في 1722 وامتد إلى 1790.

(2) – الشأو الشوط وقد تكرر هذا التعبير منه في كتابه الإكسير... على نحو ما ردده هنا.

وغرس عليها أغراساً ونواراً عجيباً، فأكسب ذلك منظراً غريباً، البحر عن يمين المار ويساره، وبعده اخضرار الأجنة، والشبابيك المصبوغة، والجميع اكتنف الطريق. وقد جعل في هذه الطريق دياراً معدة لبيع القهوة، وجميع ما يؤكل ويشرب، ولاستراحة المارين.

وقد ذكر لي أنه بلغ الإنفاق في خدمتها الآن نحو ثلاثين ألف ريال كبير، وهم عازمون على أن يوصلوا الطريق المذكور على النسق المذكور إلى مدينة سنطمرية مسيرة ثلاث ساعات وربع بالسير الحثيث.

وقد استدعانا ذات اليوم حاكم هذه المدينة بعد أن جمع وجوه العسكر وأكابر البلد وأعيانها من الرجال والنساء الضامات[1] بقصد الإكرام وإظهار الفرح، فلما قدمنا عليهم قاموا جميعاً إجلالاً وهيئوا لنا كرسياً لجلوسنا، وبالغوا في الإكرام والفرح، واعتذر الحاكم عن عدم حضور الموسيقى واستعمال الرقص بصيامهم، وأظهر من التأسف حيث قدمنا عليهم في أوانه، لأنهم لا يستعملون في أيام صومهم شيئاً من هذه الملاهي! وقالوا: تمنينا أن لو جئتنا في غير أيام الصوم فنستعمل كل ما عندنا من الفرجات بقصد تأنيسك وإظهاراً لمحبتنا في جانبك[2].

ويقينا معهم هنيئة تطييباً لخواطرهم، وتوجهنا من عندهم. وكان مقامنا

(1) – الضامات عنده جمع ضامة (dama) ويقصد بها السيدات وقد يجمعها على ضيم، ومنه لعبة الضامة عند المغاربة، وهي مأخوذة عن الإسبان.

(2) – بالرغم من قصر المدة التي ميزت الزيارات الأولى لابن عثمان لقادس، فإنه استجاب للدعوة التي وجهت إليه لحضور المسرح (comedia) من لدن بعض سكان قادس ممن كانت له صلة بالعاهل المغربي، حيث أصحاب آلات الطرب والموسيقى والرقص وحيث أنواع التصاوير والمشاهد التي تخيل للناظر كأنها قائمة الذات... وقد أعطى ابن عثمان في كتابه الإكسير وصفاً مدققاً عن الصيام (ص 109) مذكراً أن مدة الصيام 46 يوماً آخرها اليوم الذي يكون فيه القمر تاماً في شهر نيسان من حساب اليهود.

بقادس ستة وعشرين يوماً تقضينا فيها بعض الأغراض لسيدنا أيده الله. ويسرنا المركب لركوبنا وتأهبنا للسفر، وتهيأ الحاكم لتشييعنا، فيسر الأكداش لركوبنا، وأتى بالفلايك على هيئتهم الأولى من تمام الزينة. وودعونا وركبنا البحر من عندهم خامس ربيع الثاني من سنة التاريخ (20 مارس 1782)، ولما صعدنا إلى المركب أخرجت مدافع كثيرة، وبتنا تلك الليلة بالمركب، وتهيأ الرئيس للسفر وحمل مخاطيفه، ولم يترك إلا واحداً، ومن الغد بعد صلاة الصبح حمل المخطاف الباقي، وأرخى من شوارع[1] السفينة ما كساها، وتلونا: (وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها)[2].

وسافرنا والله الواقي.

(1) – يجمع ابن عثمان شراع على شوارع، وقد عبر عنها في الإكسير باسم القلع، بكسر القاف وسكون اللام، وجمعة قلاع وقلوع.

(2) – السورة هود، الآية 41.

الفصل الثاني



مالطة في رحلة السفير ابن عثمان

تمهيد

كنت قمت بزيارة لمالطة يبراير 1992 بدعوة من القنصل الشرفي للمملكة المغربيـة تقفياً لخطـوات الحضور العربـي هناك، وتقفيـاً كذلك لعلاقات القدس الشريف بحـكام مالطة، وبحثاً عن ملف ابـن عثمان سفير الملك محمـد الثالث لـدى (المعلم الكبير) حاكم مالطة إيمانييـل دور روهان (E، DE ROHAN) أواخر القرن الثامن عشر، وإذا كنت قد عثرت على بعض مـا يتعلق بالعرب وبيـت المقدس فلشدّ ما كان استغرابـي من اختفاء ذكر السفـارة المغربيـة في الأرشيف المالطي.. وقد وعـدت منذ ذلك الوقت، بواسطة الصحافة المغربية أوائل مارس 1992، بتتبع الموضوع وفاء للبحث العلمي، وخدمة لعلاقات المغرب بدول الحوض المتوسط.

مـن المعروف أنه لا يوجد هناك نص لاتفاقيـة مغربية مالطية في القرون الماضيـة علـى عكس ما كان عليه الحـال بالنسبة للجهـات التي تقع على البحر المتوسط، باستثناء الإذن المغربي بممارسة التجارة بالمغرب بتاريخ 20 ديسمـبر 1779، على نحو ما كان مع بعضـ الدول المتوسطية وأمريكا... وباستثناء العقد الذي أبرم بين الجانب المغربي والجانب المالطي فيما يتصل بافتداء الأسرى المحتجزين في الجزيرة أواخر القرن الثاني عشر الهجري - الثامن عشر الميلادي...

ولعل مـرد ذلك يرجع لكون المغرب يعتقد أن لبعض الممالك الأوروبية

تأثيراً على حكام مالطة، لذلك فإنه كان يقتصر في كثير من الأحيان على الاتصال بإسبانيا التي تقوم بدورها بإبلاغ الرسائل إلى أولئك الحكام، يضاف إلى هذا أن ملك الصقليتين: صقلية ونابولي هو ابن للعاهل الإسباني، ولا تخفى الصلة العضوية بين جزيرة صقلية وبين جزيرة مالطة.

ومن الملاحظ حقاً أنه كان هناك على ذلك العهد إحساس جيد بمراكز القوة في المنطقة، وعلى أساس ذلك الإحساس نرى كيف تجري الاتصالات، ومن هذا القبيل رأينا أن الرئيس الأمريكي الأول جورج واشنطن عندما أراد أن يحل مشاكل دولته مع أقطار إفريقيا إنما توجه للعاهل المغربي الملك محمد الثالث الذي كان الرئيس يرى أنه المؤهل الوحيد للوساطة بين الولايات المتحدة الأمريكية وبين طرابلس وتونس[1].

ومع كل ذلك فإن ما يختزنه الأرشيف المغربي من معلومات وإفادات عن تاريخ مالطة ليعتبر منطلقاً لكتابة تاريخ هذا الأرخبيل الذي يحتل قلب البحر المتوسط.

فمن خلال العشرات من الرسائل المتبادلة بين ملوك المغرب وبين قادة أوروبا الغربية والشرقية، ومن خلال الرسائل المتبادلة بين المملكة المغربية والباب العالي، ومن خلال ما كتبه السفراء المغاربة، وعلى رأسهم ابن عثمان، يتجلى أن للمغرب صلة وثيقة بجزيرة مالطة ليست على كل حال كصلته بالجزر الأخرى. ويأتي في صدر الأسباب التي جعلت المغرب يلتفت إلى الجزيرة المذكورة ذلك الماضي الذي شد تاريخها (إلى تاريخ

(1) – د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج9، ص 300 – 317، رقم الإيداع القانوني 25/1986، مطابع فضالة، المحمدية.

أورشليم القدس) منذ العصور الوسطى عندما أصبحت بعد أن تنازل عنها شارل كانت Charles Quint عام 1530، وكراً للفرسان الذين كانوا يوجهون منها الضربات القاسية للأساطيل التابعة للجهات الإسلامية التي ترعى القدس[1].

ويتبع هذا السبب آخر هو أن الجزيرة أمست سجناً كبيراً ينيخ بكلكله على الآلاف الأسرى المسلمين الذين كان معظمهم ينتمي أو يعطف على العثمانيين أو الولايات التي تسير في ركبهم من طرابلسيين وتونسيين وجزائريين، كانوا يعانون من قساوة طقس ذلك السجن وسوء غذائه حتى لقد أصبح من دعاء المغاربة على من يكرهونه أو يستنقلونه: (الله يعبيك لمالطة لا فرش لا غطا)!!

وقد دفعت تلك المعاناة الشديدة بالأسى ذات مرة إلى الإقدام على الثورة ضد الحاكمين مستغلين فرصة انشغالهم بعيداً لهم، لكن المحاولة فشلت وأدى ذلك إلى الانتقام الفظيع على ما سنرى...

لقد كان على المغرب، وهو صديق حميم للباب العالي: يعادي من يعاديه ويصادق من صادقه، وهو بحكم جواره للمغرب الأوسط والأدنى التابعين للعثمانيين، أقول كان على المغرب أن لا ينسى أبداً أولئك الأسرى

(1) – مما نذكره هنا أنه في سنة 1650 علم في جزيرة مالطة عن ركوب حجاج مغاربة في سفن إنجليزية وخروجهم من تونس لماصدين مكة، وفي الحين أبحرت من الجزيرة سفن شراعية كبيرة بقيادة الرئيس البحري بالطازار دي مانضولس – BA TAHZAR DE MENDOLS، وهو راهب يشتغل بالقرصنة ضد المسلمين، واعترض السفينة الإنجليزية، وأسر من فيها من الحجاج، واقتادهم إلى مالطة، وقد كان من بين الأسرى شخص متميز يعتقد أنه أمير من الدلاء الذين كانوا يحكمون في بعض جهات المغرب.

د. التازي: أمير مريني يعتنق المسيحية... ندوة كلية الآداب، تطوان 15/5/2000.

الذيـن ابتلعتهم الجزيرة! يتفقدهـم بإرسال الهبات والعطايـا، وبالتوصية خيراً بهم، وبالعمل على تحرير الأطفال منهم والنساء والعجزة...

وبهذا نفسر المرسوم الملكي الـذي صدر بمكناس بتاريخ 7 شعبان 1191 – 10 ديسمبر 1777، ذلـك المرسوم الذي أعطيته اسم (تصريح مكناس)، والذي يدخل ضمن الحركات الإنسانية التي قام بها الملك محمد الثالث في غرب البحر المتوسط، وقد قصد هذا الملك أن يعمم إبلاغ ذلك (التصريح) ملوك ورؤسـاء مختلف الدول التـي للمغرب صلة بهـا.. إسبانيا، فرنسا، إنجلـترا، هولندا، روسيا، أمريكا الخ.. هذا التصريح يدعو الدول إلى تحريم الرق والأسر ويعطي الأولوية في التحرير للأطفال والنساء والعجزة... بل إن هذا التصريح يحرم احتجاز السفن والمراكب التي تحمل الغذاء والقوت إلى قوم جائعين، لا يفرق في هذا التشريع بين أمة تعتنق هذا الدين أو ذاك، معلـلاً عـدم التفرقة تلك بأن شعـور الإنسان واحـد، لا يختلف بحسب الجنسـ أو الدين.. نعم على إثر تصريح مكناسـ ذلك، انطلقت سفارات مـن المغـرب إلى عدد من الجهـات في أوروبا تدعـو إلى جعل حد لأنواع الـرق وتقترح عدداً مـن الوسائل للقضاء على الأسر أينمـا كان وعلى أي شكل كان.

وقد كان في صدر السفراء الذين أنيطت بهم مهمة افتداء الأسرى السفير المغربـي محمـد بن عثمان الذي نجـد ذكره على كل لسـان: عرفه الأسبان وعرفه الفرنسيون والإيطاليون والإنجليز والأمريكان إلى جانـب العثمانيين الذيـن يعرفون جيداً أن تحركه من أجـل الأسرى، وخاصة في مالطة، كان من أجلهم ومن أجلهم وحدهم.

ومن حسن الحظ أن نجد هذا السفير يوم بتسجيل مذكراته في مختلف الجهات التي زارها.

فماذا عن سفارة ابن عثمان لمالطة؟ وماذا عن مذكراته حول مقامه هناك حيث كانت السكنى على مالطة وكان القرى على السفارة!! وماذا عن جديده حول تاريخ الجزيرة؟

كما سبق أن أشرت، فإن الملك محمد الثالث لم يكن له من هم غير التنفيس عن الأسرى المسلمين الذين كانت تتناهى إليه أخبارهم المزعجة من كل الجهات، وإذا أراد الله أمراً هيأ له أسبابه كما يقولون.

لقد توفرنا على رسالة من هذا الملك العظيم محمد الثالث إلى عظيم الإسبنيول كارلوس الثالث بتاريخ 20 شوال 1193 – 31 أكتوبر 1779 وهي رسالة تعتبر من الرسائل الهامة جداً في هذا الباب، وفيها يقول إن هؤلاء الأسرى وإن لم يكونوا من إيالتنا ولا لهم تعلق بنا إلا أن كلمة الإسلام جمعتنا وإياهم فلا ينبغي أن نهملهم... وقد بعثنا إليك ستة من النصارى المالطية تذكرة ومحبة لأن لنا محبة في تسريح الأسرى[1].

إلى جانب هذا نذكر أنه وقعت عام 1779 سفينة أجنبية كانت تمخر عباب التوسط في قبضة القراصنة المغاربة الذين كانوا يقومون بدورياتهم في عرض البحر، واتضح أن مما تحمله تلك السفينة بضائع ترجع لبعض تجار مالطة.

وهنا سنحت الفرصة لفتح ملف أسرى مالطة التي لم يكن لنا معه، كما

(1) – كان بعض هؤلاء المالطية ممن وجدهم الملك محمد الثالث في مدينة الجديدة عند استرجاعها عام 1769م.

أسلفنا عقد أو اتفاق... ووجدنا أن العاهل المغربي المذكور يخبر السلك القنصلي في طنجة بأنه سيعجل بإرسال مبعوث لمالطة هو محمد بن عبد الهادي الحافي[1] في مهمة مزدوجة: أولاً للإعراب عن حسن الاستعداد لإرجاع ما يخص المالطيين في السفينة إذا ثبت أن ما وقع في أيدي البحرية المغربية هو للمالطيين... ثانياً السماع للمبعوث المغربي المذكور بتوزيع الصدقات على الأسرى المسلمين وبكتابة لائحة بهم تمهيداً لإرسال سفير خاص للتفاوض في أمر فدائهم...

وهكذا التحق ابن عثمان بزميله ابن عبد الهادي الحافي في مالطة لإتمام المهمة التي كان العاهل المغربي يعلق عليها أملاً كبيراً... وقد صحبه في هذه المهمة مقدمان من تطوان هما القاضي السيد عبد الكريم بن قريش والسيد التهامي البناي، علاوة على شخصين آخرين هما الطيب بن جلول الفاسي ومحمد المير السلوي...

ولقد شوقتني مشاهدات ابن عثمان في مالطة، ومعلوماته المفيدة عنها، وإطرافه في البحث التاريخي عن سكانها وأصولهم، أقول: شوقني كل ذلك إلى القيام بالرحلة إلى مالطة أوائل فبراير 1992م حيث نظمت لي رحلة دراسية للجزر ما تزال آثارها محل تقدير وإكبار مني لمن كانوا وراء

(1) – لابد لي أن أتقدم بالشكر الجزيل لوزارة الشؤون الخارجية المغربية التي أبرقت بتاريخ 20/1/1992 إلى كل من سفيرنا بروما وطرابلس من أجل إنجاح الزيارة الأمر الذي تم بالفعل حيث استقبلني القنصل الشرفي للمغرب بمالطة السيد جرادة Jerada الذي حضر مقابلتي من لدن السفير المالطي زر بـ ZARB والسيد بوشةتيل Busuttel رئيس قسم إفريقيا بوزارة الخارجية والعدل في مالطة... وقد زرت مؤسسة الدراسات الدولية وجامعة مالطة والأكاديمية المتوسطية للدراسات الدبلوماسية والمتحف الوطني والمكتبة الوطنية حيث قدمت موسوعتي في التاريخ الدبلوماسي للمغرب وتعرفت على الأساتذة المهتمين بالتاريخ الدولي لمالطة واستمرت صلاتنا فيما يتعلق بالوثائق المغربية التي تتحدث عن مالطة... وقامت إذاعة المتوسط ووكالة الأنباء المغربية بتغطية هذه الزيارة.

إنجاحها[1].

وقد كان مما آنسني وأنا أعيش مع معلومات ابن عثمان أنني عثرت في المكتبة الوطنية بباريز على رحلة نادرة باللغة الفرنسية لمجهول كان بينها وبين رحلة ابن عثمان ثماني سنوات فقط ومن ثمة فإنها كانت تقرب الصورة لي ولو أنها أي الرحلة الفرنسية لم تتعمق كثيراً فيما يتصل بمواقع الحكم في مالطة وهي المعلومات التي استأثر بها ابن عثمان الذي زار داخل القصور وتمكن من تقديم مختلف الأسئلة التي كان يلقيها على المسؤولين مما يدل على أن معلوماته كانت موثقة، وأن الشيء الذي نأسف له كما أسف له ابن عثمان كثيراً هو ضياع مبيضة مذكراته التي كان يسجلها أولاً بأول والتي غابت عنه عند العودة فاضطر للاعتماد على ذاكرته في استحضار ما بقي منها في ذهنه منذ اليوم الأول الذي عاد فيه.

ومع ذلك (الضياع) للمذكرة فإن المعلومات التي قدمها ابن عثمان كنا بحاجة ماسة إليها لاسيما وقد انتصبت عدة علامات استفهام حول طائفة من النقاط تتصل بتاريخ مالطة سواء عندما كانت مالطة تحت الحكم الإسلامي أو عندما أمست بيد النورمانديين... وكذا تاريخ الجزيرة السياسي وكيف أن أهل الجزيرة الأصليين كانوا ضد كل الطارئين عليهم من مختلف الأجناس باستثناء العرب الذين كانوا لا يتدخلون في شؤونهم على ما سنرى.

---

(1) – MALTE PAR un voyageur Francais 1791 المكتبة الوطنية باريز وبهذه المناسبة أشكر الأستاذ أبا أسمهان أوس عبد الهادي على مساعدته القيمة...

وعلى كل حال فلنصحب ابن عثمان بعد أن تجاوز سردانية إلى الأرخبيل.

إن أبـرز ما يلفت النظر بالنسبة لـركاب السفينة، أي سفينة، هو تعلقهم الزائـد بالعنصر الـذي سخـره الله لنبيه سليمـان: الريح! فهم مـا يفتأون يتحدثـون عن (الريح)، وهـل أنها تسير في الاتجاه الـذي يريده صاحب السفينة أم أنها على العكس من ذلك تجري بما لا يشتهيه الربان!!

كان الريح بالأمس القريب بمثابة (البنزين) اليوم... فإذا كان عندك ريح يساعدك فأنت سائر، وإذا ركدت رياحك فأنت بين يدي الأقدار تصرفك كما تشاء!

وقـد عانى ابن عثمان من أمر هذا الريح وما عليك إلا أن تتبع مذكرات الرجل لتعيش مع المحنة المهنية التي عاشها!!

وصل ابن عثمان إلى مالطة أواخر ربيع الثاني 1196 الموافق أواسط أبريل 1782 بعـد أن قضى بالبحـر اثنين وعشرين يوماً تبتدئ من يوم غادر مدينة قادس بتاريخ خامس ربيع الثاني 20 مارس إلى أن وصل مالطة في منتصف النهار حيث استمر مقيماً بالجزيرة نحواً من أربعة شهور.

وقبـل أن نأتي بالنصـ الكامل لما كتبه ابن عثمان عـن مالطة نحاول أن نتعـرف في هذا العرض التمهيدي على الجديد الذي استأثر بذكره السفير المغربـي مما ينتظره سائـر الذين كتبوا عن مالطة في القـديم والحديث، من العـرب وغيرهـم ممن ربطتهـم آصـرة بالجزيرة مـن إسبانيـين وبرتغاليين وفرنسيين وألمان وإيطاليين وإنجليز.

بعـد أن يتحدث ابن عثمـان عما فرض عليه وعلـى رفاقه من خضوعه لفترة عزلة (الكرنطينة) للتأكد من سلامة البعثة الدبلوماسية، يتخلص لذكر

المهمـة التي أتى من أجلها لمقابلة حاكـم الجزيرة مذكراً بمهمة سلفه الحافي بـن عبد الهـادي الذي انشغل به ابن عثمان كثيراً كمـا انشغل برفاقه على ما سنرى.

وبعـد أن أخبرنـا بأنه قـدم أوراق اعتماده للحاكم الـذي سلم الخطاب فـوراً للترجمة، مما يعنـي أن هناك جهـازاً حاضراً للقيام بنقـل العربية إلى (المعلم الكبير) كما يسمونه، وبعـد أن طلب ابن عثمان العون والمساعدة لتحقيـق ما أتى من أجلـه، تخلص للحديث أولاً عن مينـاء الجزيرة الذي صنعته الطبيعة على أحسن ما يكون عليه الميناء من صيانة وحصانة، والذي لا نظـير له في بر المسلمـين ولا النصارى... ثم يتحـدث عن ميناء ثانوي للجزيرة يستعمل في الحالات الخاصة...

وهنـا يؤكد أن الجزيرة كانت في البحـر الشامي شجى يعترض العابرين قلما سلم المارون من كيده!!

وكأن ابن عثمان شعر أن الحديث عن مناعة الجزيرة لا يكفي فذكر بأنها أي الجزيـرة ليست محصنة فقط من جهة البحر، ولكنها محصنة من الداخل أيضاً تحسباً للطارئ يغشاهم فيتسلل لداخل بيوتهم ويعتدي عليهم!!

وهنـا يكشف ابن عثمـان في كلمات قصيرة عن حقيقـة أيدتها عندي سائر المصادر الأخرى التي قرأتها عن الجزيرة.

تلـك الحقيقة تقول: إن السكان الأصليـين للجزيرة كانوا يكرهون كل الطارئين عليهم ابتداء من البيزنطيين وانتهاء كذلك بالفرسان الذين منحهم العاهل الإسباني الإمبراطور شارلس كينت جانباً من الجزيرة عام 1530... ولم يستثن من ذلك (الكره) سوى العرب الذين فتحوا، بمساعدة السكان

الأصليين، الأرخبيل المالطي وأجهزوا على سائر البيزنطيين المتواجدين في الجزيرة.

وتؤكد سائر المصادر أن أهل الجزيرة قدموا للعرب سائر أنواع المساعدة علاوة على الهدايا التي كانوا يتقربون بها إليهم، وأن العرب بدورهم لم يمسوا سكان الجزيرة بأذى وأنه لم يكن يهمهم إلا أن يطمئنوا على حرية ملاحتهم في البحر المتوسط.

ويعطي ابن عثمان بعض المعلومات عن الحالة الفلاحية في البلاد فينوه بالمجهودات الضخمة التي يقوم بها المالطيون من أجل ازدهار أرضهم واستغلالها على أوسع نطاق حتى لا يضيع منها شبر واحد: يقلعون الأحجار ويأتون بالتراب من الجزيرة المجاورة... ويذكر من إنتاجهم القطن الجيد الأمر الذي تحدثت المصادر عن أنواعه الثلاثة بما فيها الذي له لون خاص!

هذا إلى الكمون الجيد والفواكه المتنوعة من برتقال وتين وباكور وبطيخ، هذا طبعاً إلى الأغنام التي كانت حديث المؤرخين والجغرافيين العرب القدامى من أمثال القزويني في كتابة عجائب المخلوقات...

لقد كتب الكثير عن مالطة حتى لو جمعت الأوراق التي حررت عنها وصفتها واحدة إثر الواحدة لتجاوزت حجم الجزيرة ذاتها! وسيبقى الناس يكتبون ما شاء الله لهم أن يكتبوا عنها لأن تاريخ الجزيرة مرتبط بتاريخ العديد من الجهات في مختلف أنحاء العالم، ومن هنا كنا نتتبع في رحلة ابن عثمان ما يمكن أن يكون سمعة أو التقطه قبلنا مما يلقي بعض الضوء على جانب من المعلومات التي ما تزال في حاجة إلى تبيين...

وقد لاحظ ابن عثمان في صدر ما ذكره في هذه المذكرات أن أهل مالطة يتكلمون بالعربية، وهذه معلومة على صغرها إلا أنها من ابن عثمان تحتاج إلى المزيد من التعليق لاسيما وهو شاهد عيان قبل أقل من قرنين فقط إن هذه المعلومة تؤكد ما أجمعت عليه التأليف تقريباً من أن ما بقي من الآثار العربية في الجزيرة كان أكثر بكثير مما احتفظت به ثقافات أخرى الأمر الذي يزكي ما قلناه أولاً من أن السكان الأصليين للجزيرة ظلوا يحتفظون للعرب بالذكر الجميل، ويكفي تصديقاً لكلام ابن عثمان – أن تتجول قليلاً في أزقة البلاد لتعرف الطرق والدروب... كثيراً ما تقرأ كلمة (TRIQUIL KBIRA) الطريق الكبيرة وبجانبها الترجمة الإنجليزية (Main street) ثم لتسمع عن الأعداد والأرقام: ثلثية، همسية، ثمينة، دسعة، أحداش، ثناش، ثلاش... ولتتبع أحاديث الناس بعضهم بعضاً لتقتنع بهذه الحقيقة. هناك بالطبع بعض تحريف في النطق لبعض الحروف لكن الحرف يظل هو الحرف، وقد أتيحت لي مراراً فرصة فهم ما يقال وأنا أتحدث إلى زملائي في الجامعة أو في المكتبة أو في المؤسسة الأكاديمية كذلك.

وحسبك أن تقف مثلاً على المعاجم المالطية[1] لتعرف عن حقيقة الصراع اللغوي ولتقف على الكلمات والعبارات. وقد كانت اللغة المالطية تكتب بالحرف العربي، ولا يزال في (مالطة) أدب عربي فيه الشعر والقصص والأمثال، وحسبك أن تتبع خفايا الحياة الاجتماعية في البلاد لتعرف عن

(1) – د. أحمد طلعت سليمان: معجم المفردات العربية في اللغة المالطية مع شرح التغيرات الصوتية والصرفية والدلالية، مكتبة لبنان 1992 – القاموس المالطي الإنجليزي الذي ألفه في جزءين اقيلينا J. Aquilina وانظر إلى جانب هذين: القاموس المالطي الايطالي...

ارتباطها القوي بالبنية العربية.

ولقد روت الرحالة الفرنسية المجهولة المؤلف سالفة الذكر أن الناس يرددون أمثالاً شعبية يرددها بعضنا إلى اليوم: (للمرأة خرجتان من بيتها: الأولى عندما تروح إلى بيت زوجها، والثانية عندما تروح عند ربها)! وهذا يعني أن المرأة المالطية ظلت متحجبة إلى العهد القريب... إلى مرددات أخرى مثل: (قبل ما تكري الدار تستقصي على الجار)!

هنا نقف على لقطات جد هامة من تاريخ الجزيرة، وأذكر على سبيل المثال حديث ابن عثمان عن وجود عدد من العدول المسلمين بالجزيرة، لماذا؟ لأن هناك طائفة من التجار المسلمين الذين لهم صلات اقتصادية بزبائنهم المالطيين، ولذلك فإن المعاملة في حاجة إلى شهادة العدول، ومثل هذه المعلومة من ابن عثمان لها قيمتها سواء من ناحية هيمنة السلوك العربي حتى ذلك التاريخ الذي زار فيه الجزيرة، أو من ناحية وجود جاليات عربية غير الأسرى والعبيد.

وهكذا فبالرغم من اختفاء السلطة السياسية العربية بالجزيرة إلا أن الوجود العربي بالمدينة ظل يفرض نفسه فرضاً على الذين يعيشون في الجزيرة وحتى بعد تغيير بعض المسلمين لدينهم فإننا نلاحظ الاحتفاظ بالأسماء العربية على ما كانت عليه.

ولابد أن لا ننسى شواهد بعض القبور التي احتفظت بما نقش عليها مما يرجع أقدمه إلى تاريخ شعبان –569 مارس 1174 الأمر الذي يؤكد أن أرخبيل مالطة ظل بعد أكثر من سبعين عاماً من دخول النورمانديين إلى الجزيرة، ظل محتفظاً بطابعه العربي.

ويتساءل المرء حقيقة عن السر في بقاء هذا الحشد الزاخر من الآثار بالرغم من قطع كل الصلات مع الهيمنة العربية على الجزيرة...؟

ونرى الجواب عن هذه الإشكالية يتلخص في أن العرب ولو أنهم غادروا هذا الفضاء كحكام وكأصحاب كلمة إلا أنهم، وخاصة عندما نشطت العلاقات التجارية في الجزيرة، كانوا يقومون في هذا الصدد بدور نشيط على ما أشرنا. هذا إلى ما أصبحت عليه الجزيرة وهي تضم مئات الأسرى. إن لم نقل الآلاف، من الذين أسسوا أحياناً رجال السلطة في الجزيرة، أمسوا هم كل شيء: يعملون في المراكب البحرية ويعملون في الميدان التجاري والفلاحي والصناعي وحتى التربوي... لذلك وبسبب عناد الحكم في عدم قبول افتداء أولئك الأسرى وجدنا أن المجتمع المالطي أمسى في حاجة إلى العرب والمسلمين أيما احتياج لسير البلاد..!!

وقد وقفت شخصياً على عدد من المخطوطات العربية التي كان يقوم بانتساخها أسرى من الديار المغربية لصالح الرهبان الذين يوجدون بالجزيرة، وعلى سبيل المثال صورت بعض الأوراق مما انتسخها العبد الفقير علي بن يحيى بن أحمد بن علي بن يحيى اليوسفي الزواوي... وكانت الأوراق المذكورة من (كتاب العوامل) تأليف الشيخ الإمام عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني. وكان الفراغ منه عشية يوم الجمعة الرابع والعشرين من شهر رجب عام أربعين بعد الألف وأما بحساب النصارى فعام ثلاثين وستمائة وألف.

كما أخذت صوراً من مخطوطة الأجرومية في النحو للإمام محمد بن داود الصفهاجي، ولم تقتصر هذه المخطوطات على هذه الموضوعات بل

تجاوزتهـا إلى انتساخ بعض الكتب الدينيـة المسيحية على يد الفقير الأسير بمالطة علـي بن يحيى الزواوي فكك الله وحله كتبـه للمعظم الراهب أخ فرنجسق الملطاوي. وكان الفراغ منه يوم الجمعة سادس رمضان عام 1039.

وكذا نسخ (تسبيحة) زكريا الكاهن وصلاة حزقيا الملك حين زاد الله في عمره، كتبه للراهب المعظـم أخ فرنجسق الملطاوي بتاريخ أواسط رمضان عام 1039 إلى مخطوطات أخرى من هذا النوع...

وعلى ذكـر هذه الحالات نرى من المهم أن نكشـف عن معلومة رواها السفـير أبو القاسم الزاياني في رحلته (الترجمانة الكبرى)[1] وتعطي فكرة جـد هامة عن دور فرسان مالطة في بيـت المقدس منذ أن منح لهم العاهل الإسباني المأوي بالجزيرة.

ويتعلق الأمـر بحكاية الشيخ إبراهيم الدمياطـي الذي حج مع الزياني، والـذي حكى عن نفسـه أنه وقع في أسر المالطية وكان معه خُرج فيه دفاتر ونحـو المائة ريـال، أخذوا الخُـرج والريال ورموا لـه بالدفاتر التي كانت عنـده أهم مـن الخُرج! ولما دخلوا بنـا لمالطة طلبت رئيسهـم أن يرد على الخـرُج لأحمل فيـه الدفاتر فكلمهـم، فرموا بـه إلي فجعلت بـه الدفاتر وجعلتـه علـى كتفي، ولما وقفوا بنـا عند طاغية مالطـة ورأى الخرج على كتفـي، سأل الرئيس عني بلسانهم فما أدري ما قال له فأخّرني، وتوجهوا بالمسلمـين للسجن وخلـوا سبيلي، فقلت لهم: إلى أيـن أسير أنا، فكلمني أحدهم بالعربية وقال: أنـت مسرح، انزل بالكنيسة عند الرهبان، وتوجّه

(1) – تحقيق وتعليق عبد الكريم الفيلالي... نشر وزارة الأنباء – المغرب – 1387 – 1967، ص 192 – 193.

بـي إليها فلما بلغتها دخل بي إلى الراهب الذي بها وقال له باللغة العربية: هـذا القاضـي سرحه الأمـير إلى أن يظهر مركب يتوجـه لأرض المسلمين ويركب فيه، فوضعت الخرج عـن كتفي وجلست مع الراهب، فوجدت عنده دفاتر بجنبه ينظر في بعضها، فقلت: أتعرف خط المسلمين؟ فضحك وقال: لعلك تقرأ؟ قلت نعم، فناولني السفر الذي بيده فوجدته تفسير أبي السعود، ثم ناولني آخر فوجدته تفسير البيضاوي، ثم ناولني آخر فوجدته تفسـير الزمخشري، ثم ناولني آخـر فوجدته تفسير الرازي، وفي آخر ورقة (كتـب هـذا التأليف ببيت المقدس سنـة كذا، فقلت له: مـن أين لك هذا التفسـير؟ قال: استنسخته ببيت المقدس لما كنـت قاضياً به، فقلت له: من أين لـك القضاء ببيت المقدس وأنت راهب؟! قـال: سبحان الله ليس هذا ببعيد، إني كنت غلاماً عند قاضي العسكر فلان وأنا على نصرانيتي وكنت أخدمه وأكتب فتعلمت الخط والكتابة والترسيل ثم ترقيت إلى فقيه ونجبت فيـه. ولما رأى نبلي وفطنتي رقاني إلى المراتب فقضّاني مرة، بكذا، وأخرى بكذا، وعلى سبعة مراتب بلغت القضاء ببيت المقدس فتوجهت له!

ولمـا بلغني مـوت أستـاذي وأكملت سنتـي، رجعـت إلى وطني ممتلئ الحقائـب، وعدت إلى دين آبائي وأجدادي، ووالله إني لا أشتغل إلا بدفاتر ديـن الإسلام وهي أنسي ومحافظتي علـى المسيحية لا أبغي بها بدلاً، قال: فكنت أستأنس به ويسليني!

ولمـا ظهر مركب لبعض الكفار الصالحـين متوجه لكندية؟ كلف رئيسه بحملي، وزودني من عنده وأحسن لي مدة إقامتي معه نحو الشهر؟!

كل هذا مـن شأنه أن يسلط الضوء على عبارة ابن عثمان التي تقول: إن

أهل مالطة يتكلمون بالعربية.

وقد وجدت الموسوعة الإسلامية في طبعتها الجديدة مسوغاً للحديث عن مالطة مع أنها ليست بلداً إسلامياً فذكرت أن أحد الأسباب الهامة لحضور العربية في الجزيرة هو أن اللغة الرسمية للبلاد مستمدة من اللغة العربية...

وأخيراً نرى من المفيد أن نردد هنا ما ذكره ابن عثمان أيضاً في الخاتمة مما يعبر جيداً عن وجود مسجد جامع بالجزيرة تقام فيه صلاة الجمعة... وذلك عندما كان يتحدث إلى رفيقه القاضي عبد الكريم ابن قريش حول شروط إقامة الجمعة والاستدلال بما أورده الشيخ خليل في مختصره حول الفقه المالكي من استيطان البلد وحضور اثني عشر مصلياً... وهذه المعلومة الواضحة يؤيدها وجود طريق في قلب مالطة يحمل إلى اليوم اسم طريق الجامع!

أما عن الماضي القديم للجزيرة فإن ابن عثمان يؤكد أن الجزيرة تضرب في جذور التاريخ وأن أهلها تنصروا بواسطة الراهب الذي يحمل اسم سان بول Saint Paul الذي كان ميناء مالطة يحمل اسمه فعلاً على عهد ابن عثمان...

لكن المعلومة التي يجب الوقوف عندها حقيقة هي التي ربما تكمل ما شاع في بعض التآليف من أن سكان مالطة من أصل بربري[1]! ابن عثمان

(1) Georges S. Colin: mots (berberes) dans le dialecte arabe de malte، in memorial Andre Basset Paris، 1957، Librairie d، Amerique et d،Orient، Andrien maisonneuve، P.P: 87-98

د. التازي: جورج كولان من خلال أعماله: بحث قدم لمجمع اللغة العربية بالقاهرة – أبريل 2000.

هنـا يذكر أن اللواتيين – وهم قبيلة بربريـة تنتشر بالمغرب الكبير ابتداء من إيو لاتـن (جنوب المغرب)[1] إلى ناحية طرابلس – يقول: أفراد هذه القبيلة هم إخوان لأهل مالطة، كانوا يعيشون معهم بالجزيرة، فلما تنصر إخوانهم بالجزيرة (في القرن الأول الميلادي) فروا البر العودة، ويعرف بعضهم بعضاً على أنهم إخوان وإنما فرقتهم النصرانية..

ولا أخفي أنني لكثر ما تأثرت بهذه (المعلومة) أخذت أتساءل عن أصل اسـم العاصمة (فاليتا) وهل إنه في الواقـع آت من كلمة ولاته المحرفة عن لواته؟! التي هي تعريب لكلمة إيو الاتن..؟!

وبعـد هذا يتخلص ابن عثمان لتاريخ الجزيرة في العصر الوسيط... ومن الإنصاف القـول مرة أخرى بأن السفير المغربـي كان يعتمد على مصادر موثوقـة، وهكذا فنحن مع معلومات كان جديراً بنا أن نتتبعها ونحن نقرأ عن الحـروب التي دارت بين العـرب والفرنج أثناء الفتـح الإسلامي، عن مضاعفاتهـا وذيولها وامتدادها عبر البحـر المتوسط... فهناك لقطات كنا نهملهـا ونحن نتحدث عن تاريخ المشـرق، وهناك محطات لم تلفت نظرنا ونحـن نستعرض المؤامـرات التي كانت تحاك ضـد التعايش بين الأديان، تلك المؤامرات التي كان يذهب ضحيتها أحياناً أبرياء، وكان يقف وراءها متطرفة من هـذا الجانب أو ذاك. وقد وجدت نفسي مرغماً – وأنا أكتب عـن بعض فـترات التاريخ الدولي لملـة الإسلام وخاصة مـا يتصل بتاريخ

(1) – Jean-Leon l،AFca ne:Description de l،Afrique Trad. A. EPAULARS Paris 956، P. 463 note 14.

القدس – على أن أعود للإشارة إلى الورقات التي كتبها ابن عثمان في مخطوطته (البدر السافر) عند استعراضه لتاريخ (الأبالسة) الذين وجدوا في مالطة مأوى لهم يوجهون منه الضربات الموجعة للإسلام.

لقد تم فتح مالطة من قبل المسلمين عام 256–870 في أعقاب فتحهم الحاسم لصقلية حيث نقرأ في أبرز المصادر التاريخية أنه في هذه السنة ذهبت قطعة بحرية من صقلية برئاسة القائد أحمد بن عمر بن عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب لكسر الحصار المضروب على مالطة من قبل الأسطول البيزنطي.

لكنه أي ابن عثمان، وقد ضاعت مذكراته الأصلية، يؤكد أنه ضل عنه أيهما فتح المسلمون قبل، ومعنى هذا أنه ربما كان فتح مالطة سبق هذا التاريخ، ومن الممكن أن يكون الأرخبيل تعرض منذ 221هـ – 835م لغارة استطلاعية إذا ما اعتبرنا أنها أي الجزيرة تدخل ضمن الجزر التي بعث إليها إبراهيم الأغلبي بأسطوله هذا العام.

ويعتقد بعض المؤرخين الأوربيين أنه ليس من بدع القول الاعتقاد بأن مالطة سقطت في يد المسلمين منذ ما قبل 184–800...[1].

ويهتم ابن عثمان بتاريخ انتزاعها من يد المسلمين مؤكداً أن الذين قاموا بالعملية هم النورمان عام 483–1090 برأي زعيمهم روجي RUGGERO بعد أن احتل صقلية، لكنه سمح للمسلمين بالبقاء في الجزيرة إلى سنة

(1) – د. التازي: صقلية في مذكرات السفير ابن عثمان 1978، ص 47، تعليق 39.
E. Rossi: MALTA، Enc. De I.Islam.

647–1249 وهـو التاريخ الذي أقصاهم فيهـم من الجزيرة الملك فريديرك الثاني FREDERIC II...

وقد بقي حكم الجزيرة بيد النورمان إلى أن صارت إلى الإسبان الذين سلموا جزءاً منها عام 957هـ – 1530م إلى من عرف بفرسان مالطة على ما سنرى.

وهنـا يأتي ابن عثمـان بفذلكة تاريخية مفيدة عـن أصول ظهور هؤلاء (الفرسان) الذين ينعتهم أحياناً باللقطاء الشرداء الطرداء! وأحياناً بالشياطين المردة أو المتسلطين الأبالسة...

لقـد كان هـؤلاء، في حديث ابن عثمـان، مصدراً للشـرور والمآسي التي عرفهـا المشرق في العصر الوسيط بسبب تعنتهـم وتطرفهم وأخذهم بطريق العنـف والحيف، الأمر الذي أشعل نار الحروب في بيت المقدس وما والاها في مصر وبلاد الشام إلى أن امتدت إلى القسطنطينية وجزر البحر المتوسط...

إن رؤسـاء مالطة، يقـول ابن عثمان مجموعات (سبعـة ألسن) على حد تعبـيره فمنهـم الفرنسيون والإيطاليـون والأسبان والبرتغـال والألمان... نصبـوا أنفسهم لخدمة الراهب سان جان الذي كان يعاصر السيد المسيح، فكيف تم ذلك؟

من المعلوم أن العادة جرت بـأن يقصد الحجاج المسيحيون بلاد القدس لزيارة مقام السيد المسيح عليه السلام، وربما انقطع هناك عدد من ضعفائهم ممن يفضلون الانصراف إلى العبادة...

وفي هذه الفـترة بالذات التي كانت تصادف حكـم الفاطميين للقدس الشريف حدث أن بعض الفرنسيين من الذين اتخذوا في مصر مراكز تجارية لهم فكروا في أن يتطوعـوا بإنشاء ملجأ خيري: مستشفى ببيت المقدس،

يـأوي إليه ضعفاء الحجاج ومرضاهم، ففاوضوا في الموضوع أمير القدس آنـذاك الذي ساعدهم على مبتغاهم... وشاع أمر المستشفى فتهافت عليه عدد كبير من القاصدين والراغبين.

وممـا زاد في إقبال النصارى على المكان تشييد كنيسة تحمل اسم السيدة مـريم... ولمـا كثرت أعـداد القادمين على المـكان، وخاصـة بعد سقوط القدس في يد اللاتين في شعبان –492 يوليه 1090، تطور الأمر إلى فرض شـروط على من يريـد الانخراط في زمرة (الهيـأة)... كان منها أن يكون المنخـرط من أبناء الأكابر، وقد شجع البابا هذه الحركة بإعطائها الإذن في أن تلبس الثياب البيض كشعار لها...

وإلى هنا كانت الأمور تسير في طريقها بيد أمير القدس في مملكة اللاتين، وكان يحمل اسم أموري الأول Amaury الذي طمحت نفسه إلى احتلال مصر ومناوأة جواره الخلفـاء الفاطميين الذين كانوا بالأمس يشرفون على إدارة القدس!

وقد اتجهوا بقوتهم نحو بلبيـس (Billbaiys) تمهيداً لاحتلال مصر وكان ذلك عام 564 – 1169 حيث قصدوا ديار مصر مستعينين بالمراكب البحرية، وجرت معارك طاحنة انتهت باستئصال الطامعين والمغيرين ولم ينج من هؤلاء الأستون راهباً فروا إلى بيت المقدس الذي كانت كنيستهم فيه تهدمت...

وقد نجحت الوساطة على أساس الشروط التي خضعوا لها من الاقتصار على العبادة...

وهنـا التمست هيـأة الستين أن يبتنوا كنيسة جديـدة لهم بالأموال التي يتوفـرون عليها، الأمر الـذي تم الوفاق عليه وحملـت الكنيسة من اليوم

اسـم الراهب المعروف (سان جان بابتيسـت) (Baptiste) الذي ينتسبون إليـه. وفي خضم هذه الأحداث برز اسم هيـأة الاستبتارية أو فرسان سان جـان الأورشليمي. ولم تلبث تلك الكنيسـة أن حصلت على أموال طائلة مـن الاكتتابات والجبايات والأوقاف، وأصبحت مداخلها تفوق العد... وتجـاوزت استثماراتها إلى صنـع المراكب البحرية لربـط الاتصالات مع الأنصار في الخارج... بل ولمضايقة خصومهم في كل مكان.

ثـم أصبح لزامـاً على كل من يريـد الانتساب لهذه (الهيـأة) أن يقضي في خدمتهـا سنتـين اثنتين داخل الأساطيل الحربيـة التي تتحرك لإسكات خصومهـا فإذا رغب أحد المنخرطين بعد قضـاء السنتين في أن يستمر في الخدمة فإنهم يذهبون به، يقول ابن عثمان، إلى كنيسة سان جان ويطعمونه الخبز والملح، ويأخذون عليه العهود والمواثيق في أن يموت على نصرة سان جـان وأنـه يصبر على العرى والجـوع ولو لم يجد غير الخبـز والملح، وأنه يتنازل عـن جميع ما يملك سوى الخمسـ، وأن لا يتزوج ويعطونه حينئذ خرقة بيضاء يجعلها فوق صدره إشارة إلى أنه من أتباع سان جان، ويستمر في الخدمـة يترقى رتبـة إلى أن ينال لقباً يساعده علـى أن يصبح من رجال الشورى والحل والعقد، ينتظر حقه في أن يصبح رئيسا لطائفة سان جان..

ولم يؤثـر فتح صلاح الديـن لبيت المقدس عـام 583–1187 على نشاط الأتباع الذين كانوا يستفيدون من تسامح المسلمين ومعايشتهم.

لكن الأمر تطور بعد وفاة السلطان صلاح الدين الذي كان يمسك زمام الأمور بجد وعزم، تطور إلى حد تأثير هذه الجماعة على أمير القدس المسلم لكن يعلن انفصاله عن السلطة المركزية واعدين إياه بالوقوف إلى جانبه!

لقــد (وسوســوا) إليه أن أرضه كثيرة وسكانها كثــير، وإن الخليفة بعيد، وأنه إن كان في حاجة إلى النصرة فهم يضمنون له ذلك...

ولم تلبــث الفكرة أن وجدت صداهــا في أمير القدس، الأمر الذي أسلم المنطقة إلى سلسلة من القلاقل تفسرها الاصطدامات التي دارت رحاها بين الملك الكامــل صاحب مصر والملك الناصر صاحب الشام، تلك الحروب والمآســي التي انتهت باتفاقية 626 – 1929 مع الإمبراطور فريديريك الذي تسلم مفتاح مدينة القدس لفترة من الزمن[1].

ومــن ذلك القبيل مــا قرأه النـاس في التاريخ عن حماقــة أخرى كانت تهــدف لاحتلال مصر بالرغم ما قرأناه عن فشل المحاولة الأولى، هنا قرأنا عــن إقدام لويس التاســع ملك فرنسا عــام 647 – 1259 على ضرب مصر ووقوعــه أسيراً في أيــدي المصريين حيث حفظنا قصيــدة جمال الدين ابن مطروح التي يقول في أولها:

قــل للفرنسيس إذا جئته
مقال نصح من قــؤول فصيح
أتــيــت مـــصراً تبتغي ملكها
تحسب أن الزمر – يا طبل – ريح!
فــســاقــك الــحــين إلى عسكر
ضاق به عن ناظريك الفسيح

(1) – د. التـازي: مراجعـات في التاريـخ الدولي للإسلام علـى ذكر أزمة الخليج. عرض ألقي خلال الجلسـة العادية المنعقدة بأكاديمية المملكة المغربية يوم 1990–9–20.

وعاد الحكام المسلمون إلى رشدهم ليعرفوا أنهم ضحايا مؤامرات رهيبة تحاك لهم، فاتفقوا أخيراً على أن يتحدوا ضد كل الدسائس التي تفرق كلمتهم وتسيء إلى قضية الإسلام وصمموا على المقاومة...

وبعد سقوط عكة في يد المسلمين عام 690 – 1291 انتقلت جماعة الأسبتارية إلى قبرص لمزاولة نشاطها هناك[1] ولم تلبث أن تحولت إلى جزيرة رودس عام 709 – 1309 حيث ظلوا يقومون بأعمالهم المعادية... وبعد أن فتح العثمانيون القسطنطينية عام 857 – 1453 اكتشفوا أن الإمبراطور البيزنطي مكن أولئك من موضع مجاور لأرضهم فأخذوا يشنون الغازات على العثمانيين، الأمر الذي حمل السلطان محمد الفاتح على إجلائهم عن ذلك الموقع أيضاً!

وبين هذا وذاك نلاحظ أن العاهل الفرنسي يظل الملاذ المفضل لتلك الطوائف عندما يتعلق الأمر بمسعى دبلوماسي، ونعتقد أنه في هذا الإطار تدخل محاولة العاهل الفرنسي الملك فيليب دوفالو فيليب السادس لدى السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام 730 – 1330 للتنازل عن القدس الشريف مقابل مبالغ سخية من المال وتنازلات عن مواقع جغرافية هامة...[2].

وقد حمل هذا الموقف الفرنسي السفير ابن عثمان لتوجيه الملام إلى ملوك

(1) – ينبغي أن نذكر بغارة قبرص على الإسكندرية عام 767 – 1365 وحيث تصدى الأمير ال إبراهيم التازي إلى إفشالها د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب 7 – 220.

(2) – ابن فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق سمير الدروبي، منشورات جامعة مؤتة بالعربية والإنجليزية 1413 – 1992.

د. التازي: مصر ترفض رسالة لفرنسا حول بيت المقدس، مقال نشر على نطاق واسع في المجلات والصحف المغربية والمشرقية.

فرنسا الذين استمـروا في استغلال مصالحهم المشتركة مع الدولة العثمانية للتأثير أيضاً على السلاطـين العثمانيين الذين كانوا أحياناً يشتركون معهم كتفـاً لكتـف في حروبهـم ضد خصومهـم، للتأثير عليهـم في أن يغضوا الطرف عما يجري في القدس من احتكاكات كان وراءها تلك الجماعات المتطرفة التي تحاول إضعاف النفوذ الإسلامي بأورشليم.

وقـد أشـار ابن عثمان لكون أولئـك (المتطرفين) هم الذيـن كانوا وراء إغراء الغـزالي أمير القدس في بداية عهد العثمانيـين بالانفصال عن الباب العـالي حتى يتأتى لهم فعل ما يريدون بالقدس بعيداً عن السلطة المركزية الأمـر الذي تنبهـت إليه الحكومة العثمانية فتحركـت في الحال لإسكات الحركة الانفصالية.

ولقـد استشهد ابن عثمان بالشعر وهو يعلق على تصرف الفرنسيين إزاء تحيزهـم لجانب المتطرفين الذيـن لم يعودوا يقنعون بشـيء، والذين أخذوا يحرمـون على المسلمـين الوصول إلى بعض المناطـق في القدس على ما سنقرؤه في المذكرات التي سجلهـا ابن عثمان في رحلته المسماة: (إحراز المعلى والرقيب...) لقد أنشدهم قول الشاعر:

لا تحقرن صغيراً في تقلبه

إن البعوضة تدمي مقلة الأسد

ولـلـشرارة نـار حين تضرمها

وربما أضرمـت نـاراً على بلد!!

ويعـود ابن عثمـان إلى الجماعـة (الأُسبتارية) فيذكر أنهـم بعد طردهم مـن بلاد الشام في أعقاب فتح عكة من لـدن السلاطين المماليك التجؤوا

إلى قبرص قبل أن يحتلوا رودس التي استمروا منها يوجهون تعليماتهم لأنصارهم... ومن هذه الجزيرة أخذوا يتحرشون بالأسطول العثماني في البحر المتوسط وهو الأمر الذي حدا بالسلطان سليمان القانوني إلى أن يحاصر الجماعة بقطع كثيرة من الأسطول البحري، ويجليهم من الجزيرة المذكورة، وهنا ضاقت بهم السبل فالتجؤوا إلى الملك كارلوس الخامس Charles Quint ملك إسبانيا وغيرها حتى يعطيهم بلاداً يسكنون بها فعين لهم، كما أشرنا، عام 936هـ 1530م (مالطة) التي كان استولى عليها قبل بضعة عشر عاماً...

لقد عين لهم الإمبراطور حيزاً محدوداً يبنون فيه مساكنهم، في المكان المعروف اليوم بالمدينة، وكان غابة فاقتلعوا أشجارها واحتطبوها... وشرعوا في بناء كنيستهم المنسوبة إلى سان جان واستوطنوا (المدينة) وبقي حكمهم يقتصر عليها فقط، وأما باقي الجزيرة فاستمر حكمة بيد الوالي الإسباني، والعجب أن ابن عثمان أهمل الحديث عن محاولة العثمانيين عام 972 – 1565 فتح جزيرة مالطة مقر (هيأة القديس حنا الأورشليمي) واستمر الحصار أربعة شهور استشهد أثناءها البطل المعروف طرغوت... لكن العثمانيين اضطروا لرفع الحصار عنها لما قرب الشتاء الذين تكثر فيه الرياح والزوابع[1].

وكعادة ابن عثمان فإنه ما انفك يردد أن سكان الجزيرة الأصليين كانوا يكرهون هؤلاء الطارئين الذين ألحقوا بهم أنواع الأذى كشأنهم مع

(1) – عزيز سامح إلتر ELTIR: الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا ترجمة محمود علي عامر دار النهضة العربية بيروت 1989. محمد فريدبك المحامي: تاريخ الدولة العثمانية، دار الجيل، بيروت 1397 – 1977م، ص 107.

جميـع من جاوروه على حد تعبير ابـن عثمان، وفي إطار حملته المستمرة ضد هـؤلاء المتطرفة يذكر أن حكم الأسبان على باقـي الجزيرة استمر إلى نحـو أربعين سنة من تاريخ وصـول ابن عثمان للجزيرة وهي الحقيقة التي تؤكدها المصادر الأوروبية.

ويحكي أكثر من هذا أن هؤلاء (الأبالسة)، وعلى نحو ما كانوا يسعون إليـه في القدس من الاستيلاء علـى المدينة طوال تواجدهم هناك، قاموا في مالطـة بمداخلة الوالي المعين من قبـل العاهل الإسباني وأغـروه بالأطماع وخدعـوه بالتملقـات فعينوه مـن الأكابـر: أتباع سان جـان، فسلم لهم الجزيرة بكاملها وهكذا أصبحوا هم سادتها!

وهنـاك يحكي عما قام به هؤلاء الطارئون ضـد القوانين التي كان أهل الجزيرة الأولـون يتبعونها، لقد كانوا يعينون أربعـة وكلاء يسمونهم أهل البلـد: ما عرف في بعض المصـادر الأوروبية باسم (L، UNIVERSITE) وكان بأيـدي (أهل البلد) مال معد لجلب الميزة والأقوات لسكان الجزيرة المنقطعـين بهـا، وقد جعلوا لذلك المـال فائدة ينمونها حيـث تكثر جباية الأقـوات.. وكان أصل هذا المال مـن الوصايا والهبات وما أشبه ذلك... وكان هـؤلاء الوكلاء أهـل البلد يقومون بهذا الوظيـف ونفوسهم راضية بذلك والسكان بدورهم راضون عما يقوم به الوكلاء.

فلما حل هؤلاء (الطارئون) بالبلاد تدخلوا في شؤون أهل البلاد وتساءلوا عمـا يصنع بهذا المال منذ سنين عديـدة؟ ولما أجاب سكان البلد بأن فائدة المال تستعمل لافتداء الأسرى... رفض الطارئون هذه الأفكار... وقرروا أن أهم ما يمكن أن يستعمل فيه هذا المال هو إنشاء فرق عسكرية، وهكذا

استــولى الطارئون على المــال الذي كان مخصصاً لمشاريــع البر والإحسان والذي تحول إلى مشاريع الإثم والعدوان...

ومرة أخــرى نلاحظ أن ابن عثمان كان حريصاً منذ بداية الحديث عن تاريخ مالطــة علــى أن يكيل المدح لأهــل البلاد الأصليين في الوقــت الذي يحمل فيه (الطارئين) مسؤولية الإضرار بالبــلاد والعباد، فأهل هذه الجزيرة يبغضون هذه الطائفة الخبيثة بغضاً شديداً، وهم معهم على طرفي نقيض يؤكد ابن عثمان.

وبعــد هــذا يقدم معلومات عن نظــام أولئك (الفرســان) في مالطة فيذكر أن كبيرهــم لا يحمل اسم الملك كما هي العادة عنــد باقي الأمم. ولكنه يحمل اسم (المعلــم الكبير) (Grand metre)، ثم يتحدث بعد هــذا عن طريقة انتخابية ولا يتردد ابن عثمان في اتهام هذه الجماعة بالارتشاء للوصول إلى الحكم!!

وهكذا يقدم ابن عثمان الذي أعتبره المصدر العربي الوحيد الذي قدم لنا هذه المعلومات عن مالطة أواخر القــرن الثامن عشر الميلادي، يقدم لنا معلومات في غاية الدقة والأمانة وكأن الرجل ينقل المعلومات من محاضر الدولة...

إذا مات المعلم الكبير يقوم خليفته في الحكم بمباشرة الأعمال ثلاثة أيام، وهناك أعيــان يحملون عندهم رتبة (البلى) (baylly) هــم الذين يحق لهم أن يرشحوا لمنصب المعلم الكبير فمن اجتمعت عليه (سبعة ألسن) أو أكثرها فإنه يتولى!

قال ابن عثمان: وربما اجتمع لأحد الأكثر وللآخر الأقل فعطي صاحب الأقل لصاحب الأكثر مالاً ويسلم له الأمر وذلك باختلاف الأغراض والبواعث!!

فإذا اكتملت الأيام الثلاثة اجتمع أهل (المدينة) كلهم في باب الولاية يترقبون الاسم المعلن عنه، وعندما يتم الاتفاق يشرف المجتمعون على أهل المدينة من نافذة ليذكروا لهم اسم (كراندميتر) حيث يكثر الصياح والضجيج، ولأجل

أن يكتمل الاحتفال بالتنصيب يقوم المعلم الكبير الذي ذكر اسمه بالتوجه إلى مالطة القديمة (La Cite Notable) ويسمونها البلد القديم، فإذا قرب المعلم الكبير منها أغلقوا الأبواب دونه، فيجلس أمام الباب... وهنا يخرج إليه أعيانهم سائلين: ماذا تريد؟ فيخبرهم بأنه عين للولاية وتم الاتفاق عليه، وهو يريد منهم أن ينضموا إلى الجماعة، فيقولون له: على شرط أن تسير معنا سيرة حسنة وأن تنصف المظلوم من الظالم، وأن تسوي بين الناس!

وعندما يجيب بأنه يقبل كل ذلك يسلمون له مفاتيح المدينة التي تكون حاضرة معهم... وهنا يعود (المعلم الكبير) إلى مقر الولاية في مهرجان عظيم...

تلك هي المعلومات التي قدمها السفير ابن عثمان عن تاريخ مالطة إلى حين وصوله إليها في مهمته الدبلوماسية وهي المعلومات التي تؤكدها كما أسلفنا، التآليف التي عنيت بتاريخ الأرخبيل... فماذا بعد هذا عن المهمة التي من أجلها أتى إلى الجزيرة؟

كما أسلفنا ورد ابن عثمان في مهمة إنسانية محضة لدى المعلم الكبير إيمانييل دوروهان الذي خصص له ابن عثمان حيزاً من مذكراته نظراً لما لقيه منه من حسن استقبال وعمل على إنجاح مهمته، قال: إنه يلبس السواد كسائر الرهبان، له من العمر سبع وخمسون سنة وإنه من أصل فرنسي لكنه تربى في إسبانيا إلى آخر المعلومات الدقيقة التي قدمها... رجل قليل الكلام، عاقل ذو أناة...

ومن الطريف أن نقرأ عن حادثة غريبة أن وقعت أثناء المهمة التي ورد من أجلها ابن عثمان، ويتعلق بإشاعة راجت، مفادها أن المغرب يهدف لإسقاط حكومة مالطة والاستعانة بالأسرى للاستيلاء على الحكم!

وكان سبب هذه الإشاعة أن ابن عثمان صرح بأنه – وهو يقوم بالمفاوضة مـن أجل تحرير الأسرى – ينتظر خمس سفن: أربع تقل الأسرى والخامسة تحمله إلى ملك نابولي[1]...

لقـد فهم بعضهم من هذا أن المراكب المنتظرة تحمل معها عدداً من الجند فـإذا أضيف لعـدد الأسرى الموجـود في الجزيرة فإن ذلـك يكون بالفعل جيشاً يستطيع كسر شوكة الحاكمين!.

وقد قوّى من انتشار الإشاعة أن الجزيرة عرفت في سابق تاريخها ثورات قـام بها الأسرى للتخلص مـن هيمنة الحكام، وقد تعرضـ ابن عثمان فعلاً لإحـدى هـذه الثـورات التي انتهـت إلى فشـل وإلى مآسي فظيـع ألحقت بالمحاولين للثورة على ما أسلفنا فلقد تصيد الثوار الفرصة ذات يوم والحكام مشغولون في عيد من أعيادهم فانقضوا على رجال السلطة لكنهم أي الثوار لم ينجحـوا في المؤامرة التي عـادت عليهم بالوبال والنكال، فكنت تشاهد استنطـاق الناس بطرق رهيبة شنيعة: لقد ربطوا أرجل بعضهم بمركب بينما ربطوا الأرجل الأخرى بمركب ثان وصار كل مركب في اتجاه!! وقد كانت أعضـاء بعضهم تقطع ويحمى بالنار على قطع من حديد لتوضع على مكان الجرح، وكان فيهم من قسم شطرين على ما سنرى في النص...

وإضافة إلى ذلك التصريح فإن مظاهر البذخ والثراء التي كانت تبدو على السفـارة المغربيـة كانت تعبر عن الإمكانيات الضخمـة التي من شأنها أن تحمي الثوار! وهكذا توتر الجو بين السفارة والحكومة الأمر الذي استدعى

(1) – حول مهمة ابن عثمان في نابولي، انظر التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج 9 ص 278 فما بعد.

من ناحية التعجيل بنقل من تحرر من الأسرى كما أنه استدعى من جهة أخرى التلكؤ في تحرير الباقي! حيث نرى أن ابن عثمان بالرغم مما بذله من جهد سيضطر لمغادرة مالطة ويترك مشكل الأسرى معلقاً إلى أن يجد له حلا في المستقبل..! وقد أثر هذا الإزعاج حتى على المخطط الذي كان مقرراً لتحرك أعضاء السفارة المغربية حيث نرى أن الرفاق الذين صحبوا ابن عثمان وهم ابن قريش والبنائي وجلول والمير... كان من المقرر أن يرافقوا، كل على حدة، السفينة التي تحمل الأسرى إلى الثغور المعينة لهم: طرابلس بنغازي، صفاقس الخ، فلما حصل هذا الإزعاج ترك أمر الأسرى إلى السيد الحافي، ورافق الأربعة الباقون السفير ابن عثمان إلى نابولي وهو الأمر الذي أحدث لابن عثمان مشاكل لم يخفها في (خاتمة مذكراته)[1].

وينتقل ابن عثمان للحديث عن مشاهداته في الجزيرة طوال المدة التي أقام فيها هناك، وحول ما صادفه من أعياد وحفلات تحدث عنها من وجهة منظوره الخاص وقد ركن بعد الكرنفال على احتفالين دعي إلى حضورهما من طرف المعلم الكبير أحدهما العيد الذي تسرج فيه المدينة ثلاث ليال... ويعرف بالمنارية (MANARIS).

لقد بعث الحاكم بالأكداش ليركبها السفير المغربي الذي وصل إلى دار حيث صعد إلى فوقيها ليشرف على طريق مستطيلة فرشت بالتراب... وتبين أن الأمر يتعلق بمسابقة الخيول وكذا الحمر المالطية التي يهتم بها

(1) – لقد اعتبر بعض الرفاق أنهم لا يقلون رتبة عن السفير فأخذوا يحاسبونه على بعض القضايا وفيهم من كان بعيداً عن مناخ الدبلوماسية فأخذ يقاطع أدوات الطعام إذا كانت من فضة!! ويقاطع الجلوس على الكراسي إذا كانت مغلقة بالحرير؟! هذا إلى أشياء أخرى أزعجت السفير الأصيل (أوف كارير)!

المالطيون كثيراً ويعهدونها بالصون والعلف الجيد..

ولقد حضر كذلك من أعيادهم عيد العنصرة: 24 يونيه... وعلى العادة توجهت إليه أكداش الحاكم التي حملته إلى القصر حيث أشرف على براح واسع فسيح ليرى احتفالاً تقليدياً جديداً دأب المالطيون على إحيائه بهذه المناسبة حيث رأى البراميل الموضوعة على التبن وكل واحد يبعد عن الآخر بنحو أربع خطوات حتى إذا ما غربت الشمس خرج الحاكم ومعه أربعة أو خمسة من أرباب الدولة، وفي يد كل واحد شمعة كبيرة موقدة... ثم نقرت الطبول وجعل الحاكم ومن معه يدورون بتلك البراميل مراراً قبل أن يوقد الحاكم النار في برميل ويتبعه رجال الدولة في البراميل الأخرى... ويعود الحاكم إلى قصره ولهيب النار يتأجج في البراميل والتبن الذي يوجد تحتها.

ولاشك أن ابن عثمان سأل عن أصول هذه العادة فذكروا له أن (سان جان) متبوعهم قتل وأحرق بالنار في مثل ذلك اليوم فهم يحيون ذكراه على ذلك النحو في مثل هذا اليوم من كل سنة...

ويستطرد ابن عثمان هنا فيذكر معلومة تهمنا كثيراً ويتعلق الأمر بإيقاد النيران في مثل هذه المناسبة بالديار الإسلامية وبالمغرب على الخصوص... فيذكر أن هذه تقاليد مسيحية تعني الاحتفال بسان جان وأن المسلمين يمارسونها وهي غريبة عنهم[1]!!

---

(1) - يظهر أنه في عهد ابن عثمان كان المغاربة يقومون أيضاً بمناسبة العنصرة 24 يوليه بإشعال النار ليلاً مع أن المعروف في المغرب أن عملية الإشعال إنما تتم بمناسبة عاشوراء وليس العنصرة التي تكون مناسبة عندنا للاحتفال بيوم الماء حيث يقوم الأطفال في الشارع برش المارة!!

.R. Le Tourneau: Fes، 1949، P 457 - 614

وقد كانت دعوة السفير المغربي من لدن حاكم مالطة لزيارة القصر فرصة ليقف فيها ابن عثمان على أثر حضاري في منتهى الأهمية، بذلت قصارى جهدي في تتبع معالمه في الجزيرة فلم أجد لذكره صدى هناك مع أنه مما ينبغي أن يعتبر من التراث الرفيع...

ويتعلق الأمر بوقوف ابن عثمان في إحدى قبب القصر على رخامة مستطيلة في عرض نحو الشبر بينما يمتد طولها على قدر عرض القبة، والرخامة مقسمة على عدد شهور السنة، وكل قطعة مقسمة بخطوط على عدد أيام الشهر، وفي الرخامة المذكورة الأبراج الفلكية مصورة على أشكالها مثل الأسد والميزان والعقرب والقوس والجدي والحوت وغير ذلك... وعلى قرب سقف القبة يوجد طاق على قدر الأنملة تدخل منه الشمس عند الزوال في سائر الفصول، وتستمر مع تلك الرخامة في سائر أيام السنة.

وحديث ابن عثمان عن هذه الساعة الفلكية جدير بالوقوف عنده كثيراً، فماذا كان يعني؟ وهل في الإمكان أن يقوم المالطيون اليوم بإحياء هذه الساعة الشمسية الفريدة من نوعها...

وقد ذكرني حديث ابن عثمان عن ساعة مالطة هذه بالساعة التي صنعها أحد المهندسين لصاحب مالطة في العصر الوسيط القائد يحيى، فحسب ما يرويه ياقوت الحموي في معجم البلدان (في مادة مالطة) فإن هذا الاختراع يعرف به أوقات النهار بالصنج، وهو الاختراع الذي طلب فيه إلى الشاعر المالطي عبد الله السميطي أن يجيز فيه المصراع التالي: (جارية ترمي الصنج فقال المالطي:

بـهـا النفـوس تبتهج
كـأن مـن أحـكـمـهـا
عـلى السـمـاء قـد عـرج
فـطـالـع الأفـلاك عـن
سر الـبروج والـدرج!!

كما ذكرني رسم قبة مالطة فيما رآه جوهن ويندوس كاتب السفارة البريطانية إلى المملكة المغربية عام 1721 فلقد سجل هذا الكاتب في مذكراته أنه شاهد قبة عجيبة الصنع في قصر السلطان مولاي إسماعيل بمكناس، سقفها مصبوغ بالأزرق وفيه نقط ذهبية تمثل النجوم، وفي وسطها دائرة من الذهب تمثل الشمس[(1)].

وقد كان مما وقف عليه ابن عثمان في قصر الحاكم المتحف الحربي الذي كان في جملة البرنامج الذي أعد له عند زيارة مالطة ويقول ابن عثمان عن هذا المتحف:

إنه شاهد قبة كبيرة جامعة لأسلحة الأقدمين تحتوي على الزرود والقسي والبيضات والأكسية الحديدية التي يصفها بدقة، وكيف أنك تعتقدها لأول الأمر أنها إنسان أمامك!

ولقد سمع ابن عثمان أن ما يتجمع في هذا المتحف يفوق كل ما

(1) – ابن زيدان: الدرر الفاخرة – المطبعة الاقتصادية بالرباط 1356 – 1937 ص 101 – جون ويندوس: رحلة إلى مكناس، ترجمته عن الإنجليزية د. زهراء إخوان تقديم د. عبد اللطيف الشاذلي، منشورات عمادة جامعة المولى إسماعيل 1993.

عرف عند الحكام الآخرين لأن لهؤلاء القوم في مالطة اهتماماً بمخلفات أسلافهم! وقد نوه الدبلوماسي المغربي بإتقان الناس لعملهم واعتنائهم بأمور دينهم ودنياهم.

ويقوم ابن عثمان بتوديع (المعلم الكبير) إيمانييل دوروهان في احتفال كبير على نحو الاحتفال الذي جرى عند الاستقبال الأول.

وبعد كل هذه المعلومات المفيدة عن تاريخ مالطة في تلك الفترة بالذات يعود ابن عثمان في آخر المطاف إلى ذكر مقيداته عن مهمته الدبلوماسية.

وقبل أن نصل إلى نص الرحلة لنستوعب ما ورد في ثناياها نرى أن مما يساعدنا على أن نكون في الصورة تماماً، أن نقوم باستعراض المكاتبات الدبلوماسية التي جرت بين المملكة المغربية والجهات الأخرى، وفي صدرها المملكة الإسبانية حول موضوع الأسرى... لعل هذا مما سيكشف بعض الجوانب الخفية للمهمة الدقيقة التي كان يضطلع بها المغرب تخفيفاً للعبء الذي كان يشعر به إزاء الأسرى الذين ينتمون لدولة شقيقة يتمتع ملوكها بتقدير كبير من العاهل المغربي.

ولابد لمن يريد استيعاب موضوع الأسرى الأتراك المحررين أن يقف طويلاً مع سفارة الطاهر فنيش إلى الباب العالي في هذه الأثناء (1197 – 1783) ليعرف عن المواقف المختلفة بين المملكة المغربية وبين الباب العالي الذي كان يتشوش بالسرعة مع كل تلك الجهود، من العلاقات بين المملكة وبين إمبراطورية النمسا الأمر الذي بدا جلياً في تصرف الباب العالي إزاء السفير فنيش[1].

(1) – A. Barbier de Maynard: une ambassade marocaine constantionopole 1197 – 1782.

نعم لقد نجح السفير ابن عثمان بمساعدة حاكم الجزيرة في التعجيل بإعداد المراكب قصد توجيهها إلى مدينة ابن غازي ومدينة طرابلس وصفاقس وتونس. لقد اقتدى لحد الآن ثلاثة عشر وستمائة... وفي أثناء اللحظات الأخيرة من مرحلة التفاوض لاحظ ابن عثمان أن هناك علامات تراجع - كما أشرنا - فيما وقع الاتفاق عليه مع الوكلاء على البيع الذين اختلفوا مع رؤساء المراكب، وهنا وجدنا الدبلوماسي المغربي يهدد بعرض القضية أمام الرأي العام الدولي... إذ لا يصح إطلاقاً فسخ ما انعقد عليه الاتفاق.!!

وبعد أن ذكر ابن عثمان أنه افتدى ثلاثة عشر وستمائة أسير... أحصى من بقي في الأسر انتظاراً لنجاح المحاولات المبذولة، فكانوا سبعمائة وتسعاً وعشرين، وهم الذين بعث السفير رسالة في شأنهم إلى العاهل المغربي بعد أن تعلقوا به متوسطين راجين...

وإذا كان ابن عثمان اعتقد أن مهمته كللت بالنجاح نهائياً وأنه سيسافر إلى نابولي مرتاح البال قرير العين فإن الأيام ستكشف أن الذين كانوا اتفقوا معه على أمر الفداء فيما تبقى، نفذوا تهديدهم بالتراجع ونكلوا عن الالتزام..! وإن المبعوث السابق السيد بن عبد الهادي الحافي ما انفك مقيماً بالجزيرة لتصفية هذه المسألة على ما تنبئ عنه الرسائل المتبادلة بين الأطراف المعنية.

فمن خلال السجلات الطويلة العريضة المخطوطة التي وقفت عليها في الأرشيف بالخزانة الوطنية في مالطة وجدت أصداء عن السفارة التي بعث بها العاهل المغربي الملك محمد الثالث إلى حاكم البلاد إيمانييل دوروهان، وهذه السجلات على طولها واستيعابها محررة أحياناً بالفرنسية وأحياناً بالإيطالية أو الإسبانية والبرتغالية والألمانية حسب إرادة الحاكم على ما يبدو،

لكنها لم يجر فيها ذكر للسفير ابن عثمان الذي كنت أتوقع أن يكون له هناك حيـز واسع إلى جانب زميلـه ابن الحافي... ويبـدو أن للقلاقل التي واكبت وجود البعثة المغربية أثراً على ذلك السكوت في تلك السجلات الرسمية.

وقـد كنت موزع الحركـة من جهة بين (مسيـدة) حيث بنايـة الجامعة التي اشتغلت فيها مع عدد كبير من زملائي الأساتذة، ومن جهة ثانية بين (الكزيرة) التـي كنت أسكنهـا والتي توجد فيها العاصمة (فاليتـا) المحتوية على المؤسسة الأكاديمية، والخزانة الوطنية والمتحف والكاتيدرال علاوة على وزارة الخارجية.

وإذا جـاز لنا أن نقـوم بتقديم موجـز لبداية اتصالنا بمالطـة قبل صدور تصريـح مكناس عام 1191 – 1777 سالف الذكر، فهو التأكيد على أنه في أعقـاب استرجاع العامل المغربي الملـك محمد الثالث لمدينة الجديدة من يد البرتغـال عام 1182 – 1769 وجـد أن من بين الأسرى ثمانية وثلاثين، ولما كان حاكم مالطة على ذلك العهد مانويل بينو دوفونسيكا Manoel Pinto de Fonseca مـن أصل برتغالي، فقد رأى ملـك المغرب أن يهديه هو هذا العدد من الأسرى الذين كانوا من رعايا طوسكان...

وجوابـاً على هذه المبادرة قام حاكم مالطة بإهداء المغرب نفس العدد من الأسرى المغاربـة[1] قبل أن يجيب عن الهدية كرانديك طوسكان بجواب مماثل، ولمـا تأكدت للملك محمد الثالث الأخبار عـن وجود عدد كبير من الأسرى المسلمين في مالطة قرر مفاتحة رجال الحكم هناك حول افتدائهم.

وهكـذا ففـي أول رمضان 1195 – 21 غشـت 1781 وجدنا رسالة من

(1) – J. Caille Les accords Internationaux de Sidi Mohamed.. 1960، P.27
Godfrey Wettinger: Th Abolition of Slavery in Malta. The University of Land on 1971.

العاهل المغربي المذكور إلى حاكم مالطة تخبر بإيفاد محمد بن عبد الهادي الحافي إلى مالطة في المهمة المزدوجة التي أشرنا إليها في بداية هذه الدراسة: قضية السفينة المحتجزة وقضية تفقد الأسرى المسلمين...

ولم نلبث أن وجدنا رسالة من السفير ابن عثمان إلى الوزير الأول في الحكومة الإسبانية الكونت فلوريدا بلانكا بتاريخ 12 رجب 1196 – 23 يونيه 1782 يخبره فيها بالمهمة التي أناطها به الملك محمد الثالث في مالطة أولاً ثم نابولي ثانياً...

ونتوفر مع هذا على رسالة من الملك محمد الثالث إلى كارلوس الثالث بتاريخ 20 شوال 1196 – 28 شتنبر 1782 وهذه صورتها:

وتتلخص في أن العاهل المغربي يخبر نظيره الإسباني بأنه بلغة كتابه على يد (الفرايليه)[1] وهو يخبره بأن كاتبه ابن عثمان الذي وجهه لمالطة لفداء الأسرى المسلمين تمكن من شراء ما تيسر له ووجه كل واحد إلى بلاده... وإنه حين أراد السفر إلى نابولي توسل به الأسرى الباقون ففاتح رجال[2] حاكم مالطة حول الموضوع ووقع الاتفاق على أداء مبلغ 1/2 – 358 – 271، وقد كتب لنا بذلك.. فنحبك تبعث مائتي ألف ريال لكراند ميتر من المال الذي لنا بقالص، وأعلمنا حتى نبعث صاحبنا إلى مالطة بالباقي من المال المطلوب.

(1) – القصد على رجال الدين والمسيحيين الذين كثيراً ما نراهم يقومون بمهمة الاتصال بين الأمم على ذلك العهد.

(2) – انظر كتاب الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا... مصدر سالف الذكر.

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله

من محمد بن عبد الله [illegible]



الى [illegible] السلام على
من اتبع الهدى اما بعد بلغنا كتابك الوارد [illegible] على
يد [illegible] وقرأناه وعرفنا ما فيه واعلم أن
كاتبنا السيد محمد بن عثمان [illegible] لبلادكم على
فداء أسارى المسلمين الذين [illegible] من الأسارى [illegible]
ما سهل الله [illegible] كل واحد من الأسارى [illegible]
[illegible] جميع الأسارى [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] والسلام [illegible]

1196

وهناك رسالة أخرى في نفس السياق وجهت إلى إسبانيا بعد عشرة أيام

من الرسالة السابقة لتأكيد الخبر والطلب..

وبعد تبادل بعض الرسائل التي تسير في نفس الاتجاه... نقف على رسالة هامة من العاهل المغربي المذكور إلى العاهل الإسباني كذلك وهي بتاريخ فاتح جمادى الأولى 1197 - 4 أبريل 1783 وتتضمن أن ابن عثمان كان كتب للملك محمد الثالث مخبراً بأنه حصل من (المالطية) على خطوط أيديهم - كما تقف عليه عندما نوجهه لك - يقول العاهل المغربي، كما حصل على أسماء الأسرى وعددهم، ثم إنك أخبرتنا بأنك لما وجهت لهم المال نقضوا كلامهم ورجعوا عن بيعهم... إن ذلك لا يحل في ديننا ولا في دينهم... لقد ظهرت لهم وسوسة من بعض الشياطين. وهنا يقول ملك المغرب لملك إسبانيا الذي كان قد فوض له بتسليم نصيب من المال إلى مالطة: والآن إن يقفوا على بيعهم الأول فيأخذون المال ويعطون الأسرى وإلا فأبق المال تحت يدك...

لقد كان المخبر للملك بذلك التراجع هو ابن عبد الهادي الحافي الذي بقي بمالطة يتتبع عملية الفداء.

وهكذا نجد رسالة من السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى كارلوس الثالث تحمل تاريخ 29 شعبان 1197 - 30 يوليه 1783 يقول فيها: إن كاتبنا السيد محمد بن عبد الهادي الحافي الذي بمالطة ذكر أن المالطية رجعوا عن بيعهم الذي اتفقوا حوله مع ابن عثمان، وقد رجعنا نحن كذلك عن البيع وفسخناه، فأبق ما عندك من المال أو استرجع ما دفعته لهم إلى أن نكتب لك...

وقد وجدنا رسالة أخرى من الملك محمد الثالث إلى كارلوس الثالث

تحمل تاريخ 10 رمضان 1197 - 9 غشت 1783 تصحبها ورقة بنفس التاريخ، كأنها ورقة إرسال ترافق الرسالة يقول فيها العاهل المغربي: الكاغيط الذي يصلك داخل كتابنا والمرسوم بخطنا عليه يكون العمل..

والمهم أن الملك محمد الثالث يؤكد أن الكاتب الحافي كتب مخبراً برجوع الجماعة عن البيع الذي تعاقدوا عليه مع ابن عثمان في شأن الأسرى... وحتى أنهم لو بقوا على بيعهم فإنهم لن يبيعوا جميع أسراهم، ولابد أن تبقى عندهم بقية حوالي المائتين أو ثلاثة تخدم (كراندميتر) في المراكب البحرية وغيرها، وكذلك نحن رجعنا عن ذلك البيع وفسخناه، والمال الذي عندك احتفظ به حتى يصلك خالنا علال الأودي وقدور الأودي، فابعث معهما المال للسلطان عبد الحميد ليوجهه هدية لأبناء عمنا في الحرم الشريف[1]...

وبعد فشل الملك كارلوس الثالث في إنقاذ المفاوضات، قرر ابن الحافي أن يغادر مالطة، وفي صقلية التقى بخالي الملك: قدور وعلال اللذين كانا في طريقهما إلى القسطنطينية لتسليم المال للسلطان عبد الحميد[2] حيث رافق الحافي الخالين المذكورين مع حاشيتهما المكونة من بضعة أشخاص. رافقهما صيف 1784 إلى تركيا حسب تعليمات العاهل المغربي الذي وصلته فيما بعد أخبار لقاء الجماعة على مقربة من صقلية بمن فيهم

(1) - مصدر سابق A. BARBIER De Meynard: une Ambassade Merocaine a Constantinat.

(2) - ارياس بالاو: محمد بن عبد الهادي الحافي ومهماته في مالطة 1781 - 1788 مجلة (القنطرة) الإسبانية مدريد 1984 ص 203، تعريب د. أمينة اللوه.

الـدراوي والبرنوسي اللذان وجدنا اسمهما في الرسالة التي وجهها الملك محمـد الثالث إلى الملك كارلوس الثالث بتاريخ 30 ربيع الأول 1198 - 22 فبرايـر 1784 عندما يخاطب ملك المغرب نظيره الإسباني: توجهون المال الـذي كان لنا عندكم مع خدامنـا الدراوي والبرنوسـي إلى عبد الحميد، وقد كتبنا إليه ليوزعـه على الشرفاء بمكة والمدينة... أما الأسرى بمالطة فإن نحـن عزمنا على فدائهم فسنوجه مالاً آخر يفدون به ويوجهون من هناك إلى بلدانهـم ويملـك مع هذا كتـاب آخر موجه إلى ولـدك فيرناندو عظيم الصقليتين جواباً على خطابه الذي وجهه إلينا مع سفيرنا ابن عثمان.

وفي هـذه الأثناء نجد جواباً مـن العاهل المغربي علـى رسالة من العاهل الإسباني، وقد كان الجواب مؤرخاً في يوم 26 جمادى الثانية 1198 الموافق 12 أبريل 1984 حول ما وصلته من كتاب ملك إسبانيا ومعه كتاب المالطية حول ما راج لحد الآن من حديث عن الأسرى الذين تم افتداؤهم وعددهم 728 أسـير... والأسـرى الذيـن هم في الانتظـار... وهنا تعالـج الرسالة التحقـق في الأمـر بين ما اعتذر به المالطية وبين مـا عرضه المغاربة نحن لا غرض لنا إلا في فك الأسارى فهو غاية قصدنا... ويتحدث هذا الخطاب عـن أن السلطان العثماني هو بمنزلة الأخ عنـد ملك المغرب، كل ما يسأله يقضي[1]...

ولقـد عاد أعضاء السفـارة بكاملهم إلى المغرب بعـد أن أنهت السفارة

(1) - عزيز سامح التير ELTIR: كتاب الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا ترجمة د. محمود علي عامر - بيروت 1989م.
.RAMON LOURIDO DIAZ: MARRUECOS... MADRID 1989، P 17

مهمتها يوم 25 أبريل 1785 – 10 جمادى الثانية 1199 في نفس المركب الذي حمل السفير المغربي عبد الكريم العوني والسفير التركي إسماعيل أفندي[1].

وقد عاد الملك محمد الثالث لتفقد ملف العلاقات المغربية المالطية من خلال الاهتمام بالأسرى المسلمين المتبقين بالجزيرة وهنا نجده يقرر في فاتح رجب 1202 – 1788 إرسال ابن عبد الهادي الحافي إلى مالطة حيث نجد منشوراً إلى كافة القناصل الموجودين بطنجة يطلب العاهل المغربي إليهم أن يخصصوا مركباً لكاتبه ابن عبد الهادي ومن سبق منكم إلى توفير هذا المركب يكون ذلك دليلاً منه على أنه يحبنا أكثر!

وفي نفس التاريخ كتب الملك محمد الثالث إلى القنصل الفرنسي دوروشي (Durocher) لكي يصرف المبالغ المتوفرة لديه من حقوق المغرب: (3025 ضلون) على افتداء الأسرى الموجودين في مالطة وجنوة ورومة[2].

لقد أبحر ابن الحافي من تطوان على متن باخرة متوجهة إلى تونس والإسكندرية لتنزله في مالطة، إن الفترة كانت تصادف موسم حج...

وقد جرت مفاوضات من جديد في شأن الافتداء وشروطه ومبالغه... إن حاكم مالطة الذي كان دائماً هو السيد إيمانييل دو روهان بولديك E. Derohan Polduc والذي اقترح أن يفتدي الستمائة أسير بخمسين وأربعمائة مثقال لكل واحد، عوض أن يتم الافتداء بالسبائك الذهبية،

(1) – د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج 9. 34 – 35.

(2) – د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج 1 ص 294 – 295 – ج9، 317 – 318 – 320.

وقد قبل العاهل المغربي الاقتراح وأمر بأن يؤدي مجموع المبلغ وهو مائتان وسبعون ألف مثقال من المال المودع من قبل الملك محمد الثالث في ديوانة قادس والمحصل من حقوق تسويق القمح المغربي الذي كان ينطلق من الدار البيضاء إلى إسبانيا...

وبهذا انتهت مهمة ابن الحافي الذي عاد إلى المغرب بمقتضى التعليمات التي صدرت له أخيراً بتاريخ 14 جمادى الأولى 1203 - 10 فبراير 1789 وهكذا وصل السفير المغربي ابن الحافي إلى طنجة في 11 شوال 1203 - 5 يوليه 1789 على متن قطعة من الأسطول المالطي ومعه عدد من الأسرى الذين تناولتهم عمليات الفداء... تسع سنوات فقط قبل أن تصبح مالطة تابعة للتاج البريطاني عام 1789.

مالطة في رحلة السفير ابن عثمان

وسافرنا والله الواقي إلا أن الريح كان غير مناسب للغاية، والرئيس خرج به معللاً نفسه بأنه ربما يستقيم إذا خرجنا، فمشينا به إلى أن وصلنا مجمع البحرين[1]...

فاعترضنا ريح شرقي منعنا من عبور المجاز... فبقينا نسايره يميناً وشمالاً ونحن في ضمن ذلك نترجى أن يهب ريح غربي، فلما جن الليل عظم البحر وأمواجه، وكثر اضطراب المركب وارتجاجه، واشتد هبوب الريح وانزعاجه، فلا تسمع له إلا في الحبال تصفيراً، وللأمواج تغيظاً وزفيراً،

(1) -- يعني مضيق جبل طارق.

فشمـر الرئيس لمقارعته تشميراً، فـزاد ذلك قلوبنا فرقاً وقلقـاً وتكديراً، وقلنـا له: لسنا من أهل هذا الميدان، فـدع ذا واطلب ما قرب من المراسي والبلـدان، فـإن الصبر قد عيل، وهـذا أمد طويل، ولنفوسنـا تألم وعويل، حتـى يأتي الله تعـالى من الرياح بما يوافـق، فعج بنـا إلى المرسى والله خير مرافـق، فشمـير للمسير إليها الذيل ثـم قال: إنه لا يمكننـي الدخول إليها بالليـل، فقلت له: ليس لنا على تحمل هذه المشـاق طاقة، فإنه ليس لنا من الميد تحرك ولا إفاقـة، فما الحيلة في هذه الليلة الطويلة، وما لنا حيلة سوى حيلـة الموثق إما توسل أو دعاء، فبتنا بليلة ليلاً، والمركب من شدة الأهوال تـارة يضطرب، وتارة يميل ميلاً، حتى استنـار الصبح، ورجعنا إلى مرسى قادس فحصلناها وكمل بفضل الله النجاح، فأرسينا بها عن عجل، وذهب بمنـة الله الخوف والوجل. وقد كان سافر مـن تلك المرسى يوم سفرنا منها مراكـب عديدة يسمونهـا (الكنب)[1] تمر مجتمعـة إلى الهند. فنزل بهم ما نزل بنا من الأهوال، فغرق منهم من غرق، ومن نجا منهم بعد مشقة فرق، ووجدنا بعضهم بالمرسى، فحمدنا الله على السلامة وتضرعنا إليه تعالى أن يحسـن سفرنا، وأن يتممه بخير ختامـه وعلمنا أن نجاتنا من هذه الأهوال عنوان على الخير وعلامة.

فأقمنـا بهذه المرسى ثلاثة أيام، ثم تحرك ريح غربي فاعتمدنا على الله تعالى وسافرنا به حتـى وصلنا أيضاً مجمع البحرين، فتحـرك الريح الشرقي ومنعنا من العبور، فبقينا نـتردد فلم يساعدنا في الوقت المقدور، واستثقلنا الرجوع

(1) - القصد إلى القافلة (convoy).

إلى المرسى مرة ثانية، فتسترنا بجبل (الشقار)[1] من بر العدوة، فيسر الله علينا وعبرنا المجاز مع ذلك الريح باستعمال (البرد) وهو المسير يميناً وشمالاً، ثم أتانا الله بريح غربي سافرنا به سفراً مستقيماً والمنة لله، إلى أن وصلنا موضعاً من هذا البحر يقال له (غلف أليون)[2] سلبت العقول فيه والقرار والسكون، مبدؤه من جزيرة يابسة إلى جزيرة سردانية مسيرة نحو ثلاثة مائة ميل لمن يترك الجزر شمالاً ومسافة أقل من ذلك فيما بين الجزر وبر النصارى إذا ترك المسافر الجزر عن يمينه. إلا أنه خصم ألد، وفي أهواله أشد، لضيق ذلك المجرى فيضطرب الماء فيه أكثر من الجهة الأخرى. ولما توسطنا هذا البحر ركد الريح علينا، وأقبلت الأمواج من كل جانب إلينا، بخلاف غيره من البحار، فإنما يتحرك مع الريح على مقدار، فجعلت الأمواج تبتعد وتقترب، وتربوا فتضطرب، فكم من مرة تحمل المركب لترمي به على عاتقها، فكفينا شرها بفضل منجي النفوس عند الشدائد ومعتقها، وطوراً يفتح بين أمواجها أخدود، ونحن في ذلك المركب كدود على عود...! وطوراً تكون أسافله أعاليه، وآونة أعاليه أسافله، لا نستطيع معه أكلاً ولا شرباً ولا صلاة فرض ولا نافلة، قد منعنا مع ذلك حتى من القوت! فما بالك بإخراج الصلاة عن الوقوت، بل خشينا أن نكون لغيرنا القوت، والأمواج مقبلة إليها كأنها خيل الحلبة سراعاً، بل شابت دوائبها كأنها مراكب نصبت للمسير شراعاً، أو الجبال من فوقها: سحاب، والحيا عممت به هضاب، ترينا صائلة عددها،

(1) – الشقار: حول منار رأس الشقار بطنجة والاتفاقية المتعددة الأطراف، بتاريخ 1252 – 865، انظر بحثاً للدكتور التازي، مجلة أكاديمية المملكة المغربية العدد 19 / سنة 2002.

(2) – EL Golfo de Lion.

وتقـذف علينا من الغيظ زبدها، وليس إلا السماء والماء وذلك السفين، ومن في قبر جوفه دفين والقلب في تلك الشدائد حائر، مع هذا البحر الكافر. فإن قيـل: إن البحر هو جهنم فلا غـرو، فتلك أمارتها وغليانها كما تبين وتقدم، لأن هذه حالته على الدوام والاستمرار، على مر الدهور والإعصار، بخلاف غيره من البحار، وليس لدائه دواء إلا أن يمن الله بطيب الهواء، فيقطعه المسافر علـى صعوبته وخبثه، ويحمد الله علـى عدم مكثه فيه بعدم الريح ولبثه، فإن مـن مكث فيه بعدم الريح، فالعطب أقر منـه على الصحيح، فكم من نفوس وأمـوال أباد، وطالها آفات إن سمح لأحـد بالسلامة مرة أفاد، فرجعت إلى الله تعـالى بحكم الاضطـرار أفكارنا، وخضعت من خفيـة عقابه أبصارنا، وأسلمتنـا أعواننـا وأنصارنا، ولم يبق إلا بالله انتصارنـا، والقلوب من الفزع والفرق قد تقسم على فرق، ولله رد القائل.

الـبـحـر صـعـب المـــراد جـدا
لا جـعـلـت حـاجـتـي إلـيـه!
ألـيـس مـــاء ونـحـــن طين
فـمـا عـسى صـبرنـا عليه؟!

وقـال الحافظ أبو الوليـد هشام الوقشي على ركـوب البحر إلى الحجاز فهاله ذلك فقال:

لا أركـب البحر ولـو أنني
ضربـت فيه العصا فانفلق
مـا أن رأت عيني أمـواجـه
في فـرق إلا تناها الـفـرق!

وبقينا على هذه الحالة يوماً والليلة بعده، نعاني ونقاسي مشاق وشدة، حتى رحمنا أرحم الرحماء، الذي بيده الأمر في الأرض والسماء، فرزقنا ريحاً موافقاً، وصرف عنا بفضله ما كان عائقاً وسافرنا... والحمد لله فتجاوزنا سردانية، وأشرفنا على جزيرة صقلية فاعترضنا الشرقي مرة ثانية، وعصف علينا حتى خشينا أن يردنا إلى سردانية، وقطعنا منه مهامه ومفاوز، وكاد أن يغلب اليأس الرجاء، ويستولي على أرواحنا القنط لولا رحمة الله التي لا يقنط منها ذو عقل وحجا، وبقينا مفكرين هائمين، وخرس اللسان حتى عن الدعاء والتأمين وما بقي كل منا يفكر إلا فيما يأتي من فرج الله ويرعاه، أم من يجيب المضطر إذا دعاه، وبعد صلاة العصر من ذلك اليوم تداركنا الحنان المنان، فأرسل علينا ريحاً، فأبدلنا من بعد الخوف والحزن الانشراح والأمان، فظللنا بقية يومنا والليلة بعده مسافرين، وعند طلوع الفجر قدم علينا الرئيس وطائفته برؤية مالطا مبشرين، فرفعنا أصواتنا بحمد الله حامدين شاكرين، وتمادينا على سيرنا، حتى إذا كان قرب الزوال، وصلنا مالطة، وهي ثلاثة جزر، الأولى تسمى بلغة الطليان (كز)(1) وبلغة مالطة (غودش)، وهي معمورة فيها نحو خمس عشر مدينة(2)، دائرتها عشرون ميلاً، وأرضها طيبة التربة، وبعدها جزيرة صغيرة يقال لها كمونة(3)، ليس بها عمارة إلا أماكن من

(1) - Gozo - أودس.

(2) - لقد عدها مؤلف مجهول لرحلة إلى مالطة كتبت بالفرنسية عام 1791 أشرنا إليها في الدراسة السابقة وجدناها بالمكتبة الوطنية بباريز تحت رقم IN. 80 B.F. 63 عددها 22 مدينة ذكرها بالاسم واحدة واحدة.

(3) - Camino.

برج للحراسة، وبعدها الجزيرة المسماة بمالطة، فلما أشرفنا على المرسى خرجت إلينا فلوكة تتلقانا في البحر فتكلم كبيرها في الآلة المسماة بالبوق يستفهم رئيس مركبنا من أين أقبل، ومن عنده في المركب، حيث رأى علم المسلمين في أعلى صار من المركب، وتلك عندهم علامة على حمل كبير، فأجابه بأنه من الجنس الفلاني حاملاً بشطور أمير المؤمنين، أيده الله، فتمادينا على المسير ودخلنا المرسى، وأرسينا بها، وكانت مدة سفرنا في البحر اثنين وعشرين يوماً من يوم خروجنا من قادص أول مرة[1]، ثم أتت فلوكة أخرى من المدينة وفيها أحد الأكابر حتى دنوا من مركبنا وأعادوا السؤال، فأجيبوا بمثل الجواب الأول، فرجعوا إلى عظيمهم وأخبروه فرجع مرة أخرى يستفهمنا عن قدومنا، وما سبب إلمامنا، فأجبناهم بأن سيدنا ومولانا أمير المؤمنين وجهني إليكم بقصد فداء أسارى المسلمين الذين في بلادكم، فإذا فرغت من هذا العمل، والله يبلغنا من فضله كل أمل، نتوجه إلى نابل بقصد الملاقاة مع عظيمها في بعض الأوامر المولوية. فرجع فأخبره بذلك، ثم رجع فقال، إنكم تجعلون (الكرنطينة)[2] فقلت: ومن أي وجه تتوجب علينا، ونحن قدمنا من بلادنا الاصبنيول، وبلادنا ليس بها بأس مما تتحرزون منه، ولو كان بها شيء من ذلك لمنعونا من الدخول إلى بلادهم، من قبلكم! فقالوا: لابد من ذلك، وهذا الأمر يلزم كل من

---

(1) – كان ذلك الخروج يوم خامس ربيع الثاني 1196 – 20 مارس 1782.
د. التازي: قادس من خلال رحلة ابن عثمان سفير الملك محمد الثالث إلى مالطة ونابولي، بحث قدم لجامعة قادس تكريماً للزميل الراحل الدكتور براوليو جوستيل Braulio Justel 1995.

(2) – La carantaine.

يــرد علينا، لأنكم لا بــد أن تتلاقوا مع بعض مراكــب الاصبنيول الحربية، وهــم ربما يكونون تلاقوا مع مركب ورد من بلاد مشكوك فيه، فمن أجل ذلــك يتعين عليكم ما ذكــر، والآن تمكثون في (الكرطينــة) عشرين يوماً، وهاهنــا الــدار المعدة لها، فإن شئت أن تنزل إليهــا نبعث من يهيئها وتنزل فيها حتى تكمل (الكرنطينة)، فقلت لهم: لا أنزل فيها، وأيام (الكرنطينة) التي ذكرتم، أمكث فيها في المركب حتى تنقضي، فأتوا بنصراني أطلعوه إلى مركبنــا، وقالوا: إن هذا النصراني يتقضى لكم أغراضكم، لأنه على بصيرة في البلــد دونكم. المعنى: يرينا من يتقضى لنا، وإلا فإنه لما لابسنا دخل في حكمنــا، فلا يخرج إلا إذا خرجنا، هذا حكمه في الظاهر وأما في الباطن هو عين وجاسوس يتجسس على أهل الكرنطينة ليلاً يكون عندهم مريض ويسترون أمــره! ومعنى (الكرنطينة) عندهم هو أن يقيم الوارد عليهم من بلد محقق فيه الوباء أربعين يوماً، ومن ورد من بلد مشكوك فيه عشرين يوماً أو نحــن ذلك، فيمكث في الموضع المعين لذلك أو في مركبه لا يتلاقى مع أحد ولا يتماسا إلا ما كان من الكلام على بعد، فإن تلاقى معه أحد وتماسا فإنــه يدخل معه (الكرنطينة) ويعمه ما يعمــه إلى أن يخرج منها، وإذا أراد أن يقضــي ما يحتاج إليه مــن المدينة فلينزل إلى موضع معين لذلك محيط به خشب مغروس في الأرض ومن ورائه أناس معينــون لقضاء أغراض من يكــون في (الكرنطنية) بأجرتهم وينادى على أحدهــم وينزل له الدراهم على خشب من الخشبة، ويقول له اقض لي كذا، فيشتري له ما يريد ويأتيه بــه وينزل له ويحمله الآخــر، ولا يمس أحدهما الآخــر، وإن أتى بكتاب فإنهــم يقبضونــه منهم بقضبة أو نحوها ويغمســ في الخل ويبخر ببخور،

وبعد ذلـك يفتحونه ويقرؤونه، فإذا كمل حسـاب (الكرنطينة) ينظر في أهلها، فإن كانوا صحاحاً وليس فيهم مريض، فإنهم ينزلونهم ويدخلونهم المدينـة بعد أن يبخروهـم في وسط أيام (الكرنطينـة)، وفي آخرها ببخور خبيـث، قيل: إن فيه خروء الكلاب والقطوط والكبريت وغير ذلك، وإذا كان فيهم مريض أو مات أحدهم، فإنهم يستأنفـون العمل ولا يدخلون المدينة إلا إذا كملوا العدد المذكور وهم سالمون.

ولمـا قدمنا على هـذه المدينة كثير فيها الكلام عنـد النصارى، وذلك أن مولانـا أيده الله بعث إلى مالطة من قبلنـا بنحو سنة[1] أحد الطلبة المنتسبين للكتابـة، يقال له محمد الحـافي وثيقة في بعض النصارى مـن مالطة كانوا يحضـره سيدنا أيده الله في بعض الدعـاوى، وأمره سيدنا نصره الله أن يزم أسـارى المسلمين الذين هناك، ولما قدمنا نحن[2] كـثر من النصارى القيل والقـال، لأن من جملة قوانينهم إذا بعثـوا البشطور إلى ملك من ملوكهم يعينـون لـه المدة التـي يقيمها سنتـين أو ثلاثة أو أكثر بحسـب ما يظهر له ويكـون واسطة بـين ملكه والملك الذي هو عنده في جميـع الأشياء، فإذا أراد طاغيتـه أن يخلفـه يبعـث ببشطور آخر فيتقدم عليـه، ويتولى الكلمة الثاني ويتوجه الأول، وهؤلاء القوم لما قدم عليهم الحافي المذكور قبلنا وزم الأسـارى ثم وردنا نحـن في النازلة بعينها وقع التخليـط عليهم بحساب

(1) – بالفعل فحسب رسالة من الملك سيدي محمد بن عبد الله إلى كراند ميتر لمالطة بتاريخ 1 رمضان 1195 – 21 غش 1781 عهـد إلى السيد محمـد بن عبد الهادي الحافي بمهمة هناك بمالطة، وقد ترجم لهذا الحـافي المستعرب الإسبانيماريانو أربياس بالاو ترجمة حافلة في مجلة (القنطرة) الإسبانية، مجلد 5 مدريد 1984م.

(2) – من المعروف أن ابن عثمان كان يصحبه عدد من المساعدين.

اختلاف القوانين التي يعهدونها[1]، وبقوا مفكرين يتخافتون، لا يدرون ما يأتون.

ولما كملنا سبعة عشر يوماً من (الكرنطينة) بعث إلينا الطاغية وقال: إننا أسقطنا عنك ثلاثة أيام الباقية في (الكرنطينة) وإنكم الآن قد خرجتم منها، فقلت لهم: أريد النزول إلى المدينة لقضاء هذا الغرض الذي قدمنا على شأنه، فبعث إلينا يستفهمنا عن مدة مقامنا، فقلت له: أمرنا سيدنا نصره الله أن نفتدي أسارى المسلمين ونتركهم عندي حتى ترد علينا من مراكبه الجهادية خمسة مراكب، أوجه في أربعة منها الأسارى، والمركب الكبير أتوجه فيه إلى نابلطان، فلما رأى أن لا غاية للمقام وأن الإنفاق علينا في الازدراد والالتقام هو عليه من أشد العذاب والانتقام، وقد وجدناه قد ضاق بالحافي ذرعاً، حتى صار لا يقدر أن يتشخصه نظراً ولا سمعاً، وصار عندهم جهراً ونجوى، أثقل من رضوى، لأنه لما قدم عليهم ظنوا أن يكون مقامه خفيفاً، وأن لا يحرجهم بالتثقيل عليهم فيسومهم تكليفاً، واغتروا بسمته، فأجروا عليه الإنفاق لوقته، لينفوا عنهم المعرة بعدم قرى الضيف، وما دروا بأنه يمكث عندهم ما بقي في هذا القرن من فصول الشتاء والصيف[2] فاسترجع وحوقل، وضاق ذرعاً فخب وأرمل، ثم جمع أصحابه، واستنزل الراء فيما أصابه وقال إن هذه لبلية، فمن عنده منكم في هذا الأمر جلية؟ أألزم في قضية مغرمين، ومن أين ومن أين؟ فأطرق برأسه،

(1) – يعني: (لا يجمع بين سفيرين لدولة واحدة في مكان واحد!)

(2) – يلاحظ تحامل ابن عثمان على زميله السابق!!

وفكر فيما يأتي في نفسه، ثم رفع رأسه وقال: الذي رأيت عليه المعول:

رأى الأمـــر يفضي إلى آخر
فـــصــــير آخـــــــره أولا
ليس لنا لــطــارق إذا عرى
سوى الحديث والمناخ في الدرى

فبعــث إلينا رسوله وقال: أما الدار لنزولكم بمائها فعليه، وأما القرى فلا تتشوف إليه! فقلت لــه يا للعجب، كيف سموتم لهذه الرتب، حتى صرتم تتحرزون منها وتتنكبون عنها، أف لمن لا يقدر مقداره، ويتعدى أطواره، فهــل أنتهم إلا حلفــاء أفلاس، عالة على سائــر الأجناس. تطوفون في كل بلــد، وتشحدون الوالــد والولد، اتخذتم طريقة الشيــخ ساسان[1] حرفة، واقتفيتم شرطه ووصفه، أفي مثلكم يطمع ومتى كان لكم في المكارم ناد أو مربع، يا للعجيبة والغريبة الغريبة، فالسلامة منكم غنيمة، وتجارة رائجة ما لها قيمة، أتظنونني قدمت عليكم كالغير هملاً، حتى اتخذتموه كلا، كلا، فإننا بالله حيــث لا تدركون، فتحققوا هذا، ولا تشكون، وما علمتم بأننا قدمنــا من عند سيدنا ومولانــا أمير المؤمنين، آية الله في العالمين، الذي طبق جــودة الآفاق وحاز السماحة والندى بالاستحقاق، وأربى على من تقدم مــن الملوك والأمــراء على العموم والإطلاق، إن ذكــرت منه المكارم، فما الطائي حاتم؟ أو ذكر الإقدام، فما الأسد الضرغام؟ لقد ظلت عقولكم فيما تفهمــون، وساء ما تتوهمون! فــإن الله تعالى أغنانا بسيدنا ومولانا الإمام،

(1) – حملة على الطريقة التي تقضي بالسكن دون القرى أو العكس!!

علـى جميع الأنـام، وإنما المقصـود منكم أن تقفوا معنـا في هذا الغرض، الذي هو واجب علينا ومفترض، ونسال الواحد الأحد، الفرد الصمد، أن يقضـي أغراض مولانا أمي المؤمنـين ولا يطيل علينا في بلدكم الأمد. فلما سمع مني الرسول ما سمع وخسئ وقمع، رجع إلى الطاغية فوجده خائفاً من لزوم الضيافة يترقب، ويستنشق الأخبار ويتطلب، فقال له: هل قدمت للتلافي أم لما فيه إتلافي؟ وهل القوم مثل الحافي؟ فقال له: وقيت الأعادي، فليس القوم من ذلك الوادي، فاستبشر وبشـر، وشاع سروره وانتشر، في الحواضـر والبوادي، ثم تهيأ لنزولنا، وبعث الفلايك لحمل أثاثنا، وما معنا من الأموال، وبعث الأعيان لينزلوا معنا من المركب، فقدموا علينا، وقربت الفلايك فركبناها وأخرجت مدافع كثيرة عند نزولنا من المركب وتوجهنا إلى المدينة، فلما وصلنا الشاطئ وجدنا أكداشاً متعددات لركوبنا وركوب مـن معنا، وخرج جميع أهل البلد للملاقاة، فركبنا الأكداش وتوجهوا بنا إلى الدار المعينة للنزول فتلاقينا في الطريق مع الطاغية راكباً في كدشة وإنما خرج بقصد الرؤية، لا بقصد الملاقاة، فلم يكن بيننا وبينه كلام سوى مجرد السلام بالإشارة، فلما وصلنا الدار وجدنا ببابها طائفة من العسكر بقصد التعظيـم، ودخلنا الدار فإذا هي جار كبيرة ضخـم بناؤها فيها نحو سبين قبة، وقد فرشوها ونصبوا في سائر قببها الكراسي على مقتضى عوائدهم، ثـم وردت أصحاب الغناء وأهل الموسيقى وترادفت طوائفها ليلاً ونهاراً، وقبـل نزولنا من المركب، كانت تظل فلايكهم تتردد علينا، وتكل عادتهم مـع البشطور الذي يرد عليهم، يتطلبـون بذلك ويطمعون فيه وكل من له لعب أو فرجة يستعملها بباب الدار لذلك القصد.

ولما أقمنا ثلاثة أيام بعث إلينا الطاغية وكيله وقال: إن الطاغية متأهب لملاقاتك عند العصر، أعلمنا بذلك لنكون على أهبة، ولما قرب الوقت المعين أتى إلينا الوكيل المذكور بكدش الطاغية فركبناه وتوجهنا إليه، فلما وصلنا داره صعدنا إلى فوقيها بمدارج من الحجارة في غاية الاتساع والسهولة كأن لم تكن مدارج أصلاً، علو كل واحدة نحو الأصبعين أو ثلاثة[1]، وسرنا في قبب ينفذ بعضها إلى بعض حتى وصلنا قبة كبيرة طولاً وعرضاً، فيها كراسي منصوبة، قيل: إن تلك القبة معدة لجعل الديوان في عقد الأمور وحلها، ولما جاوزناها دخلنا قبة بإزائها، وجدنا فيها الطاغية واقفاً[2]، وأزال الشمرير من رأسه، ولباسه السواد على هيئة الرهبان، وأبدى بشاشة وانشراحاً عند ملاقاته، وأشار إلينا إلى الجلوس على كرسي أعده لنا، فجلسنا وجلس هو على كرسي آخر، ثم أعاد السلام، فسألنا عن سفرنا وعما لاقينا من أهوال البحر، ثم أخرجت الكتاب السلطاني الإمامي أدام الله عزه فقبلته ودفعته إليه. ففتحه فوجده مكتوباً بالعربي، فأعطاه الترجمان لينقله من العربية إلى العجمية، وطلبنا منه الوقوف معنا في هذا الفداء الذي قدمنا على شأنه فقال: حباً وكرامة، وعين لذلك وكيله، وبقينا معه هنيئة، وانصرف بعد أن توجهنا عنه، وبقي واقفاً حتى خرجنا.

رجع إلى خبر محمد الحافي الذي تقدم ذكره[3] فنقول: على سبيل التعريف

(1) – يستعملون الحجارة هنا على نحو ما رتبت في الأهرام بمصر وقد صعدت هذه الدرج يوم 4/2/1992 فما شعرت أبداً بأي تعب، ومعلوم أنهم يقولون: الدرج كالمنشار تأكل من الإنسان صعوداً ونزولاً!!

(2) – القصد إلى المعلم الكبير دو روهان على ما أوضحناه في الدراسة، وانظر مقالاً جيداً للمستعرب الإسباني بالاو حول افتداء المسلمين مالطة في مجلة هيسبيرس تمودا 1969، ص 273.

(3) – يحاول ابن عثمان هنا أن يشرح الأسباب التي جعلته يتحامل على زميله ويلخصها في أنه لم يقم بالواجب الذي تفرضه

لا علـى سبيـل التعنيف: إن هذا الرجـل الحافي كان ممن جمعتـه وإيانا هذه الخدمة الشريفة، ذات المآثر السامية المنيفة، وقد كان بيننا وبين والده من قبله ملابسـة واتصـال، وكان ولده هذا يتظاهر إلينا بمثل ذلـك، ولما بعثه سيدنا، أيده الله إلى مالطة كما تقدم، ثم بدا له أن بعثنا وبعث معنا مال الفداء، وأقمنا بهـذه المرسى ثمانية عشر يوماً لم يخرج لملاقاتنا ولا صرف وجهه إلى جهاتنا ورفض الصـدق والصداقـة كأن لم تكن معرفة، ولا أدنـى علاقة! سوى أنه كتب إلينا يريد منا أن ننزل نحن إلى البر، ويأتي هو حينئذ للسلام علينا! قصد بذلـك أن يهتضم مـن جانبنا عند أولئك النصارى ويريهـم أنه يتحاشى عن القدوم علينا، يريد بذلك إخفاء ما أراد الله ظهوره، وأبى الله إلا أن يتم نوره، فلما تبينت حقيقة مكره، طويته على غرة، وتبين للناس ما أضمر في خاطره، وعلمت أن باطنه مخالف لظاهره، وتذكرت كلام الخنساء في مثل ذلك.

ترى الأمـور سواء وهي مقبلة
وفي تأملها تبيان ما التبسا!
ترى الجليس يقول القول تحسبه
نصحاً وهيهات ما نصحا به التبسا
فاسمع مقالته واحذر عداوته
والبس عليه بشك مثل ما لبسا

فتمخضـ أنه من أعدى عداتنـا، وشمر ساعده لإذايتنـا، وجعل يسعى في إنـزال مال الفدية إليـه، وأن يقصر أمره عليه، قائـاً: إنه هو الذي تقدم

الدبلوماسية من سعيه لاستقبال ابن عثمان الذي يتقدمه في المهنة!!

أولاً لهذا الغرض، وأما وردنا فإنه لآمر آخر عرض، وقد عزم على أن يدفع للنصارى مال إخوانهم المرهون فيه، ويحوز الباقي ويستوفيه، ولا أدري ما يفعل فيه، فلم أشعر ذات يوم إلا وقونصوا البلينسيان[1] قدم على رئيس مركبنا لأنه من جنسه، وأخبره بهذه الدواليب التي تدور بالبهتان والفجور، وجعلوا ينتصرون لأنفسهم في عدم إنزال المال من مركبهم على الوجه المذكور، فلما لم ينصت أحد لهذا الكلام ورأوه بمنزلة الهذيان في المنام، وأعيته الحيلة، بعد أن رأى كل مكيدة في حقنا قليلة، وعاين القوم قد عزموا على إنزالنا، وعينوا الدار وتأهبوا لذلك، أتى إلينا إلى المركب بعد سبعة عشر يوماً كأنه حي يبتسم، وقلبه من الحقد ينقسم، على أنني تحملت من أمره هذا ونحن في بلادنا ما الله به عليم، وتألمت له مما يجده في نفسه من هذا الوسواس الأليم، لكنني لم أجد بداً من امتثال أمر من طاعته غنم، والتحلي من حلي هذه الخدمة الشريفة بحلي ما لها سوم، والتخلي عنها شقاوة ولوم، على أنه لا يأبى الكرامة إلا لئيم، أو مفلس من العقل عديم، أو مارق من الخير ذميم، ولاسيما مثل هذه المكرمة التي عز في الوجود نظيرها. وسما فخاراً أميرها ومأمورها، التي لو بذل الإنسان في تحصيلها نفسه وماله، وأخلص في الاجتهاد أعماله، لأحجم من عظمها ورأى أمراها له، فكيف بمن يسرها الله له فجعله، من غير حول ولا قوة قمرها، والمكارم له هالة! ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، نحمده وله الحمد بصيغة

---

(1) - البلينسيان هكذا في المصادر المغربية والقصد إلى فينيسيا: أو البندقية، ومن المعلوم أن السفينة التي كان ابن عثمان يركبها كانت من فينيسيا.

الخبر والإنشاء، ففي مثل ذلك فليتنافس المتنافسون، ويبهت الحاسدون، لمن نال هذه المزايا وينقطعون ويخرصون[1].

وقد خطر ببالي أبيات ظاهرها ملام، وأعدها من لغو الكلام وهي هذه[2]:

خليل لنا قد كان يبدي بشاشة
وصدق وداد طيب الود صافيا
فلم يك إلا أن حللنا بداره
فاعرض عنا نائياً متجافيا
وبان الذي قد كان يبديه زخرفا
من القول مطوياً عليه وخافيا
جفاني ولم يخرج لوجهة مقدمي
ونكب عني معرضاً متحاميا
وقالوا: لماذا قد تأخر عنكم
فقلت: اعذروه، إنه كان حافيا!!
فهيئ له نعلاً ومقلوبها له
فلا يستطيع المشي إذ كان حافيا!!

مقلوب نعل: لعن، أشرت به لما أشار به الرئيس الوزير أبو عبد الله بن أبي

(1) – الإشارة إلى أهمية منصب السفارة التي يعرف الجميع أنها أعلى منصباً من كل وظيفة لا سيما للملك مثل محمد الثالث...

(2) – هذا شعر جديد لابن عثمان ونحن نعرف أن سجيته تفيض أحياناً فينشد الأشعار في شتى الموضوعات...

الخصـــال الأندلسي[1]، لما وقف بباب بعض القضاة واستأذن عليه فحجبه، فكتب إليه بديهاً:

جئناك للحاجة المطول صاحبها

وأنـــت تنعم والإخـــوان في بؤس

وقد وقفنا طويلاً عند بابكم

ثم انصرفنا على رأي ابن عبدوس

أشـــار به إلى ما قاله الوزير أبو عامر بن عبدوس المذكور في بعض القضاة في ذلك المعنى:

لــــنـــا قـــــاض لــــه خـلـق

أقـــــل ذمـــيـــمـــه الـــنــــزق

إذا جـــئـــنـــاه يحجبنا

فـــنـــلـــعـــنـــه ونــــفـــــترق[2]

علـى أن زيارة هـذا السيد الجليل لمثلي متعينة (أكيـدة) واجبة من أوجه عديـدة، منها أننـي جمعته وإياي هذه الخدمة الشريفـة، والتشبث بسيدنا ومولانـا الخليفـة، ومنهـا سبقتنا عليه وعلـى والده لهـذا المنصب العلي، وتقدمنـا عليهما بفضل الله مـن الأمر الجلي! تحدثنا بنعـم الله، إذ شكرها يؤذن بازديادها، وتتبع وسمهـا لعمادها، وأعظمها أنني قدمت في فكاك أسارى المسلمين وإنقاذهم من يد أعداء الله الكافرين، وأقربها على البديهة

(1) – ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، بيروت 1975 ج11 ص 786.

(2) – المقري: نفح الطيب، ج3، 268 – 269.

أنني بالنسبة إليه، لطول مكثه، ضيف فالإعراض عني من الحيف! فيا ليت شعري ما الذي عارض ما ذكرنا وإليه أومأنا وأشرنا، وقررنا وسطرنا حتى صد هذا الفاضل عن هذا السنن، وخلع في هجراننا الرسن، اللهم إلا أن يكون ليس على هذا عمل قومه! فلا سبيل حينئذ إلى عتابه ولومه! وإن تلمحت ما قال فيهم ابن الخطيب[1]، فلتسكن منك النفس وتطيب، ولله در القائل:

لا ترم من مماذق الود خيّراً

فبعيد من الشراب السَّراب

ورق كالحباب يعلو على الماء

ولكن تحت الحباب الحباب

عظمت في النفاق ألسنة القوم

وفي الألسن العِذاب العَذاب!!

فالصديق الصدوق في هذا الزمان قليل، فقد عز الصاحب والخليل، وقد رأيت أن الإعراض عن ذكره أولى لأنه ليس لأن يذكر أهلاً، وأن الاشتغال بحديثه لمن الخرافات، وأن تذكر ما فات، لمن أعظم الآفات، ولاسيما والحديث ذو شجون، فلا يسلم غالباً من المجون، والله ولي المغفرة فليس للمسيئين إلا ما من رحمه الله يرجون!

ولنرجع إلى ما كنا بسبيله، حذراً من الوقوع في سقيم القول وعليله، فنقول على سبيل الإمكان وما يتعلق بحفظي لأن المبيضة ضاعت منا

(1) – انظر ما كتبه ابن الخطيب في تأليفه (خلع الرسن في التعريف بأبي الحسن، يعني قاضي مالقة النباهي....)

جبرها الله علينا، وقد كانت مستوفاة[1].

فأما مرسى جزيرة مالطة فلا نظير لها في بر المسلمين ولا النصارى وهي جون فمه ضيق، على جانبيه برجان متقابلان، وفي داخلها مراسي متعددات دخل البحر إليها، ولها مرسى أخرى خارجة عن هذه هي أول ما يلاقي المقبل إلى مالطة من ناحية المغرب معدة لجعل (الكرنطينة)[2].

وأما جزيرة مالطة فقد اعترضت في حلق البحر الشامي[3] شجي، وقلما سلم المار من كيدها ونجا، دائرتها ستون ميلاً، وفيها نحو ثلاثين[4] قرية وأرضها كثيرة الحجارة، بل كأنها من حجر واحد، وأما تحصينها من جهة البحر والبر فشيء لا يدرك ولا يعبر عنه، أما تحصينها من جهة البحر فظاهر، وأما من جهة البر فكنت أستشكله. فقيل: إنهم لا يأمنون أن ينزل عدوهم في طرفي الجزيرة ويأتي في البر، ولا يأمنون حتى أهل مالطة لما بينهم من التباغض في الباطن لأنهم طرأوا عليهم في بلادهم وملكوها، والإمارة بيدهم دونهم، وجل أسوار هذه المدينة من أصل الحجر نفسه من غير بناء وإنما نحتوا الجبال من خارجها، فبقيت مستقيمة كصنع الأسوار.

وحجر هذه الجزيرة جيد أبيض، مثل الرخام سهل التناول، وفيه لين عندما يقلعونه، فهم ينجرونه بلا مشقة، ولا كبير عمل، فإذا طال يبس

(1) – ما انفك ابن عثمان يندب ضياع مقيداته منذ حديثه عن قادس، الأمر الذي ذكرنا فيما وقع للرحالة المغربي ابن بطوطة... انظر الرحلة بتحقيق د. التازي، نشر أكاديمية المملكة المغربية، 1997م.

(2) – نفس المعلومات التي توجد في الرحلة الفرنسية سالفة الذكر.

(3) – يعني ما نسميه اليوم بالبحر المتوسط، وقد عرفنا له أسماء عديدة حسب التطور التاريخي...

(4) – أنظر التعليق رقم 2 الصفحة الأولى.

ويصير في غاية الصلاة، ويجلب منها إلى جميع البلاد في المراكب[1]، وكذا القطـن الجيد والكمون الذي لا نظير له، تسافر به المراكب للأرضين على أن أرضهـا من حجر واحد، لكن أهلها أهل فلاحة ولهم قوة كبيرة وصبر علـى المشاق الشاقة، فتجدهم يقلعون الحجر فيبيعونه، ويأتون بالتراب في المراكـب من جزيرة غودشـ المتقدمة ومن جزيرة صقليـة ويجعلونه فوق الأرض، ويغرسون فيه.

وفاكهة هذه الجزيرة صادقة الحلاوة فقد رأينا فيها الليم المسمى اللشين في غاية ما يكون، وباكور التين عظيم الجرم، وأكثره من النوع المسمى لنبدار[2]، والجيـد منه يباع بالعدد، لكل اثني عشر قدر معلوم، وكذلك البطيخ صادق الحـلاوة، وجل أقواتهـا مجلوبة إليها من جزيرة صقليـة وغيرها لكن المعتمد عندهم هي صقلية لقربها وكثرة خيراتها، فقد كانوا يأتون بحب الملوك منها مـا رأيت مثله، وكذا الغنم المجلوبة من صقلية في غاية السمن، ولذلك كان أهـل مالطة تحت قهر صاحب حـب نابل لتوقفهم على القـوت من صقلية وهي (أي صقلية) من إيالته فلا يعصون له أمراً، سراً ولا جهراً.

وأما أهـل مالطة فإنهم يتكلمون بالعربية[3]، كانوا جاهلية فتنصروا على يد راهب يقال له سنبول، فهم يعتقدونه ويدينون بطريقه.

وقيل: إن قوماً يقال لهم لواتة بناحية طرابلس، إخوان أهل مالطة، لما تنصروا إخوانهم فروا لبر العدوة، ولا زالوا معروفين عندهم إلى الآن بإخوانهم.

(1) – تذكرنا هذه المعلومات في تشييد الأهرامات كما سبق أن قلنا...
(2) – BAJTAR فلعل هناك تحريفاً في تهجي الكلمة...
(3) – حول الوجود العربي في الجزيرة راجع الدراسة التي قدمناها....

وقــد كانت هذه الجزيــرة تحت حكم المسلمين، لما فتحــوا صقلية، وقد ضل عنــي أيهما فتح المسلمون قبل وقد ضاع ذلــك في رحلتي، يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه، اجمع ضالتي.

والــذي انتزعها مــن أيدي المسلمين نصــراني يقال له الكنــد رجير، ورد من بــلاد نرماندية بعدما انتزع صقلية أيضاً من أيــدي المسلمين كما سيأتي بيانــه[1]، وذلك في العشرة الثانية أو الثالثة من المائة الثانية عشرة من المسيح، تداولتهــا دول من بعده إلى أن انتهى أمرها علــى الاسبنيول وبقي حكمهم مسترســلاً عليها إلى مــا يقرب من نحــو الأربعين سنة[2] مــن سنة تاريخه، واستولى عليها هؤلاء الأباليس، بما جبلوا عليه من الخداع والحيل والتلبيس، ولنقص خبرهم، نعني حكام مالطة فهم لقطاء من مردة الشياطين، على أذية المسلمين في تلــك الجزيرة مرابطين، وقد كنت أتيــت بخبرهم مستوفياً في المبيضــة التي تلفت، وذكرت أول نشأتهم وما وقع منهم من الغدر ونقضان العهــد وتصميمهم على إذاية المسلمين وما وقع بينهم من الحروب، في بيت المقدس وبلاد الشــام والقسطنطينية وروطس، والآن أذكر ما علق بحفظي من ذلك فنقول، إن رؤساء مالطة، شرذمة من بني ملاقطة، مجتمعون من زبد كل قبيلة، من كل أجلف لا يهتدي سبيله، من سبعة ألسن[3] عبدة الصليب، الذين لهم لإذاية المسلمين تحديــث وتصويب، وهم الفرانسيس ولهم ثلاثة

---

(1) – نلاحظ أن ابن عثمان – وقد ضاعت مذكراته – يذكر هنا كما يذكر عند زيارته لصقلية أن انتزاع صقلية كان في العشرة الثانية أو الثالثة من المائة الثانية عشرة من المسيح، والواقع أن ذلك الانتزاع تم قبل ذلك كما أوضحناه في بحثنا عن صقلية... د. التازي: صقلية، ص 48، تعليق 43.

(2) – سلمت الجزيرة من لدن الإسبانيول إلى الهيئة عام 1530.

(3) – هي في الأصل ثمانية فيهم الإنجليزي وبعد الانشقاق بين الكاثوليك والبروتستانت، هنا اختفى اللسه الإنجليزي.

السـن، وأهـل إيطالية، والصبنيـول والبرطقيـز ونمسا والدنمرك وهم أهـل ألمانية معتقديـن خدمة الراهب، جوان[1]، مضمريـن للمسلمين المكر والعدوان، سربلهـم الله بسرابيـل الهـوان، في كل وقـت وأوان، فمـن أراد من هؤلاء الأجناس المذكورين الدخول في هذا الاتفاق الفاسد، الذي هو منكب عن طريـق الهدى حائد، ولا يسلكه إلا كافر وجاحد، فأول خدمة يخدمها هو أن يسافر في مراكبهم الحربية سنين بقصد إذاية المسلمين وبعد ذلك إذا بقي في خدمتـه مصمماً على نيته فإنهم يذهبون به إلى كنيسة جوان، ويطعمونه خبـزاً وملحاً ويأخذون عليه العهود والمواثيـق في أنه يموت على نصرة علم جوان وأنه يصبر في خدمته على العرى والجوع، ولو أكل الخبز والملح، وإن جميـع ما يملـك ليس له منه إلا الأكل بالمعروف، فـإذا مات يرثه عنه جوان وليـس له منه إلا الخمس يصرفه حيث يشاء، وأن لا يتزوج، ويعطونه حينئذ علامـة بيضـاء يجعلها في ثوبه المدثر بـه فوق صدره[2] علامـة على أنه من الأكابـر أتباع جوان، ويبقى بصدد الخدمة يترقى مراتبها إلى أن يصير (بلي) بتفخيم الـلام[3] بعد أمد طويل إن ساعده القـدر ويكون من أهل الشورى والعقد والحل ينتظر حظه في المملكة.

ولنذكـر أولاً أول نشـأة هذا الجمـع الخبيث، وكفرة أهـل التثليث، لأنهم ليس لهم ذكر في المملكة حديث ولا قديم، ولا نسب صميم، وإنما هم لقطاء أحداث منتصرين لراهب صار في عداد من في الأحداث، وذلك أن النصارى

---

(1) – راجع الدراسة الممهدة لهذه المذكرات.

(2) – كانت هذه العلامة تحمل رسم الصليب، ومن هنا جاء اسم الحروب الصليبية.

(3) – BAYLLY.

من عادتهم أن يتوجهوا الزيارة بيت المقدس ويتبركون بمقام عيسى عليه الصلاة والسلام، وربما انقطع هناك ضعفاؤهم ومرضاهم بقصور النفقة فيتعرضون للضياع، وقد كان بمصر تاجران من جنس الفرانسيس فسمعا بذلك فوقر في أذهانهما أن يبتنيا داراً ببيت المقدس يأوي إليها مرضاهم وضعفاؤهم المنقطعون، فقدما لبيت المقدس وتكلما مع أميره في بناء دار لما ذكر، وأديا إليه مالاً على شأن ذلك فبنوها وقاموا بهذا الوظيف من إيواء المنقطعين والمرضى وعلاجهم احتساباً واستمروا على عملهم، وشاع خبرهم في جميع البلاد وحمد النصارى سيرتهم واستحسنوا فعلهم وجعلوا يردون عليهم راغبين في الدخول في زمرتهم، والقيام بهذا الوظيف، فابتنوا كنيسة نسبوها للسيدة مريم، وزاد أمرهم ظهوراً، ونقل أخبارهم المرضى والمنقطعون الذين يأوون، وزوار بيت المقدس إلى جميع الأقاليم، وجعل النصارى ينسلون إليهم من كل حدب، ممن بعد واقترب، فلما كثر عددهم اتفقوا على أن لا يدخل في زمرتهم إلا من كان من أبناء الأكابر، وأعطاهم البابا الإذن في أن يلبسوا الثياب البيض شعاراً لهم، ثم سمت نواظرهم، بما انعقدت عليه من الخبث ضمائرهم بأن يثوروا بالمسلمين وأن يأخذوا مصر من أيديهم، فأجمع ديوانهم على أن يوخروا مصر ويقصدوا أولاً مدينة بقربها يقال لها (بلبيس)[1]، فإذا أخذوها يستريحون حينئذ، ويتجهزون إلى مصر، ويكونوا قد تبصروا في حرب المسلمين فاستصوبوا هذا الرأي وأجمعوا أمرهم عليه وقصدوا بلبيس، فحاصروها وضيقوا عليها فأخذوها واستقروا بها ثم تشوفت نفسهم إلى

(1) - BILBAYS.

مصـر فبعثوا طائفة منهم في المراكب في البحـر، ويدخلون إلى مصر مع النيل ويتوجه من بقي منهم في البر، فتلاقوا مع المسلمين وهزم الكفار أقبح هزيمة، ثم وردت سفن البحر ودخلت مع النيل ولا علم لها فأمكن الله منهم أيضاً وقتلوا قتلاً ذريعاً، ومن نجا منهم لحق بإخوانهم بلبيس وتحصنوا بها فبلغ خبرهم أمير المسلمين لذلك العهد فجرد عسكراً إلى بلبيس حاصرهم بها حتى استأصلهم قتـلاً وهدمت كنيستهم التي ببيـت المقدس ولم ينج منهم إلا ستون راهباً فروا لبيـت المقدس فكتبوا إلى طاغية الفرانسيـس وأعلموه بما وقع بهم من الهزيمة والقتـل وطلبوا منـه أن يتوسط لهم عنـد الأمير في أن يـؤدوا الجزية ويلزموا الرهبانية ويبقوا ببيت المقدس، فطلب لهم ذلك فأجابه إلى ما طلب، ودخلوه أذلـة وهم صاغرون، وبقوا تحت ذمة المسلمين يؤدون الجزية وطلبوا أن يبتنوا كنيسـة وأعطوا على ذلك مـالاً وبنوها ونسبوها إلى راهـب يقال له جوان، وهـو المنسوبون إليه بأنفسهم وأموالهم وبلادهم، وهو راهب قديم كان على عهد المسيح، قيل إن كل واحد منهما صب على الآخر ماء العمودية، ففعلهم كله منسوب إليه، فهذه الكنيسة لها أموال عظيمة وجبايات جسمية وأوقاف معتبرة في بلاد النصارى، وفي كل سنة يجلب إليها من ذلك ما جزيل، وكبار هؤلاء القوم نائبون عن أحباس الكنيسة يصنعون المراكب من الوقف ويفرقون الرواتب على العسكـر والجرايات على من له وظيف أو خدمة وأما ما يرويه أهـل الفداوية[1] من الحرب والقتال على لسان المقدم جمال الدين والمقدمين

(1) - ابن عثمان يزيف الأخبار التي تربط هذه الأحداث بأيام العثمانيين... والفداوية نسبة إلى أحد رواة الأساطير يحمل اسم الفداوي، أي راوي الأساطير...

الإسماعيلية وجوان، فالحرب التي وقعت لذلك العهد إنما وقعت مع هذه الطائفة القذرة، وأما جوان فلم يكن له شخص معين ولا فعل مبين إلا أنه لما كانت هذه الطائفة محسوبة عليه، نسب فعلها إليه، وقد ذكرنا أنهم ابتنوا كنيسة وبقوا زماناً ملازمين الرهبانية حتى كثروا بما أنضاف إليهم، ودخل في حزبهم وزمرتهم، وجعلوا يوسوسون بين أمير القدس وبين الخليفة العثماني ويلقون في ذهنه بأن بلاده كثيرة والناس الذين تحت حكمه كثيرون والخليفة بعيدة بلاده، فأظهر الاستقلال وإن بعث إليك عسكراً نحن في نصرتك، وإن احتجت إلى المدد نبعث إليه يأتينا[1]، فانظر إلى هؤلاء الأعداء، وما هم مصرون عليه من الداء، فاتفق معهم على ذلك، ولما بعث الخليفة إلى الأمير المذكور في بعث مال الجباية امتنع وأظهر الاستقلال والاستبداد، فبلغ إليه الخبر، فجرد عسكراً وبعثه لمحاربة أمير القدس، فتجهز للقائه وجمع عساكره ونهض معه النصارى المذكورون وحاربوا معه العسكر الوارد عليه وثبتوا في الحرب فهزموا ذلك العسكر هزيمة قبيحة، ثم اشتغلوا يقوون أنفسهم بالعدد والعدد يظهرون أنهم إنما يفعلون ذلك لنصرة الأمير وتأييده، ووقعت حروب كثيرة بين الخليفة وبين أمير بيت القدس والشام حتى أعيا المسلمين ذلك فاجتمعوا وقالوا: ما هذه الشناعة فقد خرجنا عن السنة والجماعة، بسبب هؤلاء المتمردين والكفرة المعتقدين، والصواب أن نستأصلهم ونخرجهم من بلادنا فاتفقوا على ذلك وثاروا بالعامل وعطفوا عليهم، وقتلوهم قتلاً ذريعاً، وبقوا مع المسلمين على هذه الحالة إذا كثروا، يثورون، ومهما ضعفوا بالقتل

(1) – راجع الدراسة التي أسلفناها...

وقلـوا إذ عنوا لأداء الجزية وذلوا، فـإذا آنسوا من أنفسهم قوة نبذوا ما اتفقوا عليه مع المسلمين ورفضوه، وكلما عاهـدوا غدروا وانتقضوا، والفرانسيس متوسط لهم في ذلك ومساعدهم ومؤيدهم ومنجدهم، فهو في الحقيقة طليعة سربها ومنشئ حزبهـا، ومسعر حربها، سلطه الله على تلك الدولة العثمانية، وجـرى منهـا مجرى الدم في السـر والعلانية، فهو يفعل فيها مـا يشاء بحيلة، مطاوعـة له في جميـع أمله، فأنت ترى ما لاقى المسلمـون من هؤلاء الكفرة بعد أن كانوا والعدم سواء. وأبادتهم سيوف للإسلام مبينة للهام نزاعة للشوى فجعـل يتوسط لهم عند الأمير وهو غافل عن مكرهم، وما هم منطوون عليه مـن حيلهـم وغدرهم، فهو عدو الله عـدو في ثياب صديـق، ولقلبه تصميم لإذايـة المسلمين، ولنظره تصويب وتحديق، وما درى بأن من يصنع المعروف مع غير أهله، ويقابل كل شكل بشكله، يعجزه متعقد الأمور حين يحتاج إلى حله.

ومـــن لـــم يكن سبعاً آكـــلاً

تـــداعـــت ســبـــاع إلى أكـــلـــه!

وإنه جرى مجرى المثل السائر:

ومن يصنع المعروف في غير أهله

يلاقي الذي لاقى مجير أم عامر[1]

وإن مـــن لم يتعقل عواقـب الأمور، وتصرفـات الأزمـان والدهور، إلى العجز يعزى، وكثيراً ما انثنى بيدق في سفرة الشطرنج فرزاً، وقال الشاعر:

(1) - أم عامر كتاب للمتبع

لا تحقرن صـغـيراً في تقلبه
إن البعوضة تدمي مقلة الأسد
ولـلـشرارة نـار حين تضرمها
وربما أضرمـت نـاراً على بلد

وقال الآخر:

أرى خلل الرماد وميض نار
ويوشك أن يكون لها ضرام
فـإن الـنـار بـالـعـود تذكي
وإن الـحـرب أولـهـا الـكـلام!

وقال الآخر:

فالخمر تحكم في العقول مسنة
وتـداس أول أمرها بالأرجل

لكن لا ينفع حذر من قدر:

ما لا يكون فلا يكون بحيلة
أبـداً ومـا هو كائن سيكون!

واستمـر فعل هذا الجنس الخبيث[1] مـع المسلمين ينزو ويلين، ويستأسد ويستكـين، إلى أن أخرجهم المسلمون من بلاد الشام[2]، ما أدرى في هذه الواقعـة المتقدمة أو بعدها عندما فتحت عكة، وقد كان عندي ذلك محققاً

(1) - يعني اللقطاء الشرداء الطرداء....
(2) - يعني بعد فتح (عكة) من لدن المماليك...

في المبيضة التي ضاعت.

ولما أجلاهم المسلمون من الشام ذهبوا في البلاد متسترين إلى أن وصلوا إلى راهب يقال له سانت[1] في كنيسة له ودير، فالتجأوا إليه فآواهم، ولبسوا السواد خلاف لباسهم ليستتروا، وبقوا مع هذا الراهب إلى أن تمكنوا فاحتووا على الكنيسة ومحوا اسم الراهب المذكور منها ونسبوها إليهم! فانظر فعل هؤلاء الفجرة حتى مع إخوانهم، فهم أقل عباد الله على الإطلاق، الحائزون كل عيب ومذمة بالاستحقاق، ثم طلبوا من لنبراطور[2] أن يعطيهم موضعاً يسكنون به في بلاده، وأرضه المجاورة للقسطنطينية، وهي يومئذ بيد المسلمين وقد كانت قبل للانبراطور، إلا أنه كانت بقيت له بقية من تلك البلاد تحت حكمه، فلما استوطنوا رجعوا إلى ما تعودوا من الفساد، فعتوا وطغوا في البلاد، وبلغ خبرهم أمير المسلمين بالقسطنطينية فأراد اختبارهم فبعث غنماً له مع راع، وأمره أن يرعاها في بلادهم، ففعل ومضى بغنمه إلى أطراف بلادهم، فقالوا له: ما بالك جئت ترعى الغنم هنا، وقد خلفت وراءك من البلاد ما هو أخصب منها مرعى ولمن هذا الغنم؟ فقال: إنها للسلطان، فوثبوا على الغنم فقتلوها وفر الراعي بنفسه فأخبر السلطان، فجهز عسكراً ووجهه إليهم، فسمعوا به فخرجوا لملاقاته فبعث عسكراً آخر إلى بلادهم وقد كانوا خرجوا منها لملاقاة العسكر الأول، فوصلوا البلاد وأخذوها من غير قتال، فوصلهم الخبر أن بلادهم

---

(1) – لعل ذلك كان في قبرص...

(2) – تراجع الدراسة التمهيدية لهذا الفصل.

أخذت ففشلوا وانهزموا، وتحكمت فيه سيوف المسلمين، وقتلوا منهم عدداً كثيراً وأجلوا من بقي منهم من تلك البلاد كلها، فبقوا يطوفون في البلاد كلها، ثم نزلوا جزيرة يقال لها (رودس) واستوطنوها وعمروها وبقوا فيها إلى أن حاصرهم العثماني[1]، أيضاً بعمارة كبيرة من المراكب في البحر وأخرجهم منها عنوة وقتلوا قتلاً ذريعاً وبقوا في البلاد لا يملكون مبيتاً، وعقولهم من الفرق لا تملك تثبيتاً، وصيرهم شرداء في البلاد، وطرداء بين العباد، فطلبوا من كارلوس كنط النبرطور ملك إسبانية[2] وغيرها أن يعطيهم بلاداً يسكنون بها فعين لهم مالطة وقد كانت تحت حكمه وجهزا الباشطور وبعثه معهم إلى خليفته الذي بمالطة وأمره أن يعطيهم موضعاً يبنون فيه، فعينوا لهم موضع المدينة المسماة بمالطة اليوم، وقد كانت غابة فحطبوها وأخذوا في خدمتها واختطوا المدينة، وشرعوا في بنائها وبناء كنيستهم المنسوبة لجوان، واستوطنوها وبقي حكمهم على المدينة فقط، وأما الجزيرة فحاكمها عامل الصبنيول[3] واستمر حكمهم عليها إلى ما يقرب من تاريخه بنحو أربعين سنة، فداخل هؤلاء الشياطين العامل المذكور وأغروه بالأطماع، وجعلوا ولده من الأكابر أتباع جوان فسلم لهم الجزيرة كلها، واستولى حكمهم على جميعها، وأول ما بدأ به هؤلاء الشياطين أن آذوا أهل هذه المدينة كعادتهم، مع جميع من جاوروه، وذلك أن أهل الجزيرة الأولين كانوا أجمعوا على أن عينوا أربعة وكلاء

(1) - القصد السلطان سلم نفسه..من الدراسة التمهيدية

(2) - تراجع الدراسة التمهيدية...

(3) - بهذا ندرك السر في توسيط المغرب لإسبانيا مع مالطة...

يسمونهـم بلغتهم الجُـردى[1] ويسمونهـم أهل البلد، وقـد كان بأيديهم مال موقوف على أن يجلبوا بـه الميرة والأقوات لانقطاعهم بتلك الجزيرة ويجعلـوا له الفائدة في بيعه ينمون بها المـال المذكور، وتكثر بذلك جباية الأقـوات، وأصل هذا المال من الوصايا من الأمـوات والهبة من الأحياء، وما أشبه ذلك نظراً للمصلحة المذكورة، وكان هؤلاء الوكلاء قائمين بهذا الوظيـف حتى قدم هـؤلاء الملاعين، فأول ما بحثوا فيه هـذا المال، فقالوا لهم: ما يصنـع بهذا المال الذي تستفيدون منه منـذ سنين عديدة؟ فقالوا: إنـه معين لما ذكـر من جلب الأقـوات، وما يستفاد مـن ربحه يصرف في فـداء الأسارى، فقالوا: ومـاذا عسى أن يفدى منهم؟ فـالأولى أن يقام به عسكـر، وإن كان عندكم أسير يفدى منه فلا يفوت هذا الغرض، فأخذوا المـال وأقاموا به العسكـر وجعلوا راتبه منه، فأهل هـذه الجزيرة يبغضون هذه الطائفة الخبيثة بغضاً شديداً حيث استولوا عليهم وعلى بلادهم، فهم معهـم على طرفي النقيض، وأما كبيرهم فيسمونه (المعلم الكبير) ويقولون له بلغتهم (كران ميتر) أي معلم كبير، وكيفية توليته هو أنه إذا مات معلمهم يبقى خليفته يحكم مكانه ثلاثة أيام، وهناك أقوام يلقب كل منهم بالبلي[2] فمن اجتمعت عليه الألسن السبعة أو أكثرها فإنه يتولى وربما يجتمع لأحد الأكثر وللآخر الأقل فيعطي صاحب الأقل لصاحب الأكثر ويسلم الأمر، وذلك باختلاف الأغراض والبواعث، فبعضهم تكون له رغبة في الولاية،

(1) – الجردي (JURAT) والأربعة الوكلاء هم (LUNIVERSITE) – تراجع الدراسة السابقة.
(2) – BAIYLLY.

فيعطي علـى إدراكها مالاً معتـبراً، وبعضهم يكون راغبـاً عنها ويقنعه ما يحصـل من المال مـع الخلود إلى الراحة، فإذا كملـت الثلاثة أيام المذكورة يجتمع أهل المدينة كلهم في باب دار الولاية ينتظرون خبر المتولي، فيكمل الاتفاق ويشرفون عليهم من أحد مراتب الدار ويقولون لهم: إن فلان هو (كران ميتر) ويقع ضجيج، فهذه ولايته على اتباع جوان، ويزيدون زيادة في تمـام الولاية على أهل الجزيرة وهي عـادة عندهم، وذلك أن يتوجه إلى مالطة القديمة[1] ويسمونها البلد القديم، وهي مدينة في داخل الجزيرة، فإذا قرب منها يغلقون الأبواب، وهم معتدون لهذا الأمر، فيجلس أمام الباب فيفتحـون فيخرج إليه أعيانهم، ويقولـون: ما تريد؟ فيقول: إنه قد تعينت عليـه الولاية ووقع عليـه الاتفاق، ويريـد منهم أن يدخلـوا مع الجماعة، فيقولـون له: بشرط أن تسير معنا بسيرة حسنة، وأن تأخذ حق المظلوم من الظـالم، وأن لا تجعل فرقـاً بيننا وبين إخوانك، فيقبل ذلـك، فيدفعون إليه مفاتيـح البلـد، وقد كانوا أخرجوها معهم معتديـن لذلك، وإنما هي عادة فقط، فيرجع من عندهم ويقع مهرجان كبير.

هذا مبدأ أمرهم إلى منتهاه على سبيل الاختصار وما تعلق بحفظي، وقد ضاع خبرهم مستوفياً في المبيضة وذكرنا وقائعهم وتواريخها.

ولنرجع إلى التعريف بهذا الطاغية فإنه يتعين، لما تقدم من إحسانه وتبين، فنقـول: صفته أبيض ربعة، قليل الـكلام، لباسه السواد مثل الرهبان اسمه

(1) - LA CITE NOTABLE.

منويــل دورويلد[1] من بلاد الفرانسيس، عمــره سبع وخمسون سنة، فهو من الفرانسيس في الأصل ونشأ وربى عند الإصبنيول في دار الطاغية فليب كنـط والد طاغية الصبنيــول الموجود الآن بسبب، وهــو أنه وقع من والد (كــران ميتر) خلل في جانب المملكة فاطلع عليه فنفي، وكان (كران ميتر) المذكــور في بطن أمه فتوجهوا إلى طاغية الصنبيول كنط لذلك العهد، ولما مات أبوه تشفعت أمه لطاغية الفرانصيص أن يتجاوز عنهم فقبل شفاعتها بشــرط أن يصير أولادها رهباناً، قصد بذلك أن يقطع عقبهم بموتهم فصار هذا من الرهبان أتباع جوان إلى أن ترقى إلى الولاية.

ولنرجــع إلى ما هــو المقصود بالــذات، وهو فكاك المسلمــين من أيدي العـداة، ومــا وقــع في شأن الأســارى، الــذي صيرنا ســكارى وما نحن بســكارى! وذلك أننا لمــا أقمنا بمدينــة مالطة ما يقرب مــن شهر، لنتخبر أحــوال البلد وأمورهــا في السر والجهر، كثر القيل والقــال من أهل البلد، وقالــوا: إن هؤلاء القــوم زعموا أنهــم وردوا بقصد فــداء الأسارى، وما جلوسهم وسكوتهم؟ فبلغني ذلك، فشرعت في الفداء، دفعاً لكلام العداء ولما افتديت نحو المائتين وخمسين شاع في البلد على ألسنة العامة وغيرها أن مجيئنــا إليهم إنما هو مكيدة وحيلة مكــر، ومقامنا عندهم إنما هو بقصد الغــدر مضمرين الثــورة عليهم في بلادهم، ووجهــوا ذلك بأوجه اتفقت لمــا في ضمائرهم، لقصور نواظرهم، منهــا أن الأسير شأنه إذا سرح يتوجه إلى سبيلــه، وأنا كنــت أسرحهم وأجمعهم، ومنهــا أن الأسارى المسرحين

(1) — وقع بتر من التناسخ في كتابة الاسم الذي هم منوبل دوروهان بولدي M.derohan plodie.

كان ملاكهم يعهدون منهم الأدب في القول والفعل، فساروا بعد السراح يغلظون لهم في القول، وربما يسبونهم ويسبون دينهم، ومنها أنهم لما سألوني عن مقامي في بلادهم إلى متى؟ قلت لهم: حتى ترد علي خمسة مراكب لمولانا المنصور بالله من مراكب الحرب أحمل فيها الأسارى، وأتوجه في أحدها إلى نابل، فقوى عندهم الوهم!

فقالوا: هذه خمسة مراكب، أقل ما يكون فيها ثلاثة آلاف مقاتل، وفي المدينة من الأسارى نحو خمس عشرة مايه، وتوهموا أن صناديق أثاثنا وحوائجنا والصناديق التي كان فيها مال الفداء معمورة بالعدة والسلاح مع عدم إيلافهم لمثل هذه المزايا، التي توهموها، لدهشهم رزايا، وعدم تقدم عهد بيننا وبينهم[1] وقوى محذورهم. تقدم نظير هذا الأمر بنحو ثلاثين سنة[2] فقد كانوا توهموا في الأسارى أنهم عزموا على القيام عليهم فقبضوا منهم كل من يظن به شيء من ذلك، وسجنوهم وجعلوا يلزمونهم أن يقروا بما أضمروا وعذبوهم العذاب الأليم ليقروا، فقد قيل: إنهم كانوا يأتون بالكلاليب فيحمى عليها ويقطع بها لحم الرجل ويجعل مكان ما قطع الزفت إلى أن يأتوا عليه، ويربطون آخرين: رجل ويد كل في فلوكة وتشرق واحدة وتغرب أخرى حتى يذيقوه العذاب الأليم، ويقسم بالسيف شطرين، وغير ذلك من أنواع العذاب، حتى استأصلوا جماعة من المسلمين.

وهذه المرة لما وقع هذا الأمر أصبح السجن مغلوقاً على الأسارى،

(1) – فعلاً لم تكن هناك اتفاقية بين المغرب ومالطا على ما أسلفناه في الدراسة.

(2) – حسب الرحلة الفرنسية السابقة فإن الثورة وقعت عام 1120م وليس بعيد عندي أن تتكرر الثورة فتكون التي تحدث عنها ابن عثمان غير التي تحدث عنها الرحالة المجهول الاسم...

وجعلوا على الباب العسكر بالسلاح، وكذا على باب دارنا، وكنا وإياهم في عين الهلاك لولا أن تداركنا الله وإياهم بلطفه الخفي، فهو بمن يشاء من عباده حفي، وكان هذا الطاغية الذي عندهم رجلاً عاقلاً ذا أناة وتثبت فبعث إليها وقال: هؤلاء الأسارى لا يبقون في بلدنا بعد ثلاثة أيام، وإنما قصد الخير في ذلك، فقد أراد أن يطفئ تلك الغوغاء ويقطع الكلام، ويبعث من يكتري المراكب وأعلمنا، وبعد ثلاثة أيام أركبناهم البحر وبعثناهم في مركبين، مركب لابن غازي ومركب لطرابلس، وقد كنت تكلمت في فداء مائتين وتسعة من الأسارى جملة واحدة فاعترضت هذه الأمور، التي صبرت الأذهان تمور فصبرت للقائها جأشي، لعلي أفوز بقضاء غرض أمير المؤمنين الذي إليه إضافتي وانحياشي... وأبذل في تحصيله نفيس ورياشي، ولا أحاشي، إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً فيسر الله علينا، والمنة له، فيما أنعم من تكميل هذا الفداء المبارك وخوله، فافتدينا ما كملنا به ستمائة وثلاثة عشر، وكمل الله بفضله هذه الحسنة التي صيتها صار في الآفاق وانتشر، ولم يتفق مثلها لأحد من البشر، طارت بها الركبان طيران العقبان، في المشارق والمغارب، والأعاجم والأعارب، والله يجازي سيدنا ومولانا أمير المؤمنين عن الإسلام خيراً، فقد أبقى لنا معه في هذه الدنيا ذكراً، وفي الآخرة إن شاء الله ثواباً وذخراً، فقد نلنا بخدمته والحمد لله ما لم ينله الأمراء، فضلاً عن الكتاب والوزراء[1].

(1) – تعبير جميل من ابن عثمان في حق ولي نعمته، وفي الوظيفة السامية التي أسندها إليه والتي كانت تعني السفارة التي تسهم في بناء العلاقات بين الأمم وترفع ذكر السفير على الصعيد الدولي...

فمن غدا مضافاً لأرباب الصدور تصدر[1].

فيا لها من مزية أرغم بها أنف كل حسود فظ. وما يلقاها إلا ذو حظ..!

وفي هـذا الفداء فوائد راجعة بتحصيـل كل أرب وعوايد، فمن ذلك ما وقـع في قلـوب هؤلاء الكفرة مـن الرعب والإرهاب مـن سيدنا أيده الله ثالـث العمرين، فقد قال صلى الله عليه وسلم نصرت بالرعب مسيرة شهر ومنهـا أن مراكبهم تعطلـت عن السفر بسبب جماعة مـن الأسارى كان عليهـم المدار في سفر مراكبهم المخذولة ومـا شعروا حتى شملهم الفداء، حتـى أنهم عزموا علـى أن ينقضوا معنـا عقدة الفدا علـى شأنهم، ووقع بـين رؤساء المراكب وبين الوكلاء على البيـع تشاجر كثير، فقلت لهم: لا سبيـل إلى ما تريدون، إن عزمتم عن الحق تحيدون، فإن خنست جماعتكم عن الحـق وتولت، فعقدة الفـداء قد استقلت، أخاصمكـم بها في جميع الأجناس والقبائـل[2]، حتى تتبينـوا أن الحق ثابـت وأن الباطل زائل، ثم إن كبيرهـم دافعـه عنا بما أمكن ولم يـأل جهداً في إسعافنا قبـلاً وبعداً، ثم اكترينا المراكب فحملناهم فيها، فوجهنا مركباً لطرابلس ومركباً لصفاقص ومركباً لتونس، وكان بحمد الله فتح أبرمته يد القضاء، لم يكن يتفق لأكابر من تقدم من أعيان الأمراء ومضى.

ولـو تـرى إذ كان الأسـارى يركبـون في المراكب، والقـوم يتزاحمون لرؤيتهم بالمناكب، والنساء يولون برفع أصواتهن شكراً، فيجيبهم الرجال

(1) - عليك بأرباب الصدور فمن غدا - مضافاً لأرباب الصدور تصدرا!

(2) - راجع التمهيد قف مع وصف ابن عثمان هذا.

والصبيـان بالدعاء لسيدنا المولى الذي ترقى في سماء المواهب قدراً، وسما فخراً، والقوم يعانق بعضهم بعضاً فرحين بما أتاهم الله من فضله، مستبشرين بالسلامة والنجاة من العـدو الكافر وفعله، فكم من زوج وزوجة، ووالد وولد، وأخ وأخت فرق الأسر بينهما دهراً، فرق كل قاسي القلب لما عاين أحوالهـم المكسورة قهراً، فكانـوا لا يتمكنون من رؤية بعضهم بعضاً سراً ولا جهـراً مكثوا على هذه الحالة عاماً فعاماً وشهـراً فشهراً، بل لم يعلموا أنهـم في عـداد الأحيـاء، أو الأموات، حيث سقـط كل منهم من شواهق الأسـر في مهواة فجمع الله تعالى - بمولانا أمير المؤمنين - شملهم، ووصل حبلهم، وفرح أناسهم وأهلهـم، لعلمت[1] أن أمير المؤمنين ممن اجتباه الله إليـه، وأنه لمن الملحوظين لديه، وأن هـذا الأمر الخطير الذي لم يتقدم له في دول الإسـلام نظير، لا يتفق إلا على يد سعيـد وذلك على سعادته شهيد، أبقى الله تعـالى سيدنا ومولانا ملجأً عند المهمـات، وفتاحاً لما أعوص من المشـكلات الملمات، وطلعتـه السعيدة علـى المسلمين بشائـر بالخيرات ومقدمات.

وقـد رأينا من أعياد هؤلاء الضلال ونحـن بالمرسى قبل نزولنا إلى المدينة عيـداً يستعملونه قبل دخولهم في صيامهم بمنزلة شعبانة ويستعملونه أيضاً بعد خروجهم منه، وقد صادفنا خروجهم من الصيام ووافق أن ازداد عند طاغية الفرانسيس ولد فاستعملوا ذلك العيد فرحاً يلبس فيه الذكران براقيع

(1) - قوله لعلمت جواب لقوله السابق: ولو ترى إذ كان الأسارى ثمانية سطور بين لو وبين جوابها! وإذا سخر الآلاه أناساً - لسعيد فإنهم سعداء!

النسوان وتتزيا فيه ربات الحجال، بزي الرجال، ويزور بعضهم بعضاً على تلـك الصفة، ولا يميز أحدهم الآخر، إذ الأشباح باللبس متصفة، ومن ميز أحداً فإن ذلك يعد من فطانته، ونبله ونجابته، ويذكر ذلك في الأندية، وفي الجماعـات على موائد الأغذيـة، هذا معنى العيـد في الظاهر، وفي باطنه مغاير، فإن هؤلاء القـوم على الزنا معتكفون متفقون عليه لا مختلفون وإن أول شـرط يشترط على كل أحد حين دخوله في هذه الخدمة أن لا يتزوج، ولا يستثقل ذلك ولا يتحرج، فتجد عند كل واحد من هؤلاء الفجرة امرأة علـى الزنـا مستأجرة فيلد معها الأولاد من الحـرام، وليس له في نكاحهم على مقتضى دينهم مرام، فتراهم في هذا العيد، كل من كان بينه وبين امرأة كلام سابـق، وعاق بينهم وبـين مرامهم عايق، فإنهـم يجعلون هذا العيد موعداً للملاقـاة، ويدخرونه لسائر الأوقات، ويـرى كل واحد الآخر ما يميزه به من العلامات، فإذا التقيا ميز أحدهما الآخر وعرفا، وعلى غيرهما اختلفـا قبحهم الله فما أقل حياءهم وأعظـم اجتراءهم، فإن الزنا في دينهم حرام، ومع ذلك يجهرون به كباراً وصغاراً فصاحبه لا يضام ولا يرام.

ومن أعيادهم التي رأينا عيد تسرح فيه المدينة لثلاث ليال، وقد استدعانا الطاغيـة لرؤيته فبعث إلينا وكيله بأكداشـ وقال: إن الطاغية يريد منك أن تقدم لـداره، لرؤيته هذه الفرجـة التي يستعملون في هـذا العيد، فأجبناه وتوجهنا إلى داره، فصعدنا إلى فوقيها وأشرفنا من أحد مقاعدها على طريق مستطيلة مارة بجـدار دار الطاغية، وقد فرشوها قبل ذلك بالتراب، لأنها مرصفـة بالحجر، خشيـة أن يسقط أحد فيتضرر، فـإذا بضجيج وعجيج، ومن النصارى مـا لا يحصى، والنساء مشرفات من الأسطحة، وإذا بخيل

وحمـر فارهــة، لأن حمر هذه الجزيـرة قلما يوجد نظيرهـا إلا ما يحكى عــن حمر جربة، فسألت عــن الخيل والحمر لم هي معدة هـا هنا؟ فقالوا: بقصــد المسابقة ولذلك فرشت الأرض بالـتراب لأنها مرصفة بالحجارة، خشية أن يسقط أحد، وإن الطاغية يجعل حوائج يعلقها في رأس المجال[1] فتسابق الحمر أولاً، ومن سبق أخذ ما هو معين، ثم تسابق الخيل ومن سبق أيضـاً أخذ ما هو معـين، ولهم في ذلك فرجة كبيرة علـى أهل الحمر عند المسابقة لأن الحمر في غاية الصون والشبع عند أربابها فلا تستقيم بهم عند المسابقة، فجلهم يسقط للأرض ويقع عليه الضحك والضجيج!!

ورأينـا أيضـاً من أعيادهم عيـداً يستعملونه في رابـع وعشرين من يونيه وهو يـوم العنصرة[2] فاستدعانا أيضاً الطاغيــة لرؤيته وبعث إلينا الأكداش وتوجهنا إليـه فدخلنا داره وقد أعد لنا مقعداً فأشرفنا منه على براح متسع وقد اصطف العسكر والطبول والمزامير، وإذا بخمسة براميل أو ستة، بين كل واحد أربـع خطوات أو نحوها وكل برميل موضوع على التبن فبقينا مشرفـين منتظرين ما يكون حتى إذا غربت الشمسـ خرج الطاغية ومعه أربعة أو خمسة من أرباب الدولة على عدد البراميل أو ستة، بين كل واحد أربـع خطوات أو نحوها، وكل برميل موضـوع على التبن فبقينا مشرفين منتظريـن ما يكون حتى إذا غربت الشمس خـرج الطاغية ومعه أربعة أو خمسة من أرباب الدولة على عدد البراميل، وفي يد كل واحد منهم شمعة

(1) – يعني في نهاية الشوط...

(2) – (في كد يونيه تكون العنصرة) كما يقول أبو مقرع في نظمه (المقنع)..

كبـيرة موقودة، ومن ورائهم من دونهم ثــم نقرت الطبول وجعل الطاغية ومــن معه يدورون بتلك البراميل مراراً، ثــم أوقد الطاغية النار في البرميل بتلــك الشمعة، وأوقد كل واحد ممن معــه النار في برميل ودخل إلى داره، واضطرمــت النار في التبن مع البراميل وأخرجت مدافع بالكور إلى ناحية البحــر زيادة علــى ما يفعلون في أعيادهم، فإن الأعيــاد إنما يخرجون فيها البــارود فقط، ومعنى هــذا الفعل عندهم هو أن جــوان يمتبوعهم قيل: إنه قتل وأحرق بالنار في ذلك اليوم، فهم يفعلون ذلك تذكرة لشأنه، والمدافع التي تخرج بالكور علامة على أنه كان مجاهداً. وقد عمت البلوى في بلاد الإسلام كلها بالموافقة معهم في إيقاد النار في هذا اليوم!

وقــد أرانا هذا الطاغيــة داره كلها وما اشتملت عليه مــن القبب والمقاعد والمنــازه، رأينا في إحدى قببهــا رخامة مستطيلة في عرض نحو شبر وطولها قدر عرض القبة، مقسمة على عدد شهور السنة، وكل قسمة مقسمة بخطوط على عدد أيام الشهر وفيها الأبراج مصورة على أشكالها مثل الأسد والميزان والعقــرب والقوس والجدي والحوت وغير ذلــك، وفي قرب السقف طاق قدر الأنملة تدخل منه الشمس عند الزوال في سائر الفصول وتستمر مع تلك الرخامة في سائر أيام السنة، وقد رأيت مثل ذلك في دار الطاغية الصبنيول.

وقــد رأينا في دار طاغية مالطــة أيضاً قبة كبيرة جامعة لأسلحة الأقدمين من الزرود والقسى والبيضات وكساوى الحديد التي على قدر مفاصل الإنسان، ساتــرة لوجهه ولها منافذ ينظــر منها ومنفذ يتنفس منها. فتجد كسوة الحديد قائمــة، قابض بعض مفاصيلها الآخر، وبيدها الرمــح فلا تشك على البديهة إنهــا أدمى! وقد قيل: إن هذه العدة المجتمعة عند هذا الطاغية من هذا العمل

القديم لم تكن عند غيره من الطواغي لأن لهم اعتناء كبيراً بشأن الأقدمين.

ومن غريب ما رأينا من ذلك مدفع كبير مصنوع من الجلد محمول على عجلاته كانوا يخرجون به البارود عند أول ظهور هذه الصنعة، الحاصل أن إتقانهم واعتنائهم بأمور الدنيا أمر عجيب (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون).

ولما تممنا بحول الله غرض مولانا المنصور بالله في هذا الفدا، وقمع الله بذلك الحاسدين والعدا، أحصينا من بقي في الأسر من المسلمين فكانوا سبعمائة وبضعاً وعشرين، تكلمنا مع ملاكهم في قدر فدائهم، وبعثنا زمامهم إلى سيدنا أمير المؤمنين وأعلمناه بأمرهم، فإن قوى عزم سيدنا على إخراج هذه البقية من المسلمين، والله يقويه، ويبلغه في فدائه ما يؤمله وينويه، فيبعث مال الفداء إلى كبير هذه الحجرة، ورأس الضلال الفكرة، ويخرجهم إن شاء الله جميعاً، فإني أراه من مهابة سيدنا لأوامره مطيعاً سميعاً، ونسأل الله تعالى أن يعجل سراحهم، ويكمل بذلك أفراحنا وأفراحهم.

وأخذنا في الاستعداد للسفر من مالطة إلى صاحب نابل لقضاء أغراض سيدنا ومولانا، نسأله سبحانه أن يفتح علينا فيما بقي، كما أنعم علينا فيما مضى وأولانا، وأن يرزقنا القبول وبلوغ المأمول سراً وإعلاناً.

واكترينا مركبنا الأول الذي قدمنا فيه وعين الطاغية الوقت الذي تكون فيه الملاقاة بقصد الوداع، واخترت أن لا أكون كلاً كالغير[1] فأقطع عني

(1) – ما يزال ابن عثمان مشغولاً بزميله الحافي الذي نجد له ترجمة واسعة بقلم المستعرب الإسباني بالاو في مجلة (القنطرة) على ما أسلفناه.

الكلام والنزاع لأن كثرة المقام في بر النصارى بلا فائدة، مهانة زائدة[1].

ثم بعث الطاغية الأكداش لركوبنا للقدوم عليه، فتوجهنا إليه فتلاقينا معه في الموضع الذي تلاقينا معه أول مرة، فأزال شمريرة عن رأسه واستقل قائماً وهيأ كرسياً لجلوسنا، فجلسنا وجلس هو على كرسي آخر فجازيناه خيراً على وقوفه معنا في هذه الفدية، وراجع معنا الكلام هنيئة ثم قال: هذا الحافي مقامه إلى متى؟ فقد رأيته هنا نبتاً (كذا)، وثقله على الروح طغى وعتا، وإنني استلزمت حلواناً للسفر إذا بسفره أتى! فقلت له: عن قريب يأتي إخوانكم من عند سيدنا المنصور بالله الذي هو فيهم رهن، ويكشف الله عنك بسفره، كل حزن ووهن! فقال: ما كنت أظن أن المسلمين فيهم الثقلا، فقلت: بلى وهل يخفى ابن جلا؟ فقال: لا يخفى، فقد عدل بهذه الجزيرة ووفي؟ وإني لا آمن، ما دام بين أظهرنا، غرقاً أو خسفاً! فلو يشاء أمير المؤمنين أن يمن بفراقه، من الأمراض شفي، وعن إساءتنا فرضا تجاوز وعفا، وتدارك ما انفتق بشغله ورفا، وإلا فقد جلانا هذا الثقيل عن بلادنا ونفا!! فواعدناه بالإسعاف وعن قريب يأتي الأمر برحيله عنكم والانصراف[2].

ثم ودعنا الطاغية وجازيناه خيراً على وقوفه معنا حتى قضينا ما قدمنا عليه وكانت رحلتنا إليه، ووقف حتى خرجنا عنه وتوجهنا إلى دار نزولنا وأقمنا بعد ذلك ثلاثة أيام فقضينا فيها ما بقي من أمور السفر وتأهبنا

(1) – يبدو أن ابن عثمان حريص على التقيد بالتعليمات التي تحدد مهمته في أمر الفداء...

(2) – سنرى أن الحافي هذا سيعهد إليه بمهمة ثانية في مالطة، انظر بحث بالاو في مجلة القنطرة سالف الذكر وانظر كذلك كتاب الأتراك في شمال إفريقيا لعزيز سامح د. التازي التاريخ.

للسفر فبعث لنا الأكداش وتوجهنا إلى المرسى فوجدنا الفلايك مهيأة لركوبنا فركبنا وتوجهنا إلى السفينة وذلك في سابع شعبان من سنة تاريخه[1]، وأرخى الرئيس للمركب الشوارع، وتحصنا بالله وبكلماته من شر كل مفاجئ فاجع، ورجع من المركب من صحبنا من الأعيان بقصد الوداع، واستمر المركب على المسير، معتمدين على من العسير عليه يسير، وقد كان الريح ضعيفاً، فما سنا إلا سيراً خفيفاً بقية ذلك اليوم والليلة بعده، ونحن في هناء وسرور وحبور إذ ركد الريح الشرقي الذي سافرنا به واعترضنا الريح الدبور، وعظم البحر وأمواجه بدا تقطيبه وهياجه، طول ليلة ويوم، لا صلاة ولا نوم، ونحن نترجى انكشافه، وأن يعطينا الله ريحاً خلافه، حتى رأينا الريح قد ردنا القهقرى وأننا كدنا أن نترك مالطة إلى الوراء، وحينئذ لا يرفى ما جرى، فأشرت إلى الرئيس بالرجوع إلى مالطة، وإن كانت النفوس لذلك مبغضة ساخطة لكن لا تعنيف، على من يأتي الكنيف! فدخلنا مرساه، كما حكم الله، ما حصلناها إلا بمشقة، حتى كانت الدنيا علينا أضيق من حلقة، وقدم أعيان البلد يهنئوننا بالقدوم، وقالوا: ما كنا نظن أن هذا الريح في هذا الفصل يدوم، والحمد لله على سلامتكم ونجاتكم، وإن شئت أن تنزل الدار حتى تستريح، ويستقيم الريح، فالدار موجودة، والمؤونة كما علمت مفقودة[2]! فقلت لهم: يصعب علينا النزول إلى البر والرجوع إلى المركب مرة أخرى، ونحن إن

(1) – 7 شعبان 1196 كان يوافق 18 يوليه 1782.

(2) – لم ينس ابن عثمان أن يعيد الذاكرة أن ضيافة السفير تقتصر في مالطة على الإقامة دون الطعام!

يســر الله علينا من يومنا نسافر، وأقمنا بتلك المرسى ثلاثة أيام، فقضينا فيها مــا فاتنا من الصلاة والمنــام، وفي كل يوم يأتي إلينا كبــار المدينة لرؤيتنا لما تقــدم بيننا وبينهم من المعرفة، فأتانا الله بريح شرقي فسافرنا به فما جاوزنا مالطــة إلا مقدار نصف يوم وركد الريح، وبقــي المركب كأنه في فلاة في الأرض طريــح، لا يستطيع عن مكانه انبعاثاً، وقلوبنا كادت تتفطر فتصير رفاتــاً، خيفة من أن تسكن الريــاح فيظللن رواكد على ظهره، وبقينا أحير مــن ضب تحــت حكم الله وقهــره نحو اثني عشــر يومــاً والمركب بمكانه مرســى، ونحن كأصحاب تيه موسى، وبقيت الأوهام والشكوك تترادف على القلــب حتى اندمل، وتلقى وساوسها في الأذهان إن دام هذا الحال، فمــا العمل؟ فاستسلمنا لقضاء الله، إنما النجوى في الشيطان ليجزي الذين آمنــوا وليس بضارهم شيئاً إلا بــإذن الله، ثم تداركنا من فضله برحمته من السماء والأرض في قبضته، فرزقنا ريحاً موافقاً للسفر يوماً وليلتين فأشرفنا على نابل وقت الصلح إذا أسفر.



الفصل الثالث

نابولي في مذكرات السفير ابن عثمان

أول سفير مسلم ينزل نابولي

كان ابن عثمان محلقاً عندما كتب مذكراته حول نابولي التي كان فيها ضيفاً على الملك فيرنادو الرابع، طوال ثلاثة أشهر، ابتداء من شعبان 1196 – 1782م[1]، في قصر الأمير ميريلي دي تيورا (Mirelli Diteora) الذي كان يقع على شاطئ البحر.

وستظل نابولي مدينة للسفير ابن عثمان فيما استحضره عن المدينة وضواحيها بالرغم من ضياع مبيضته الأصلية التي كانت تحتوي على تدقيقات أكثر.. ويكفي هنا أن نستعرض رؤوس الأقلام لعدد من الموضوعات التي تطرق إليها قبل أن نقرأها مفصلة في المتن، ومع ذلك سنقف قليلاً عند بعض المحطات التي نرى من المفيد الوقوف معه فيها لاستجلاء بعض الخصوصيات لهذا السفير الذي يعتبر (مؤسسة) من المؤسسات الدبلوماسية التي يعتز المغرب بها! فلقد تناول فترة وصوله إلى نابولي وما لقيه من ترحاب كبير ولو أنه كان غير مهتم بذكر أسماء الشخصيات السامية التي كانت في استقباله من أمثال وزير الدولة د. بيكادلي D.Beccadelli الذي تسلم من السفير نسخة من أوراق

(1) – ينبغي أن نلاحظ أن سفراءنا وهم يصادفون شهر رمضان لم يكن من دأبهم أن يهولوا أمر رمضان، ويصورونه عرقلة.. بل كانوا يقومون بصيامه في هدوء محولين بعض نشاطهم إلى ما بعد الغروب...

اعتماده[1].

وقد بدا ابن عثمان لبقاً في تعامله مع الناس، كما بدا مستطلعاً على أحوال البلاد ونظمها، ولاشك في أنه كان -من جهة أخرى- يبلغ (رسالة) إلى الحكام في المغرب عندما كان يتعمد الحديث عن بعض المنشآت الحضارية التي شهدها والتي لم يتردد في الإشادة بها، وإبراز محاسنها، ولو أن تلك (الرسالة) لم تلق من يصيخ بسمعه إليها! لأن ظروف المغرب -على ما نعرف- كانت لا تسمح بالتفتح على كل تلك التطورات التي تعرفها أوروبا.

وسأختصر القول لأذكر بما قلته أمام طلبة المعهد الجامعي في نابولي:

ذكرت أن انطباعات ابن عثمان وهو يزور البلاد تتنوع ثلاثة فصول، ففيها الفصل الخاص بالمهمة الرسمية التي رحل من أجلها لمقابلة الملك، وفيها الجانب السياحي الذي يعطي فكرة على أن السفير كان حاضراً بجميع حواسه مع المعالم التاريخية ومع العادات كذلك. وكان الجانب الثالث مما ينبغي أن نلتفت إليه، هو الجانب العاطفي: ابن عثمان إنسان قبل كل شيء ومن ثم كان صريحاً في التعبير عما يحسه كإنسان!

كانت المهمة التي أتى من أجلها هي افتداء الأسرى: أي العمل على تطبيق تصريح مكناس الذي سبق الحديث عنه.

(1) - د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب 9 ص 279 - 280، د. كليليا سارنيلي سيركوا: السفير محمد ابن عثمان المكناسي وبعثته الدبلوماسية إلى نابولي 1782 - 1196، أدب الرحلة والتواصل الحضاري، سلسلة الندوات، جامعة المولى إسماعيل كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس 1993، ص 219 - 228.

نغتنم هذه الفرصة لنجدد الشكر لزميلنا الأستاذ الدكتور أحمد البريهي رئيس جامعة مولاي إسماعيل (بمكناس) على مساعدته الثمينة..

ولهذا الغرض توجه ابن عثمان أولاً إلى مدريد، وانتهت المباحثات في بلاد الملك كارلوس الثالث إلى اتفاقية... وكان العاهل المغربي يعتقد أن تلك الاتفاقية ستشمل الملك فيرديناندو الرابع ملك نابولي وابن الملك كارلوس الثالث، ولكن الواقع كشف أن أمير نابولي رفض الانضمام كطرف ثالث في المعاهدة التي أبرمها والده مفضلاً الاتصال المباشر مع المملكة المغربية!!

وقد حدث في ذلك الوقت أن قامت سفينة نابوليتانية بعملية سطو على سفينة مغربية كانت متوجهة تحمل زاداً إلى طرابلس، وكان السلطان يعتبر نفسه في حالة سلام مع الملك فيرناندو الرابع، لذلك احتج لدى مدريد راجياً أن يتدخل الوالد لدى الولد حيث نرى أن ملك نابولي يوافق على حل المشكل، وعلى الانضمام لاتفاقية والده.

وبهذا نفسر قرار الملك محمد الثالث بإرسال ابن عثمان إلى نابولي لإعادة جو الثقة والتفاوض من أجل تعويض السفينة المغربية المنهوبة والانضمام إلى تصريح مكناس.

وهكذا نرى ابن عثمان بنابولي صحبة الوفد المغربي حيث جرى الاستقبال الرسمي الذي يصفه ابن عثمان والذي نجد أصداءه في الوثائق النابوليتانية التي تحدثت عنها الأستاذة سارنيلي بتفصيل في ندوة مكناس.

وفي الأيام الموالية لوصول السفير تعرف على كبار القوم ثم توجه إلى البلاط حيث استقبله الملك أولاً ثم بعد ذلك الملكة ماريا كارولينا بحضور شخصيات سامية. وكان ابن عثمان، وهو أول سفير مسلم يزور نابولي في هذا القرن، كان في مستوى ما ينتظر منه شكلاً ومضموناً كما يقولون.

ولم يتردد ابن عثمان وهو شاعر وأديب أن يكتم هواجسه وهو يحكي لنا عن تفاؤله بنجاحه في مهمته بعد أن وعدته الملكة بمساعدته، لقد تذكر بيتاً للفرزدق عندما حدث له شجار مع زوجته النوار فنازعته وخرجت إلى عبد الله بن الزبير ونزلت على زوجته خولة بنت منظور الفزاري وتشفعت إليها، وتبعها الفرزدق، فنزل على عبد الله بن الزبير، فكان عبد الله إذا أصلح شيئاً من أمر الفرزدق قلبته عليه خولة! هنا أنشد الفرزدق قوله:

ليس الشفيع الذي يأتيك مؤتزراً

مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا!

وهو البيت الذي تذكره ابن عثمان وهو يرى أن الملكة ماريا كارولينا تعده بالمساعدة!!

المهم أن أذكر أن ابن عثمان كون له في القصر مركزاً جيداً، ومن هنا أصبح محل احترام، يستدعى للحفلات والاستقبالات على ما سنقرؤه بأسلوب سفيرنا ابن عثمان.

والجدير بالذكر أن البعثة الدبلوماسية كانت لها نتائج إيجابية، فقد تم التوصل إلى معاهدة سلام رمضان 1197-غشت 1782 يوجد نصها محفوظاً باللغة العربية في أرشيف نابولي على ما وقفت عليه شخصياً..

وقد حصل السفير على مبالغ ضخمة قدرها 2568 دكه تعويضاً عن السفينة التي نهبت إضافة إلى تسلم عدد كبير من الأسرى[1].

(1) - د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج 9 ص 279 - 280، رقم الإيداع القانوني 25/1986، مطابع فضالة - المحمدية - المغرب.

وقد كان الجانب الثاني من مذكرات الدبلوماسي المغربي يتعلق بالسياحة في البلاد والوقوف على معالمها ومنشآتها، وهنا أتى بالبديع من القول وبرهن على أنه كان نموذج الملاحظ المدقق الذي نقل إلينا كل طريف عن نابولي، وكأنه كان ينبهنا إلى ما يجب علينا أن نفعل في بلادنا نحن!!

لقد كنت أشعر بأن طلبة المعهد، وهم يكونون رجال الغد من المستشرقين الذين يكونون نقطة اتصال بين الشرق والغرب؛ شعرت أنهم كانوا يقدرون ابن عثمان لحرصه على أداء الوصف لكل زاوية من زوايا بلدتهم!!

وقد كان الجانب الثالث الذي تطرب له المثاني والمثالث! يتعلق بالجانب العاطفي والشاعري لهذا السفير الأريحي وهو يتحدث عن مجلس أنس دعي إليه ذات ليلة من طرف أحد الوزراء حيث كان للشموع وثريات البلور حظها في توهج هذا المجلس الذي حضره معظم الوزراء وكبار رجالات الدولة..

هناك برزت فتاة من خدرها، كهالة حاطت ببدرها... يبدو أن الفتاة كانت تنشط حين شاركت أدوات الموسيقى التي لم يكن ابن عثمان رآها من ذي قبل مثل الأربة...

المهم أن أذكر هنا أن ابن عثمان الذي نعرفه رجل جد تغير إلى ابن عثمان أريحي طروب مندمج في المحيط!! يسبح في عالم آخر... وأخذ يشعر بالخوف في أن يقع في شرك حب فتاة نابولي! ولقد فاضت شاعرية السفير حيث نجده ينشد أبياتاً نفث بها القلم خشية الوقوع في الجوى والألم على حد تعبيره.

إذ أبــصرتــه فــاحــذر هــواه
بمقلته لــه بـطـش شـديـدا!
فكل الـقـوم أسرى في لحاظ
بـأشـفـار لـهـا منها قيود
مـراض قد سفكن دم البرايا
تحكم في الأيـام كما تريد!!

لم أنسى، وأنا أقدم هـذه الأبيات أمام طالبات معهـد نابولي، أن إحدى الطالبـات، وكانت تجعـل على عيونها نظـارات تساعدها علـى الرؤية، سألتنـي عن معنى الألحاظ السقام والعيون المراض، وكيف أنها كانت عند ابن عثمان محل مدح!! عوض أن تكون محل قدح!!

الطالبـة لم تكن بلغت في التعمق في اللغـة العربية درجة تفهم فيها معنى سقم الألحاظ ومرض العيون عند الشاعر العربي الذي يقول:

مرض الجفون ولثغة في المنطق
شيئان جرا عشق من لم يعشق!!

وقد استوقفـه في نابولي شكل الفيل الذي ورد ذكره في التنزيل! وصفه وصفاً دقيقاً، لم يكن رآه في حياته، قال عنه: إنه آية من آيات الله..! ووصف قوائـم الفيـل بأنها تشبه أعمدة من بنـاء! وأن أذنيه يشبهـان شواري بلغة الوقـت قال: ولـه خرطوم طويل تجاوز فاه بنحو أربعـة أذرع، وبه يتناول الطعـام والشـراب وبه يصول ويجـول!! وبه يتناول اللـين والخشن! وبه يتناول الخمر أيضاً.

وزاد استغـراب ابن عثمان مـن أن مدرب الفيل كان يطلب إليه أن يقوم

ببعض الحركات فيقوم هذا الحيوان بالامتثال! وشاهد المدرب يعلو ظهر الفيل ويطلب من الفيل أن يأخذ خبزاً من يد المدرب... فمد خرطومه إلى أعلى الظهر ليتناول الخبز ويأكله ويعود مرة أخرى لأخذ نصيب آخر من الخبز!!

ولاشك أن ابن عثمان استغرب من عدم وجود سيدة مدربة عوض السيد المدرب! إن الفيل يرفض أبداً أن يرضخ لتعليمات امرأة! هكذا قال قوم الطايلاند!!

لقد أبان ابن عثمان وهو يتحدث عن مقامه في نابولي على أنه رجل قوي الذاكرة، عبقري الإحساس، متطلع إلى معرفة المزيد من المعلومات عن هذا العالم...

عندما كنت ألقي محاضرتي في نابولي عن مشاهداته كنت أشعر بأنني بحاجة إلى الوقوف عند كل محطة من محطات وقوفه، وكنت أشعر كذلك بأنني إنما أختزل الكلام اختزالاً.

لقد تحدث عن أسواق المدينة التي كانت مسرجة طوال الليل، ووقف الرجل على عمران العاصمة قائلاً كلمته العجيبة: كأنما هي ملك لرجل واحد! وسمح لنفسه بالسؤال عن تاريخ المدينة وتطور الحياة فيها فكان مثلاً للإنصاف والإتحاف معاً، وقد استطاع أن يخضع الحرف اللاتيني للحرف العربي، فكان يكتب الأعلام بمسمياتها، وعندما ترجم لملك نابولي أخذ حريته للكلام وكأنما يترجم لملكه محمد الثالث!

وقد أمتعنا في حديثه عن نادي الأعيان الذي كانت المدينة تستمتع به رجالاً ونساء، ولم يخف مرة أخرى حبه للآيس كريم الذي كان من عشاقه

وخاصة بإيطاليا، وقد قدم لنا الحديقة العمومية التي تعتبر مفخرة من مفاخر المدينة، ملاحظاً أن الزائرين لها يمنعون من استعمال العربات عند الفسحة فيها حتى لا يفسدوا ممراتها، وكان في كل خطوة من خطواته يكيل الثناء لملك البلاد، ويشيد بمنشآته وبغيرته على بلاده، وعندما زار المسرح كان صريحاً في الثناء على المبنى وعلى الأهداف من مثل هذه المنشآت التي كان المغرب يفتقدها آنذاك!

وقد دخله العجب وهو يزور بنك المدينة ويطلع على تخصصاته، واستغرب من أنواع المرتهنات من زمرد وياقوت وماس، وحتى الثياب والملبوسات! وقد كان يشعر بالحاجة الماسة لنقل صورة صادقة عن هذه الأمم ليعرف أبناء وطنه بما يوجد وراء البحار من عجائب وغرائب، وتحدث عن الفيل الذي شاهده لأول مرة في حياته... وكان لا يتكلف في البحث عن المفردات المناسبة، فكان يرتكب الدارجة حتى لا يفوته تعجيل الفائدة لبني قومه! وكان مما أتحفنا به وهو يحكي عن الفيل، أنه أي الفيل مع عظمته يظل خائفاً من الفأر أن يدخل في أذنه فيتعرض للموت!!

ويحرص ابن عثمان على زيارة البركان، وعلى زيارة بومبي Pompei التي شوقني حديثه عنها لدرجة أن ابن عثمان كان السبب الرئيس في زيارتنا الخاصة إليها... وهنا يجد الفرصة للإشادة مرة أخرى بعناية الأجانب بآثارها وإحيائها وعرضها على الناس!

ولا يتردد ابن عثمان في زيارة مصنع الأسلحة بالمدينة، وكذا مصنع الكاغد وهما معاً مادة إستراتيجية لحياة الأمة! هذا إلى دار صناعة البارود التي يقارن بعض نشاطها بما يوجد في المملكة المغربية... هذا إلى دير

الراهبات، وموسم تعويم المراكب، وحضوره أعياد المسيحيين والمؤسسات الإحسانية والمتحف الذي ركز على أهميته للتعرف على حضارة الأمم. هذا كله إلى رؤية الكهف... ومشاهدة الألعاب الدولية والوقوف على المقبرة الخاصة بالفقراء، وعلى الفنادق والعادات فيها بالنسبة للأمن وضبط سير النزلاء كل هذا مع تتبعه لنشاط الملك وإبراز دوره النشط في متابعة الأمور، وأنه، أي الملك لا يترفع عن الجلوس بجانب حراسه وجنوده وتناوله ما يتناولون حتى يشعر بما يشعرون، حتى لأخبرنا بأنه، أي الملك كان يتناول الخبز البصل على نحو ما كان الجنود يتناولون!!

ومن المهم أن نشير إلى الحدث الخطير الذي شاهده حوض البحر المتوسط حول استيلاء مملكة نابولي على سفينة مغربية محملة بالقمح كانت متوجهة إلى إيالة طرابلس.

لقد احتجت نابولي بأنها كانت في حالة حرب مع طرابلس وكانت إلى جانب هذا في حالة صلح مع المغرب... ما يعني أن على المغرب أن يحترم بنود الصلح المعقودة بيننا ولا يناصر خصومنا في طرابلس ويزودهم بالقمح!

كانت وجهة نظر ابن عثمان أن نابولي معها الحق من الناحية القانونية لكن عليها أن تراعي العلاقات الروحية التي تربط بين المغرب كبلد مسلم مع طرابلس الذي هو بلد مسلم!! نفس الحدث سيتكرر على عهد السلطان مولاي سليمان بين المملكة المغربية وبين الولايات المتحدة... الأمر الذي نرى أن الدبلوماسي المغربي ابن عثمان يعطي الحق لنابولي من الناحية القانونية، ويقول: (هو كذلك) ولكن إذ أردتم سلامة الصدور...

فافعلوا ما أرشدكم الله... وهكذا نرى أن المغرب كان يصعب عليه أن يتجاهل استنجاد إخوته وتحكيم بنود المعاهد التي كانت لا تنظر إلى جانب العلاقات الروحية[1].

الوصول إلى نابولي

متن الرحلة

... فأشرفنا على نابل وقت الصبح إذا أسفر، فاجتمعت إلينا الرفقاء والعشائر، وتهادوا أنواع السرور والبشائر، وتمادينا على المسير إلى أن قربنا من المرسى، فخرجت إلينا فلوكة فيها نصارى ومعهم علم أوقفوه في مؤخرة الفلوكة، قيل إن صاحب المرسى عادته أن يخرج للمراكب التي ترد فيستفهمها من أين أتت وعمن فيها، فدنت من المركب وسألوا الرئيس فأخبرهم بأنه حامل البشطور الذي قدم من عند مولانا أمير المؤمنين بالمغرب فرجعوا.

ثم دخلنا المرسى فإذا الساحل والأبراج والأسوار والمراكب التي بالمرسى مشحونة بالنصارى خرجوا لرؤيتنا، ولما أرسينا أتت فلوكة أخرى بعثها الطاغية فيها أحد الأعيان بقصد السلام، ويقولون: إنه من العادة أن يجعل الكرنطينة كل وارد وإن الطاغية أمر بإسقاطها عنك فرحاً بقدومك، واشتياقاً للقائل، فقد سمع بتوجهك إليه وأبطأ عليه قدومك بسبب مقامكم في مالطة، وقد أخبرني غيره أنه كان يركب بنفسه في مراكب

(1) – التاريخ الدبلوماسي للمغرب، الدكتور التازي، ج9 ص 279 – 294.

له ويخرج إلى البحر بقرب المرسى يتطلع أخبارنا، لكونهم لم يروا قبل بشطور المسلمين، ثم عرض علينا النزول إلى المدينة، فقلت له: لا يمكننا ذلك وفي غد -إن شاء الله- يكون نزولنا، فبتنا بالمركب.

ومن الغد عند الضحى وردت جماعة من الأعيان في فلوكة مزينة، وبحريتها كذلك ومعهم عدة من الفلائك لحمل الأثاث والأثقال وطلعوا إلى المركب واستأذنوا فتلقيناهم وأعادوا السلام علينا من قبل الطاغية، وأجلسناهم على كراسي كانت معدة لذلك، وقالوا: إن الدار لنزولك مهيأة نحو ستة أشهر منذ سمع الطاغية بقدومك، وقد بعثنا نائبين عنه لنرافقك إلى دارك. ثم تأهبنا وقربت الفلوكة المعينة لركوبنا فركبناها، وأخرج صاحب المركب الذي كنا به جميع ما به من المدافع وتوجهوا بنا.

فلما وصلنا الساحل وجدنا به من الأمم ما لا يحصى من أهل المدينة وممن دونها على مراحل وأكداش مصفوفة، وخدمة بها محفوفة، وخيل مسومة موقوفة على جر الأكداش ومعلمة، فقدم إلينا الكدش الذي بعث الطاغية لركوبنا، وركب في الأكداش الأخر من بقي من أصحابنا وتقدمت أمامنا طائفة من الخيل مصلتة السيوف، وكانت شعاراً لملكهم مقصوراً عليه وبه معروف، بالغ في التعظيم جهده، وتلك مرتبة لا مرتبة فوقها عنده وخرج كل من في المدينة للملاقاة فملأت أكداشهم الفضاء والطرقات، نساء ورجالاً، حتى منعنا من المسير فلم تجد الأكداش للمسير مجالاً، لولا أن تقدمت أمامنا الخيل لتفرج عن الطريق، وترد الأقوام عنا فريقاً إثر فريق، فما وصلنا دار النزول من الضحى حتى كادت الشمس تزول، فوجدنا ببابها العسكر مصفوفاً، على التعظيم والخدمة موقوفاً.

فدخلنا الدار وصعدنا إلى فوقيها، فتلقانا أحد أرباب الدولة، بعثه الطاغية فسلم ورحب وقال: إن الملك بعثني لأعيد عليك السلام بحسب النيابة عنه، والحمد لله على سلامتك وقد فرح بقدومك، وطال انتظاره إياك، والبلاد بلادك، وما فيها طريفك وتلادك.

ثم تقدم أمامنا ليرينا الدار وما اشتملت عليه، وقدم إلينا ثلاثة أطباق كبار جداً، فيها فاكهة الوقت من الأجاص والتفاح والبطيخ والدلاح وأنواع الحلاوي من عمل بلادهم وغير ذلك، وحملهم (كذا) ستة من أسارى المسلمين الذين عنده وقال: هذه هدية الملك إليك، فجازيناه خيراً، وقلت له: إن أراد الملك أن يحسن في هذه الهدية العمل فليلحق بها من حمل فذلك أدعى لسرورنا وفرحنا وحبورنا، فأعلمه بما أجبناه به فشفع الهدية بتسريح أولئك الأسارى، وكانوا أول جني اجتنيناه ابتكاراً، ثم سار معنا حتى أرانا الدار بما احتوت عليه من الفرش والبسط والآنية ويظهر بذلك اعتناء الأمير بنا وفرحه بجانب سيدنا ومولانا أمير المؤمنين، وجلس معنا هنيئة ووجهناه.

ثم ترادفت الأعيان والأكابر للسلام علينا أفواجاً أفواجاً، فرادى وأزواجاً، وامتلأت بمن دونهم الطرقات، في سائر الأوقات، وأفاض علينا الطاغية من الإنعام الشامل العام، وبعث خمسة من الأكداش إلينا، تكون عندنا بالدار مقصورة علينا، وعدة من الخيل العتاق بسروج الذهب، المبعوثة إليه على سبيل الإهداء من ملوك الآفاق، وما قصر في الإكرام وقضاء كل مرام، ومن إكرامه أن بعث الطبيب يلازم الدار في الليل والنهار بقصد علاج من أصابه ألم من مرض أو سقم.

فلما مضت ستة أيام من يوم نزولنا ومثوانا وحلولنا، بعث إلينا الوزير

بقصد ملاقاتنا معه أولاً، وتلك هي العادة عندهم فيمن يفد على ملوك الروم، أن يتلاقى أولاً مع الوزير ويعطيه نسخة من الكتاب الوارد به فيطالعه الوزير ويعلم منزلة حاملة وما ورد على شأنه، ويعلم بذلك الطاغية ليكون على بصيرة في ملاقاة الوارد عليه فينزله منزلته التي يستحق، ويقابله في الملاقاة والكلام بحسب ما يجب عليه ويحق. فتوجهنا إليه فتلقانا وأدخلنا منزله وفرح بنا، وأعطيناه نسخة الكتاب المولوي، ثم توجهنا من عنده فنقل الكتاب إلى العجمية وفهمه، وأراه الطاغية فقرؤه ثم بعث إلينا الطاغية وأعلمنا بأنه متأهب للملاقاة قبل الزوال بساعة من الغد.

فلما قرب الوقت المعين وردت الخيل من عند الطاغية لترافقنا كما تقدم من قبل واصطفوا بباب الدار، ثم أتى من بعدهم أحد الأعيان، وهو الموكل بملاقاة (الباشطريس)[1] مع الملك، فسلم علينا وقال: إن الطاغية في انتظارك، متأهب لملاقاتك، وكذلك زوجته[2] مسلمة عليك، وهي أيضاً في انتظارك بعد ملاقاتك، مع زوجها، وإن كان ليست عادة ملاقاتها، ولكن جعلت هذه الملاقاة فرحاً بك وبمرسلك سيدنا أمير المؤمنين.

فتأهبنا وقربت الأكداش فركبنا وتقدمت أمامنا الخيل مصلتي السيوف، وخرج من النصارى نساء ورجالاً في الأكداش وغيرها ما لا يحصى، فلما وصلنا باب دار الطاغية وجدنا ببابها من الخلائق أضعاف ما لاقينا، حتى لم يمكننا مسير لولا أن العسكر كان يفرج لنا. فصعدنا إلى فوقيها فإذا

(1) – القصد إلى السفراء بالجمع.

(2) – عرفنا في التمهيد أن اسمها ماريا كارولينا وقد كان لها دور مهم في تسيير الحكم إلى جانب زوجها.

الأعيان وأرباب الدولة على مراتبهم، فدخلنا القبة الأولى فوقف جميع من فيها وأزالوا الشمرير[1] عن رؤوسهم، ثم جاوزناهم إلى قبة أخرى فوجدنا فيهـا من هم أعلى مرتبة منهـم ففعلوا مثل ذلك، ثم جاوزناهم فدخلنا قبة أخـرى ففعلوا مثل ما فعل مـن قبلهم، وبقينا نخترق قبباً متعددات، كل طبقـة أعلى ممن قبلها إلى أن وصلنـا قبة كبيرة متسعة، فتقدم الذي معنا إلى قبـة أخـرى أمامها كأنه يستأذن، ثم رجع فتلقانـا في الطريق وقال: أجب الطاغيـة. فدخلت القبـة فوجدته واقفـاً على طبلة مـن الخشب مكسوة بالحريـر، وعن يمينـه طبلة لها قوائـم مرصعة بالذهب ومـن ورائه كرسي كذلك، والقبة ملأى بالوزراء والأكابـر وأرباب الدولة، فلما قابلناه أزال الشمريـر عن رأسه إشارة إلى السلام، فأشرنا إليـه بيدنا ثم دنونا منه ففعل مثـل فعلـه الأول، وفعلنا نحن كذلك، وفعل مرة ثالثـة كذلك فلما التقينا أخرجـت الكتاب المولـوي وقبلته ودفعته إليه فتلقاه بكلتـا يديه ثم سألني عـن سيدنا أمير المؤمنين، فقلت له: هو علـى أكمل الحالات لله الحمد وله المنـة، وأنت عنده ملحوظ مقدم على غيرك مـن ملوك الروم لمحبة والدك في جانبـه، فقال: ونحن كذلك لنا محبة قوية في جانبه، ولنا شره عظيم إلى مخاطبتـه وقضاء مآربه وعقد الصلح معه مثل أبينا. فقلت له: لذلك الغرض كان قدومنـا لمـا طلب لك ذلك والدك عاماً أولاً لمـا كنا عنده. فقال: هذا وزيري هو العوض عني في الكلام معك فكل ما يفعل معك فأنا راض به.

فخرجنا مـن عند الطاغية، وجماعتـه الفئة الباغية، علـى الهيئة الأولى

(1) – قبعة الرأس.

والطاغيـة واقـف على قدميه حتـى خرجنا مـن الباب فوجدنـا صناديد الكفـر صفوفاً، جـاوزت المئين بل ألوفاً، كل واحـد واقف مكانه، حاسر الرأس متأدبـاً لا يتحرك ذا استكانة. ثم قيـل: إن الملكة في انتظارك، وقد بعثـت هذا طليعة لأخبارك، فلتتقدم إليها لتفعل معك من الملاقاة ما يجب عليهـا. فعجنا إلى بابهـا، فتلقانا كبير حجابها، ودخل معنـا إلى قبة كبيرة فوجدناهـا واقفة على طبلة والقبة ملأى بنساء الأكابر والأعيان، فسلمت علينـا، وكيفيته: هو انحدارها حتـى كادت أن تجثو على ركبتيها، وهكذا يسلمن النساء عندهم، فأشـرت إليها باليد رداً لسلامها، فأعادت فأعدت ثـم أعادت فأعدت ثلاثة مرات كمـا فعل الطاغية، فلما دنونا منها قالت: مرحبـاً بك وبقدومـك، وقد طال انتظارنا إليـك، وكل ما يصعب عليك من أمورك عند الطاغية نقف لك في قضائه، فلتطب نفسك، ولا يفارقك أنسـك، فإنك لا تمر من عندنا إلا مجبـور الخاطر، محبة ألقاها لك في قلوبنا مـن هو للعالم فاطر فاستبشرنـا بقضاء المآرب، وعلمنـا أن حظنا من كأس النجـاح شارب، وأرغـم أنف كل حسود عائـب، ما بعد هـذا استلزاماً للنجاح وبياناً:

ليس الشفيع الذي يأتيك مؤتزراً

مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا[1]

فجازيناهـا خيراً على كلامها، وحسن ملقاها وسلامها. ثم توجهنا

(1) – انظر التمهيد.

من عندها على الهيئـة التي دخلنا عليها بالإشارة بالسلام ثلاثة مرات كما تقدم، فركبنا وتقدمت أمامنا الخيل مصلتي السيوف على هيئتهم الأولى، وقصدنا دارنا في ازدحام كأنه حشر هنالك أولاد حام، ركباناً ومشـاة، وبـرزوا أشتاتاً فمـا وصلنا الـدار إلا على مقـدار ثم أقبلت الأعيـان مهنئين بحسن الملاقاة مع الملك وزوجته، فذلك عندهم دليل علـى قبول البشطور وقضاء مآربه وحاجته. وبقينا هنيئة بصدد ملاقاة مـن يأتي لهذا الغرضـ، ومجازاتهـم لأنه واجب عندهـم ومفترض. ولمـا قرأ الطاغية كتـاب مولانا أمير المؤمنين وعلم مـا اشتمل عليه من توجيهنا إليـه بقصد عقد الصلح، حيث طلب له والده ذلك واشترطه في عقـد الصلح الذي عقدنـا معه، وفداء أسـارى المسلمين الذين في بلده وتحت حكمه.

فأمـا الصلح فقد شرعنا في عقد شروطه مع الوزير كما تقدم تعيينه لذلـك، وأما الأسـارى فبعث إلي ثلاثين أسـيراً مسرحين على سبيل الهديـة وقال: هـؤلاء سرحناهم إكراماً لـك في ضيافتك، وأما فداء الأسـارى الذين أشار إليهم مولانا أمير المؤمنـين فاعلم أن الأسارى الذيـن في إيالتنا كلهم من تونسـ والجزائر وطرابلس وغير ذلك من البلاد المشرقية، وما بيننا وبينهم إلا الحرب، وكذلك إخواننا عندهم أسـارى بأيديهـم، ولو لم يكن إخواننا الذيـن عندهم لسرحنا جميع مـن عندنا من المسلمين ابتغـاء خاطر مولانا أمـير المؤمنين، وحيث كان إخواننـا في الأسر نحبكم أن تسعـوا في فداء الجميع. فجازيناه خـيراً عمن سرح من الأسـارى وكاتبنا سيدنا أيـده الله بجوابه لعله

يسعى في فكاك إخوانه من الأماكن المذكورة، ويستخرج بهم هؤلاء المسلمين.

الخبر عن مدينة نابل

مدينة عظيمة جسيمة، بهية زاهية فخيمة، مصر من الأمصار، لم تر مثله النواظر والأبصار، مؤسسة على ساحل البحر الشامي[1]، وامتد طرفها من البحر أميالاً بناء فائقاً، وعملاً رائقاً، يستميل النواظر استمالاً، بما اشتملت عليه من المحاسن اشتمالاً، (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً). ومعظم المدينة اكتنفها جبلان، في ترتيب وإتقان، كأنما اجتمع على صنعه الثقلان، مثلثة الشكل والمبنى، ضخمة البناء لطيفة المعنى، قد أحكمت نشأة ووضعاً، وعذب منها الماء والمرعى، ذات العمران المستبحر، وضخامة المتجر، والمباني الشم الأنوف، وعقائل المصانع الجمة الحلي والشنوف. ومرساها بالمراكب غاب أنوف. أخبرني من رأى الديار المصرية والقسطنطينية العظمى، اللتين لم يذكر من جال في البلاد لغيرهما في العظم اسماً، أن هذه المدينة أعظم منهما عمارة وأوسع ساحة وأبهى بهجة وشارة.

أما أسواقها فلكثرة بضائعها، وغرائب صنائعها، وازدحام مشتريها وبائعيها، كأنه يوم الزينة، فكل ما يزدان به لمن يزينه، معمورة بكل ما يذكر في الوجود، وفي الأغوار والنجود، وكل ما يباع فيها من المتاع

(1) – القصد إلى البحر المتوسط.

يجعـل مكانه عوضه كأنما طرح ذلك ليرى لا ليباع، حتى يتوهم من ليس له خبرة في البلد أن أسواقها لا يشتري منها أحد!

وأمـا أسواق الطعـام فما يكون فيها يومـاً يكفي غيرها العـام آناء الليل وأطـراف النهـار، حتى يظـن من رأى ذلـك أنه أضغاث أحـلام، تسرج أسواقهـا طول الليل، فإذا مـررت بها من الازدحام شمر الذيل، فمن كثرة عمارتهـا حتى الدجاج لها جزارون مستقلون في أسواقهم منعزلون، وقد رأيت بائع الماء وقد أسرج نحو عشرة مصابيح وعلى هذا فقس.

وأقـرب ما يقـال في عمارتها، وازدحام الناس في سائـر طرقاتها، كأنما القوم حشروا وتحاسبوا وفرغوا وتناسبوا.

وأمـا ديارها فجلها بخمس طبقات وسـت إلى سبع على ما بها من بعد وشسـع. وقد ركبت ذات يوم ومررت في إحـدى جوانبها والخيل مغيرة فما جاوزناها إلا بعد ساعة، (نعني) جاوزنا البنيان المسمى نابل.

وأمـا العمارة فمتصلة لا تنقطع ولو سـار الإنسان يوماً كاملاً، كل ذلك قـرى ومداشر متصل بعضها ببعض فلا يقـدر الإنسان أن ينظر هذه المدينة ويستوعبهـا في ثلاثـة أيام ولا أربعة، وقد أخبرنا بعض أصحابنا ممن كان يتردد إليها كل يوم في قضاء المؤن أنه كان كل يوم يرى أسواقاً وأزقة لم يرها قبل. الحاصل هذه المدينة بحر من العمارة، فهي كافية وحدها للإمارة.

وهـي مدينة قديمة، قيل إنها أقدم مـن رومة، محط رحال الكفرة وزعماء الضـلال، الذين أضلوهم وأوهموهم أنهم لهـم من عذاب الله خفرة (قل مـن بيده ملكوت كل شـيء وهو يجير ولا يجار عليه). وبها مثوى رئيس الكفر الباب (الذي) يرون ما للمسيح لديه.

ومدينة نابل المذكورة كانت للقريق[1] وتداولها معهم القوط[2] وغيرهم من الأمم. وهم الذين وضعوا عليها اسم نابل في بعض دولهم لما استردوها، فلمـا نزلوها ضاقت عليهم البلد فابتنوا خارجها المدينة المذكورة وسموها نابـل، ومعناها (البلد الجديد). وكان نظر هـذه المدينة إلى البابا فهو الذي يكمـل لمن تولاها ومـن لم يوافقه ينزعـه إن قدر على نزعـه، فيغري عليه ويستنهض من يحاربه. وكان يرسم على مـن يتولاها أداء بلغة بيضاء كل سنة، إظهاراً للطاعة إلى زمن هذا الطاغية الموجود الآن، فقيل: إنه امتنع من أدائها ولم يبعثها إليه، وقال له: لست تحت يدك أنا مستقل. وبقي أمر هذه المدينـة يضطرب بين القريق وغيرهم من الأمم والمسلمين لما كانوا بصقلية، فقـد نزلت عليهـا عساكر المسلمين مـراراً إلا أنهم لم يملكوهـا إلى أن أتى نصـراني يقال له: الكنذُرجير هـو الذي انتزع من أيـدي المسلمين صقلية ومالطـة وتملك نابل وعملها، وخلص له الجميع في العشرة الثانية أو الثالثة مـن المائة الثانية عشرة مـن المسيح. وتولى بعده ولـده رُجير الثاني، وبعده ولـده كُليلم القبيح، وكان من قبحه أنه كان يأخذ أموال الناس غصباً حتى استخلص الأمـوال كلها ودفنها في بستان له وبقـي في نفسه أنه ربما بقي عنـد أحد مال متستراً به، فأركـب أحد أصحابه على فرس عتيق وأمره أن يغـير لباسـه ويطوف في البلاد فمـن ساوم منه الفرس يأتيـه به ففعل، فمر

(1) – يعني الإغريق، والعامة تعبر عنهم بكلمة الكريك، ومعلوم أنه كلما يكمكم يجمجم أو يقمقم.

(2) – القـوط: تحـدث المؤرخون عن أصلهم كثيراً بمن فيهم القوط الشرقيون، ولا سيما القوط الغربيون وهم برابرة شبه الجزيرة الإيبيريـة، يراجـع بحثنا حول مقولة ليون الإفريقي: إن زوجـة إدريس الأول كانت قوطية (يعنـي بربرية) أسلمت وسماها كنزة، بحث قدم لندوة تكريم عبد الله كنون بطنجة، دجنبر 2009م.

بولـد عجوز فساوم منه الفرس فقبض عليـه وأتى به إليه فقال له: هات ما عنـدك من المال، فأتته والدة الصبـي فتشفعت فيه فأبى فانتزع منها جميع مال ولدها وقتله!

فلمـا مـات تولى مكانه ولده كليلـم المليح فسار في قومـه بسيرة حسنة وحمـدت سيرته. فمر ذات يـوم يصطاد فتعب فنام تحـت شجرة، فقيل: إنـه قيل له في النوم احفر تحت هذه الشجرة تجد المال، فاستيقظ ورجع إلى النوم فأعيد عليه القول فاستيقظ فحفر فوجد كنزاً عظيماً وأمولاً لا تحصى، واستخرجه وبنى به كنيسة عظيمة في جزيرة صقلية، يأتي خبرها -إن شاء الله- وعين لهـا رهباناً يقومون بها وحبس عليهـم المال المذكور، وبقيت هذه المملكة في عقبهم زماناً. ثم أخذها لنبرطور دي لمانية ثم الفرانصيص ثـم الصبنيول، وغيرهم مـن الأجناس (وتلك الأيـام نداولها بين الناس). حتـى انتهى أمرها آخراً للأسبنيول، انتزعها مـن يد الفرانصيص ملك من ملوكهـم يقال له: فرناند كاطلك، ومعنى الكاطلك هو المطهر، أي الذي طهر بلاده من غير أهل دينه، لعلهم يشيرون بذلك إلى أنه هو الذي أخرج المسلمين من غرناطـة... وهم آخر من بقي في الأندلس. وصار لقباً لكل مـن ملك إسبانيـة إلى الآن. ولما مات هذا العدو تولـت مكانه ابنته جوانة وأمهـا إيزابيل ثم ولدها كارلوس كِنـط النبرطور الذي كان حرك للجزائر في البحر ونزل إلى البر وابتنى البرج عليها وشرع في هدها فدمره الله تعالى وهزمـه ورجع مفلولاً. وتوجه في سفرته تلـك إلى تونس فملك الحلقة[1]

(1) - يعني حلق الوادي.

وبقيت بأيدي النصارى نحو خمسين عاماً، فانتزعها المسلمون منم في خبر طويل.

وتولى بعده فلب سكوند، ثم ولده فلب طرسير ثم فلب كوارط، أي الرابع، ثم كارلوس سكوند ومات عن غير عقب، وكانت له أختان، واحدة عند لنبطور والأخرى عند طاغية الفرانصيص، فكان لأخته التي عند لنبطور ولد، وكان لأخته التي عند الفرانصيص ولد يقال له (دلفين)، فنهض ولد لنبرطور يطلب ملك خاله ودلفين ولد الفرنصيص كانت متعينة عليه مملكة فرانصية بعد أبيه فلم يمكن له الكلام في غيرها، فقام ولده يقال له فلب كنط فنهض يطلب ملك أبيه، ودامت الحرب بينهما ثماني عشرة سنة، وفي خلالها واشتغالهم في الحرب التي بينهم انساب ملك سردانية، اسمه بكتر أمداي فتملك صقلية واستخلصها وسار فيها بسيرة حسنة ولا زال أهلها يتذكرونه إلى الآن.

ونرجع إلى التعريف بهذا الطاغية فنقول: صفته أبيض، طويل، أزرق العينين، أصهب الشعر، حتى شعر حاجبيه وأشفار عينيه، عمره إحدى وثلاثون سنة، اسمه فرناند الرابع. وزوجته أخت لنبرطور دي لمانية، والطاغية المذكور فرانصيصي الأصل، إصبليوني الدار، نابولي المنشأ، وهو ولد ملك إسبانية كارلوس الثالث. وسبب توليته مملكة نابل وصقلية هو أنه مات كارلوس سكوند المتقدم ولم يترك عقباً إلا أختين: واحدة لنبطور، والأخرى عند الفرانصيص، ودامت الحرب بين ولدي الأختين كما تقدم ثماني عشرة سنة، فبقيت إسبانية تحت حكم فليب كنط ولد الأخت التي عند الفرانصيص، ونابل أخذها لنبرطور وصقلية أخذها بكتر أمداي

طاغيــة سردانية في خلال مدة الحرب. ثم إن فليب كنط كان له أولاد كان يتعــين ملــك إسبانية من بعده على أحدهم اسمــه فرناند فبقي بصدد ذلك وجهز عدداً كثيراً مــن مراكب الحرب قيل نحو الثمانين، وبعثها مع ولده كارلوس الثالث ملك إسبانية الآن وأمره بمحاربة نابل وصقلية، فإن فتحها فهــو ملكها. فتوجــه فحاصر صقليــة وانتزعها من يد بكــتر أمداي ملك سردانيــة وصبية وحاصــر نابل فاستخلصها من يــد لنبرطور ودخلت بلاد نابل وعملها وصقلية تحت حكمه، وأسلمها له والده على جهة الاستبداد والاستقلال فكان ملكاً بها.

ولما مــات أبوه فلب كنط، ملــك إسبانية، تولى بعــده فرناند، ولما مات فرنانــد ولم يــترك عقباً يرث ملكه تعــين ملك إسبانية علــى أخيه كارلوس ملك نابل المذكور، فوردت عليه المراكب من إسبانية لحمله وكان له أولاد أكبرهم كارلوس أصحبه معه لأنــه يتعين عليه ملك إسبانية من بعد والده، ثم ولد آخر معتوه لا يصلح للولاية، فولى ولده فرناند الطاغية الآن، وكان صغيراً عمــره إحدى عشرة سنة وترك معه أناساً كبــاراً يباشرون له الأمور لصغره، وأوصى إذا بلغ ثماني عشرة سنة يتولى أمره.

هــذا ما علق بحفظــي من أمرها، بل وملوكها، وقــد كنت جلبت ذلك مبسوطاً بأوفى عبارة من هذا في المبيضة التي تلفت، وإن كان ليس في تتبع ذكــر ملوكهم كبير فائدة، ولا طرفــة في الأخبار زائدة، لكن معرفة الشيء خير مــن جهله، ولذلك مزية عنــد أهله، وأقرب فائــدة في ذلك الاعتبار بمــن مضى من دول الأزمــان والإعصار، ذوي الجنــود والأنصار، وتفاني الأعمار، وتداول الدول، فيتذكر العاقل الذي وفقه الله تعالى أن ليس على

شيء من هذه الدنيا معول.

ومـن حضارة هذه المدينة وفـراغ أهلها دار كبيرة يجتمـع فيها الأعيان والأكابـر كل ليلة بقصـد التآنس والمحادثة، فقلت: مـن رب هذه الدار؟ فقالـوا: ليـس لها مالك معـين، مميز مبـين، وإنما هي وليجة لـكل مهدار مشقشق هتار، وذلك أن كل واحد من الأكابر، رجالاً ونساء، يعطي قدراً معلومـاً كل سنة ولهم وكيـل معين منهم يجمع ذلـك ويصرفه على الدار المذكورة في فرشها وكراسيها والشمع الموقد بها كل ليلة وتهيئ ما يشرب مـن الأشربة والحلاوات لكل من يـرد عليها كل ليلة، وهم بالخيار من أراد أن يأت إليها فليأت، ومن كان عنده عذر أو حاجة فلا يلزمه الإتيان.

وقـد استدعانا ذات يوم هؤلاء الأكابـر لرؤية دارهـم المذكورة، فما أمكن إلا إسعافهـم وإجابتهم جبراً وتأليفاً للقلـوب، الذي هو في حق كل غريب بل وغـيره متعين ومطلوب. فتوجهنـا إليهم بعد العشاء، فمـا وصلنا الدار وجدنـا ببابها جماعة مـن أعيانهم واقفين بقصد الملاقـاة وجمعاً كبيراً من الخدمة بأيديهم شمع كبير كثير ففرحـوا وأدوا ترحيباً وانشراحاً، وأدخلونا فصعدنا إلى فوقي الدار فوجدنا معمـوراً بالأعيان والأكابر، نساء ورجالاً، وقد أوقدوا من الشمع في منارات البلور ما استنارت به الدار كلها، وقاموا جميعاً إجلالاً وتعظيماً، وأرونا جميع ما احتوت عليه من القبب والمقاعد، ذات المراقـي والمصاعـد، المشرفات على المرائي والمشاهـد، ثم مالوا بنا إلى كراسٍ نصبوهـا وأتونا بأنـواع الأشربة المعقـودة على الثلـج، وحلاوات قدموها وقربوها ولزم كل واحد من القوم مكانه في هيئة واستكانة، وطاف الخدمة بتلك الكؤوس على جميع من في تلك الدار من الرئيس والمرؤوس.

ثــم برز أهــل الموسيقى والطرب، وصعــدوا فوق الرتــب، وأخذوا في نقر الأوتار، وخلع العذار، ووصف كؤوس العقار، وأطرحوا الحشمة والوقار، نســاء وولدناً، اتخذناهن أخذاناً والولدان قد خصــوا لتبقى أصواتهم عند الغناء رقيقــة، مستحسنة أنيقة، تشاكل أصوات النسوان في كل أوان، وهم يمكنون أنفسهم من الخصي باختيارهم لاحتياجهم وافتقارهم، فيتواصلون بالغنــاء إلى الغنى، لأن لهم على ذلك جعالة وافرة معروفة، وهمم القوم إلى سماعهم مصروفة، وقد قيل إن النساء يملن إلى هؤلاء الأخصياء بسبب التهمة التــي بعدت، والأمن من ظهور حمل مع بلوغهــا ما أضمرت ووجدت - قبحهــم الله وقبــح حالهم وقلل أمثالهــم- وبقينا معهم حتــى تأملنا ناديهم وجمعهــم، ورأينا ما هم عليــه من عدم الغيرة، وجنود إبليس بما تريد عليهم مغــيرة، جمعتهم رجالاً ونســاء، كبيرة وصغيرة، قد شربــوا وطربوا فرفعوا العقــيرة، كأنهم تيوس في الحظيرة. فلما رأيــت القوم قد خبثت أنفاسهم بما انطوت عليه منهم السريرة، ومفهومه عاقبة هذه السيرة، لا سيما ونفوسهم لهواها أسـيرة، فلبثت معهم قليلاً، وأزمعت تحولاً عنهم ورحيلاً، وتركتهم والشيطــان قد أوثقهم بأشطان. وقلت لهم: إننا قــد بلغنا بفرحكم بنا غاية الســرور والآمال، في الأقوال والأعمــال، إلا أن النوم قد استمال فأحب أن أروح، فالأجفــان إلى الكرى ميــل وجنوح فنهض جميــع من في المجلس لتشييعنا وخرجوا متبعين لنــا إلى الباب لتوديعنا، وتركناهم على حالهم ولم ندرِ منتهى مآلهم!

ومــن حضارة هــذه المدينــة أن الطاغيــة عمــد إلى موضع بشاطــئ البحر مستطيــل مقابل للمراكب والأساطيل، فسوى أرضه، طوله وعرضه، وجعل

بـه أقواساً من الخشب صفوفاً جاوزت ألوفاً[1]، وغرس معها نوعاً من النبات مثـل النبات المسمـى باللواية، فكسى الخشب اخضـراره الناضر، وصار قيداً لكل مبصـر وناظر، وأحاطت به شبابيك الحديـد الغريبة المثال، وقنوات الماء المشتمـلات علـى كل صـورة وتمثال، وعلق بهـا من المصابيـح مئين عديدة في ترتيـب وصفـوف مستطيلة مديدة، تسـرج زمن المصيف الليـل كله إلى الصبـاح، ويدخل على ذلك المكان كل من أراد من الأكابر التردد والانبساط والارتيـاح، وبوسطـه قبة من الخشـب لها مقعد مشرف علـى ذلك البراج، فيقعد فيه أصحاب الموسيقى والغناء ليراهم جميع من يكون هنالك، وبوسطه صهريـج كبير فيه عـدة صور من الآدميين وغيرهم ترمـي بالماء على أشكال. وبطـرف الموضع المذكور داران فيهما أنواع المآكل والمشارب. فكل من أراد من القوم الذيـن يكونون بذلك المكان أكلاً أو شرباً يدخل إلى الدار المذكورة ويجـد فيها كل ما يريد، ويعطي كل ما هو معـين. ولهذا المكان حراس ببابه وبه العسكر واقف لا يترك أحداً يدخل إليه إلا إذا كان من الأكابر.

وقد بعث إلينا الطاغية ذات يوم وقال: إنه يريد التوجه إلى ذلك الموضع، ويجـب أن تأتي لـتراه بمحضره. فلمـا صلينا العشاء ركبنـا وتوجهنا إليه، فلمـا وصلنا الباب وجدنا به العسكر فنزلنـا ودخلناه راجلين، ولا يدخل هـذا الموضع أحد راكباً الطاغية فمن دونـه، وإنما يتردد الناس هنالك على أرجلهم لكيلا تفسد أرضه عجلات الأكداش وسنابك الخيل.

(1) -- تذكـر الأستـاذة سارنيلي أن المنتزه المتحدث عنه هو منتزه البلديـة Villa communale في الوقت الحاضر، وأن هذه الحديقة فتحت للجمهور قبيل وصول السفير ابن عثمان، تراجع محاضرة الأستاذ في مكناس.

ولما دخلنا تلاقينا مع الطاغية، فوجدناه ماشياً على رجليه مع خاصته فوقف معنا وسلمنا عليه وشكرنا له فعله ذلك، وقال: أنا أحدثت هذا المكان لقومي يستريحون فيه زمن المصيف، وأنا أصرف عليه من عندي وإني لا زلت أزيد فيه ما أمكن من الزينة والترفيه، وأكسب هذه المدينة الحظ الأوفر من الرفاهية وأوفيه.

وترددنا مع الطاغية هنالك مراراً، ودخلنا الدار المعدة للأكل بقصد رؤيتها فبادر كبراؤها إلى كراسي فنصبوها، ظناً منهم بأننا دخلنا بقصد شرب أو أكل، فقلت لهم: إنما دخلنا بقصد الرؤية، ثم مررنا بأصحاب الموسيقى، الذين في المكان المرتقى فوقفنا حتى سمعنا غناءهم وألحانهم، ثم ودعنا الطاغية وتوجهنا إلى منزلنا. ولو ترى هذا المكان من موضع مشرف عليه لقلت نجوم السماء تمثلت في صفحات الماء كل حسن في البسيطة فمنه مجلوب، وإن شئت قل سماء مقلوبة، مرآة الناظر يغني النواظر، والطاغية يصرف على جميع ما يلزم ذلك المكان من المصابيح والزيت والخدمة وأجرة أهل الموسيقى وغير ذلك من عنده، موسعاً على رعيته من رفده ليبقى ذلك تذكرة من بعده، لكنهم سلكوا مع طريق معوج بنظر عليل سقيم، (والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم).

وقد استدعانا الطاغية ذات يوم لرؤية فرجة يستعملها يسمونها الوبرة[1] وهي التي يسميها الإصبنيول الكمدية[2]، فبعث إلينا مع أحد خاصته يعلمنا

(1) – يقصد على الأوبيرا OPERA وقد أفادتنا د. سارنيلي باسم هذا المسرح SAN CARLO.
(2) – COME DIA.

بذلك وبعث مفتاحين لمقعدين من الدار التي يكون بها ذلك اللعب. وبين العشاءين ورد رسول الطاغية وقال: إن الطاغية يريد أن يتوجه إلى رؤية الفرجة ويجب أن تتقدم أمامه.

فركبنا الأكداش وتوجهنا فلما وصلنا الدار تلقانا أهلها بالباب بشمع كثير بأيديهم، وتقدم أمامنا كبيرهم حتى أوصلنا إلى المقاعد المعينة لنا، فوجدناها مفروشة مشرفة على دار كبيرة مسقفة كلها والمقاعد مشرفات عليها على سبع طبقات، بصفوف متناسبة متناسقات، وبراح الدار جعلوا فيه كراسي على صفوف، والدار معمورة مغمورة بالنصارى سفليها وعلويها والجميع بالكراء، فللمقاعد المشرفات كراء معلوم والكراسي التي بالبراح كذلك. وقد أوقدوا فيها من الشمع على عدد طبقاتها مئن عديدة في ترتيب عجيب، وفي إحدى زوايا الدار براح متسع مرتفع عن الأرض بنحو نصف قامة مفروش بالخشب، هو موضع اللعب والفرجة، وقد أرخوا عليه ساتراً حائلاً بينه وبين من في الدار. فما جلسنا إلا هنيئة حتى ارتجت الدار نساء ورجالاً، وقالوا: الطاغية قد أقبل. فقاموا إجلالاً فأشرف من مقعده ورجع الناس إلى أماكنهم. ثم أخذ أهل الموسيقى في استعمالها ورفع ذلك الساتر وظهرت دار مشيدة طويلة مديدة لها مقاعد وقبب ومساطب ورتب، وخرج أناس من زواياها نساء ورجالاً قد لبسوا فاخر الثياب، وتقدمت فتاة فافتتحت الغناء مع رجل مناوبة فأتوا بالإعجاب والإغراب، ثم أرخى ذلك الساتر وبقوا هنيئة، وصفر صافر فرفع أيضاً وظهرت دار أخرى على شكل آخر، وخرج أناس آخرون فلعبوا وغنوا ورقصوا نساء ورجالاً، وبقوا كذلك كلما لعبوا أرخوا ذلك الساتر فيصفر الصافر ويرفع فيكشف عن أشكال

وبنايات مغايرات لما تقدم، وكل ذلك إنما هو تخيلات ما عدا الآدميين فهم حقيقة. ولو ترى إذ يصنعون البحر ويستعملون الحرب فتأتي المراكب في البحر والخيل مغيرة في البر لرأيت العجب المبين. وقد ترددنا إلى هذه الديار مراراً حيث كان يتوجه إليها الطاغية ويبعث إلينا، وكلما مررنا إليها هيأ لنا الأشربة والحلاوي على سبيل الإكرام، والعمل في تلك الدار واحد إلا ما كان من اللعب فيختلف باختلاف أصحابه.

ومما يدل على عظم هذه المدينة وكثرة عمارتها أن بعض سكانها في طرفيها تصعب عليهم الطريق فيركبون في الزوارق من طرف المدينة إلى الطرف الآخر، ومهما نظرت في البحر تجد فيه ما ينيف على مائة زورق على وجه الماء من غير ما هو في الساحل من كل جهة.

وقد استدعانا ذات ليلة أحد الوزراء إلى داره بقصد الإكرام وأحضر جميع الوزراء الأكابر العظام. فلما كان بعد العشاء توجهنا إليه فتلقانا ببابه مع جماعة من خاصة الطاغية وحجابه، وصعد بنا إلى قبة كبيرة أعدها لذلك الجمع قد كساها بأنواع الديباج، وأوقد بها من الشمع ثريات البلور، فلبوارقة في جوانبها لمع، وهيأ لنا مكاناً سوياً، ووضع فيه لجلوسنا كرسياً، ثم أحذ ذلك الوزير شيئاً من الحلاوي كثيراً، تناوله ذلك الجمع الغفير، مبدول لمن أراد حتى لمن في الأزقة بلا منع، فاستكفى القوم وبقي الخدمة بآنيتهم في خلل الصفوف تجوس، معرضين بالكؤوس، وكل القوم قد استكفى بما أكثر هذا الوزير من الإكرام ووفى، ثم أتى أحد الخدمة بكنانيش[1] فرقها على جميع

(1) – القصد إلى برنامج الاحتفال.

مـن في القبة وفق عددهم وزنة لودهم، وأعطانا واحداً من جملة القوم لكيلا يتوجه إليه عتب أو لوم لأنه مكتوب بالعجمية، فأعطيته الترجمان وسألته عما في هـذه الكنانيش التي نمقت، ولم نشرت علـى أهل المجلس وفرقت؟ فقال: أمـا ما فيها فغناء وحكايات عشق فيها تعب وعنـاء، وأما تفريقها فليعلم كل واحد ما يغنى به من الألحان، في الوقت الذي قرب وحان.

ثـم رفع حجـاب وفتح باب وبـرزت فتاة مـن خدرها تتأبـى في حلة بيضـاء كهالة حاطت ببدرها، ثم عرجت إلى معـارج في الصدر وطلعت فيهـا بازغة كالبدر[1] فأشرك مـن ذلك النفر جمع كبير وكفر! وتضوع في ذلـك المجلس عرفها ونشرها ونشرت أوراق الغناء فتوالى فتحها ونشرها، وأعقـب لفها نشرها، وقربت إليها آلـة من مزامر داود يسمونها الآربة[2]، ذات أوتـار لها ألحان محركة مطرقـة فأخذت في استعمالها ونقرها بما حل من النفوس الآبية عقـد صبرها، ثم وقف بإزائها صبي خصي حي فجعلا يغنيان بأصوات وألحان أنيقة، وأحوال لطيفة رقيقة، فالصبي يحكي حال عاشق متيم سقيم، والفتاة تحكـي[3] حال المعشوق الذي هو منحرف عن صاحبـه غير مستقيم، وما بين ذلك من الشكوى عند المسامرة والنجوى، حتى استمالت النفوس، وصارت طلائع كتائب محاسنها في خلال الأفئدة تجوس، وهدأت الأصوات والقـوم أحياء في حيز الأمـوات، كأنما الطير منهم على الرؤوس! فلا يتكلمون إلا رمزاً أو إشارة بحاجب أو غمزاً، فإن

(1) – كانت الفتاة ابنة للوزير كما سيقول ابن عثمان

(2) – أنظر التمهيد الذي قدمناه (Ba HARPA).

(3) – عجيب ألا تتحدث الزميلة عن هذه الشهرة في منزل الوزير!

نقــرت آلة تشبه العود أنستك مزامر داود، وإن غنت بلا آلة بفيها، أنستك الدنيــا بمــا فيها، تحفة من تحــف الزمن، لا هي في الشــام ولا في اليمن! لا شيء يعادلها في الدنيا ولا يكافيها، فإذا مشت الهوينى فضحت فيما صنع ردينــا[1]، وإذا افترت باسمة، كانت للقلوب قاسمة، وإذا نظرت بلحاظها شزراً، تركت القلوب متألمة حسراً، فإذا أقبلت قتلت، وإذا ولت استوطنت القلوب وحلت، بعدما أضلت العقول والأحلام وأزلت، فلما استكملت ما أتــت به من الغناء والطرب الذي من وراء العجب، وقعدت تستريح مما نالهــا من التعب. أخذ القوم في محاسنها يتحدثون، ويتناجون ويتخافتون، كل إنســان مع جليسه ونديمه وأنيسه، مــع انعقاد الاتفاق والإجماع على أن لم تــر مثلها النواظر والأسماع، وأذعن إليها الحسان اللواتي ذكرهن في الدنيا مشاع، أقر الخصم فارتفع النزاع! ولعل متطلعاً يقف على ما رسمناه فيتعرض، ويقــول إن هذا الواصف يتشخص المحال ويفترض، أقول مجيباً له حيث لم يكن بنظره هنالك مبصر:

ولو أبصروا ليلى أقروا بحسنها

وقالوا بأني في الثناء مقصر!!

فلمــا رأيت أمرها عجباً، واتخذت استرقاق مبصرها مذهباً، طلبت نجاة من شركها ومهربا:

هما خطتا خسف نجاتك منهما

ركوبك حولياً من الثلج أشهب

(1) - الرمح المنسوب إلى رُدينة (مقومة الرمّاح).

فخشيت أن أكون ممن جنى بصره على قلبه، فيعاقب البريء بذنب غيره، ورأينا الليل قد مضى شطره، ونفوس القوم مصروفة تجاه ذلك الغزال الغرير بقبلتهم شطره لا يستطيعون مفارقة ذات الدلال والظرف، وأن القوم ممنوعون من الصرف، للعجمة والتأنيث في الوصف، هممت أن أسحر قبل أن نسحر، وأن أروح سليماً قبل أن نكون سُليماً، وألا أكون لها كليماً فأصير بلحاظها كليماً ويرحم الله الحريري حيث يقول:

فتبصر ولا تشم كل برق
رب برق فيه صواعق حين
فبلاء الفتى اتباع هوى النفس
وبذر الهوى طموح العين
واغضض الطرف تسترح من غرام
تكتسي فيه ثوب ذل وشين

وقلت في ذلك أبياتاً نفث بها القلم، خشية الوقوع في الجوى والألم:

غزال يدّري الألباب سحراً
بلحاظ سقام كي يصيد
بنابل قد ثوى، بل كل جسم
له في قلبه رسم جديد
إذا أبصرته فاحذر هواه
بمقلته له بطش شديد
فكل القوم أسرى في لحاظ
بأشفار لها منها قيود

مــراض قد سفكن دم البرايا
تحكم في الأنـــام كما تريد

وقلت أيضاً فيما يناسب الحال:

رأيـــتـــهـــا وطـــفـــا[1] بـدت
في مـــجـــلـــس بـــنـــابـــل
بـــولـــع بـلـحـظـهـا
أردت بـــســـحـــر بـــابـــل
وعـــامـــل مـــن قـــدهـا
دوت قـــنـــاة الـــدابـــل
أصـبـت أخـــا الـنـهـى الـذكـــ
ـــي الألمـــعـــي الـــنـــابـــل
وأدهـــشـــت ذا غـــزل
بـحـسـنـهـا مـقـابـل
فـــلـــم يـــجـــد لـنـسـجـه
مـــن حـــابـــل أو نـــابـــل
ثـــم انـــثـــنـــى تـــحـــسراً
مـــن دمـــعـــه بـــوابـــل
كـــم أدارهـــا فـــارس
بـــرمـــحـــه أو نـــابـــل

(1) – الوطفاء: كثيرة شعر الحاجبين والأشعار.

وطـــالمـــا قــــد نـصـبـت
حـــبـــالـــه لـــلـــحـــابـــل
فـــمـــا انـــثـــنـــوا مـــن صيدها
بـــطـــائـــل أو نـــائـــل

ثـم أزمعت على الانتقـال، قبل الوقوع في حبائل الهـوى والاعتقال! وطلبـت مـن الوزير في الـرواح إسعافنـا، فقال: قد رمت في هـذه الليلة إجحافنـا، فألححت عليه فأجابنا، وقامت ابنته التـي كانت تغني لتشييعنا مع أهـل المجلس فشمرنا للمسير عنهم الذيـل، وتركناهم مستمرين على عملهم بقية الليل!!

ومـن حضارة هـذه المدينة أننا دخلنا ذات يـوم إلى دار كبيرة ذات قبب ومخـازن عديـدة يسمونها البنك ولها مـال موقوف عليهـا، وعليها أمناء ووكلاء فمن أراد أن يستلف مالاً فليأت بالرهن ويضعه في الدار المذكورة ويأخـذ المال، فإن كان مـن عشرة مثاقيل فأقل فليـأت بالرهن الذي قيمته عشرة مثاقيل ولا يلزمه شيء وحين يرد الدراهم يأخذ الرهن. وإن كن أكثر مـن ذلك فإنه يلزمه عليه إعطاء خمسة عن كل مائة في السنة ويدفع الرهن الـذي تكون قيمة مقدار ما أخذ من المـال بفائدته الواجبة فيه عن عامين، فـإن أتى بالمال في خلال المـدة فبها ونعمت، وإن مضـت سنتان ولم يأت بالمال فإن الرهن يباع ويقبض المال وفائدته فإن فضل شيء يدفع إلى ربه.

ولما وصلنا تلقانا كبيرها بالباب وأدخلنا وأراناها قبة قبة، ففي بعض قببها السـلاح فقط، وبعضهـا فيه أواني الفضة، وبعضها فيـه الحلي من الذهب وكل نـوع على حدتـه، وفتح خزانة صغيرة فيها أنـواع الأحجار النفيس

المنضـد في الخواتم والأقراط وغير ذلـك من زمرد وروبي، ويمنط والجميع هنالـك مرهون، وكل حاجـة مكتوب في بطاقة معها اسـم صاحبها. ثم مـر بنا إلى ناحية أخـرى من الدار وفتح قببها فإذا فيهـا أنواع الملبوس من الملف، والحريـر والفرش والبسط ما ملأ تلك القبـب إلى سقفها والجميع أيضاً مرهون.

وفي هـذه الدار من الكتاب والقائمين بأمورهـا والخدمة مائتان، وفيها رجـلان أحدهما عـارف بأنواع الملبوس ومقدار قيمتـه، وآخر عارف بالفضـة والذهـب والأحجار والسلاح وتفـاوت قيمتها، فـإذا أتى أحد بحاجـة يرهنها فـإذا كانت من الملبوس فالعارف بذلـك ينظرها ويقدر قيمتهـا باعتبـار الفائدة ويعطيه مقـدار ذلـك وإن كان الرهن من الذهب والفضة والأحجـار والسلاح ينظره العارف الآخر ويقـدر قيمته باعتبار الفائدة، فإذا مضت سنتان ولم يظهر المرتهن فإن رهنه يباع عليه، فإن فضل لـه شيء يأخذه المرتهن، وإن لم يوف الرهـن بما رهن فيه فإن أحد العارفين يكمل ما نقص.

ومـن أراد أن يضع ماله على وجه الأمانـة والصون بالدار المذكورة فإنه يضعـه ولا يلزمه عليه شيء ويعطونه خطوط أيديهم بأن فلاناً وضع بالدار المذكورة مالاً قدره كذا على وجه الصون والحفظ، وحين يريد أخذه يدفع الكاغـد[1] ويأخذه. وقد سألتهم كم بهـذه الدار من المال الذي هو بصدد القرض فقيل مليون ونصف.

(1) - القصد إلى التوصيل.

وبهذه المدينة سبع ديار مثل هذه وقد أخبرني بعضهم أنه لما أحدثت هذه الديـار كان مالها ضعيفاً فكانـوا إذا رأوا من يتنازع في مال أو عقار وغير ذلـك فإنهم ينتزعونه من يد المتنازعـين وتستغله الدار فإذا كان مالاً تعطيه للناس بالفائدة وتأخذ ربحه، وإذا كان عقاراً تأخذ غلته حتى يثبت لأحد الخصمين ويعطونه رأس ماله فقط حتى كثر بذلك مالها وتركوا هذا الأمر.

ومـن غريب ما رأينا بهذه المدينة الفيل، ورد على الطاغية من بلاد الهند فرأينا منه آية من آيات الله تعالى صفته: أغبر اللون، عظيم الجرم كأن أرجله أعمـدة من بنـاء السواري، وأذنيـه لكبرهما بلغة الوقت شـواري[1]، وله خرطـوم طويل تجاوز فاه بنحـو أربعة أذرع وبه يتنـاول الطعام والشراب وبـه يصول، وأكله الخبز والشعير والأرز ويحب الحلاوة، فقد أتوه بشعير في قصعـة وخلطوا معه السكـر ووضعوه أمامه فجعـل يضمه بخرطومه ويضعـه في فيه حتى جمع الشعير كله ولم يـترك منه شيئاً كأنما جمع باليد، ثم أتاه بالخبز فكسره لـه وجعل عليه أيضاً السكر وجعل يناوله إياه فيلوي عليـه خرطومه وبضعـه في فيه فهو يتناول بذلك الخرطـوم الخشن واللين بسهولة كما يتناول الإنسان بيده، ويشرب الخمر فقد أتاه صاحبه بآنية من الزجاج مملوءة خمراً بعفاصها ووضعها أمامه فلوى عليها الخرطوم ونزع العفاصـ، وما أدري كيف فعـل! وصبها في حلقـة ووضعها في الأرض كما كانت، وله إدراك كبير فقد تكلم معه بالعجمية وفهم ما قال له، فقال لـه: ابرك فبرك ثـم ركب على قفاه وقـال له: قم، فقام فارتفـع في الهواء

(1) – ما يجعل على ظهر الدابة لحمل الحنطة مثلاً.

وبقيت أفكر إن لم يبرك به فما الحيلة في نزوله والدواء؟ وقد أصحب معه خبزاً وقال له خذ الخبز بالعجمية، فقلب إليه خرطومه فوق رأسه وأعطاه الخبز فلواه عليه ووضعه في فيه ورده إليه بسرعة فأعطاه خبزاً آخر وفعل ذلك مراراً ثم قال له: ابرك، فبرك ونزل ثم قرب له ست قبب مملوءة ماء فأدخل خرطومه، ثم أدخله في حلقه وصبه فيه فسمع له دوي كدوي القربة العظيمة. وقال له بالعجمية أيضاً هات يدك فرفعها إليه، وله عواء عظيم فإن لهذا القيم الذي يباشره حربة يوغلها فيه ليزجره بها فهو يتقيه من أجلها، وقد أخبرني أنه إذا اشتد غضبه لا يبالي بذلك كله فقد ذكر أنه يخرجه مرة في السنة يسير به في أطراف البلد لكي لا يتضرر من عدم الحركة. وقد أخرجه في بعض السنين على عادته فلقي كدشياً راكباً فيه صاحبه والخيل تجد به فما شعر به حتى لوى خرطومه على الكدش وكسره وقتل الخيل وما نجا صاحب الكدش إلا بمشقة!! وقد أخبرني صاحب الفيل المذكور أن الفيل مع هذه العظمة والقوة يظل ويبيت يحرسه من الفأر، فإنه يخاف منه خوفاً شديداً وإن دخل في أذنه ربما يموت فانظر إلى حكمة الله تعالى وقدرته وقهره فهذا الحيوان من أعظم المخلوقات وأشدها عداء قهره بأضعف المخلوقات وهو الفأر، وقد ذكرني هذا فيما حكي عن بعض الملوك أنه دعا بعض العلماء أظنه الشافعي -رضي الله عنه- أراد أن يعجزه فسأله عن حكمة الله تعالى في خلق الذباب فرأى ذباباً على رأس الملك فاستحضر الجواب من الحالة الراهنة، وقال له: خلقه الله تعالى لذل الجبابرة، فإن المتجبر يتجبر ويطغى ويتعجب في نفسه وينزل عليه الذباب ولا يقدر أن يمنع نفسه فسبحان القادر القاهر!

ومن غريب ما رأينا بهذه المدينة الجبل[1] الذي في قبلتها بينهما نحو ساعتين بالسير الحثيث، يخرج من قنته دخان دائماً كأنه فرن الجير وفي بعض الأحيان تخرج نار، أما الدخان فعلى الدوام والاستمرار فقد توجهنا بقصد رؤيته ذات يوم ورمنا أن نصعد إلى إعلان، قيل لنا إن في ذلك صعوبة كثيرة لأن ظهر الجبل بما ترمي النار عليه من الحجارة التي أكلتها النار لا يستقر به قدم، فمهما تخطى الإنسان برجله أمام رجعت إلى وراء، وقالوا أن له خبيراً يربط وسطه بحزام أو ما أشبه ذلك ويقبض فيه من يريد الصعود إلى أعلى الجبل ويقتفي أثره في مسالك متشعبة، وطرق متعبة، إلى أن ينتهي به إلى أعلاه، وفي ذلك مشقة عظيمة وكان فصل المصيف وقالوا ليس إلا ما ترى، فقد ورد بعض رجال الإنجليز الذين يطوفون في البلاد وارتكب هذه المشقة وصعد إلى أعلى الجبل فأشرف من قنته على النار التي تخرج منه فالتهبته وخطفته إلى محنته، وألحقته بالهاوية لساعته. وقد رأينا بإزاء الجبل المذكور جبلاً آخر على مثاله قيل إنه لم يكن هنالك وإنما صار بما ترمي النار من التراب والحجارة.

وقد أرونا أمام الجبل المذكور في قبلته أثر مدينة كانت هنالك قديمة يقال لها بنبيانه[2]، كانت قبل زمن المسيح ذات عمارة وتجارة، فسلط الله عليهم هذه النار فرمت عليهم أول مرة رماداً فصبروا له وتعللوا بانكشافه، ثم تبعته حجارة صغيرة قد أكلتها النار فثبتوا، فما شعروا حتى تفجر الجبل من

(1) – VESUVIO.

(2) – القصد إلى POMPEI وقد أتيحت لي الفرصة لزيارتها مع ابنتي سلمى

أسفله بالنار وأتت مثل الوادي حطمت كلما لاقته من الأجنة والفدادين والحجارة وقلبته على المدينة وغطتها وغطت أهلها كأنهم في رمس، ومحت آثارهم ونبت الكلأ عليها وصارت كأن لم تغن بالأمس، ولذلك ما ينيف على سبع عشرة مائة سنة.

وبعد أن مضت من الدهر أحقاب، وانقرضت أجيال وأعقاب، اطلعوا على هذه المدينة فجعلوا يحفرون عليها ويطهرون آثارها، فقد دخلنا إليها ورأينا عدة من ديارها وكنائسها وأسواقها، وبنيانهم فائق، ولهم زواق رائق، فقد رأينا عدة من جدرانها مساكنها مزوقة ولها تحت التراب هذه المدة المديدة، وحين يصب عليه الماء يعود إلى إشراقته فيرى الإنسان وجهه، وقد رأيت بإحدى جدرانها صورة حية عظيمة وعند رأسها أثر موضع المصباح، فقيل: إنهم كانوا مجوساً يعبدون تلك الحية. وقد دخلت إلى بعض دورها فوجدت بها عدة قدور بها عظام الآدميين محرقة، فقال لي القيم على هذه المدينة: إن أهلها الأولين كانوا يحرقون موتاهم ويجمعون عظام كل واحد في قدر، ثم قال: والدليل على ذلك هو هنا، فأدخلنا كنيسة من كنائسهم فإذا بوسطها مسطح مرتفع على الأرض بنحو نصف قامة وبواسطة أثر الإحراق والدخان فقال لي: في هذا الموضع كانوا يحرقون الموتى وما يشبه ذلك، لأن الكنائس هي محل دفن الموتى.

وقد وجدت بهذه المدينة خدمة كثيرين يحفرون التراب فسألت عنهم، فقال القيم إنهم يحفرون بأجرتهم وكلما يجدون من آثار أهل هذه المدينة من الآنية والحلي والسكة وغير ذلك من آثارهم نتوجه به إلى الطاغية ويضعه في دار عنده معدة لذلك، يأتي خبرها إن شاء الله. وقد أرونا بهذه

المدينة أيضاً داراً مستديرة قيل إنها كانت دار اللعب المسمى بالكمدية وهي علـى شكلها، يستدلـون على أن هذا اللعـب كان في القديم، وقد كشفوا عـن بعض الطرقات والأزقة مـن هذه المدينة فإذا هـي مفروشة بالحجارة العظيمـة وأثر عجلات الأكداش فيها حتى حفـرت الحجارة فذلك دليل على قدمها.

وقد تركت الخدمة فيها لهذا العهد، فكل ما يجدونه فيها يبلغونه للطاغية ليضعـه بالدار المذكورة لأن لهم اعتناء كثـيراً بشأن الأقدمين وآثارهم وإذا وجـدوا بعض الجدرات والبنايـات متداعياً للسقوط فإنهـم يرممونه، فإذا سقط وأمكنهم إعادته على شكله أعادوه كل ذلك منهم حرص على إظهار الأثـر القديم. وقد خرجت النار مرة أخـرى من أصل هذا الجبل كالوادي قبل تاريخه بنحو عشرين سنة فحطمت جميع ما لاقت من الحجارة إلى أن وصلت البحر، فيروى أنها استفت الماء وجذبته حتى خرج من الجبل، وقد رأيت الأرض التي مرت بها هذه النار فإذا هي سوداء لا تنبت وقد حصل لنا بها دهش ووحشة لما مررنا بها.

ثم رجعنا من هذه المدينة إلى مدينة أخرى بقصد المقيل والغذاء، وقد هيأ لنـا الطاغية داراً لنزولنا لما سمع بمرورنا لتلك الناحية وفرشها وزينها. فلما وصلناهـا وجدنا جمعـاً كبيراً من العسكر واقفاً ببابهـا بعلمهم وطبولهم ومزاميرهـم إظهاراً للتعظيم، فلما دخلناها تلقانا كبيرها وقال: إن الطاغية هيـأ لك هذه الـدار للمقيل والاستراحة وأنا نائـب عنه في السلام عليك، وهـذا العسكـر عندما تأمر بـه فصعدنـا إلى أعلاها وفتح قببهـا فإذا هي مفروشة، ولها كراسٍ منصوبة، ثم انتهى بنا إلى قبة وقال: هذا الموضع المعد

لنزولـك، وها هنا كان نـازلاً لنبرطور دلمانية لما قدم على هذه البلاد فقلت بهـا وقد كنت بعثت الطباخين أمامنـا فهيئوا لنا الطعام للغداء[1] وبقينا بها إلى أن صلينا العصر.

ثـم دخلنا الدار التي تصنـع العدة للطاغية، المكاحـل والسيوف، فرأينا مـن خدمتهم العجب المبين بحركات الماء في إسـراع كثير فقد أخذ أمامنا طرفـاً من الحديـد وأدخله النار حتى لان ووضعه علـى زبرة كبيرة نصبها تحـت عمود كبير في رأسه ما يزيد على القنطـار من الحديد، وأرخى عليه الماء فجعل يرتفـع ويتضع بعنف على الحديد والمعلم قابض بيده فقط حتى يبسطـه لوقته مقـدار جعبة المدفع، ثـم لواه كذلك فمـا كان إلا كجولان طرف والمكحلة قائمة، فأعطاها صبياً فقبضها بيده وأدخل فيها الآلة التي تخلص داخلهـا والجميع بحركات الماء، كذلك صقل ظاهرها على رحى في أقرب زمان. ففي هذه من خدمة العدة المئين، وفي وسطها صحن كبير دائرة به بيوت عديدة وكل من له شغل أو عمل في شأن العدة فهو هنالك، فطائفـة يصنعون الجعـاب وطائفة يخلصون داخلهـا ويصقلون ظاهرها، وطائفـة يصنعون الزنـادات، وطائفة يصنعون الأسـرة وآخرون يصنعون المـداد، وآخرون يصنعون العوالي تشبه أسنة الرماح. الحاصل هم في تلك الدار شغل شاغل ومهرجان كأنهم عفاريت الجان.

ثـم توجهنا من هذه الدار إلى الدار التـي يصنع فيها الكاغد، وقد ذكرنا كيفيـة صنعه في رحلتنـا إلى إسبانية المسماة: بالإكسـير في فكاك الأسير،

---

(1) – يبدو أن السفير كان يترخى لنفسه في إفطار رمضان.

ولنذكرهـا الآن على سبيل الاختصار وذلـك أنهم يجمعون خرق الكتان المتلاشـي فتملأ منه المخازن ثم يميزون الجيـد من الرديء ويغسل كل نوع علـى حدته في برك الماء حتـى ينظفونه، ثم يقطعونه إرباً بحدائد عندهم معدة لذلك. ثم يجعلونه في جفان من الخشب قد بسط في قعرها صفائح الحديـد ونصبوا عليهـا أعمـدة في رؤوسها مدى الحديـد فيملؤون تلك الجفان بتلك الخرق المقطعة، ويطلقون الماء على حركات الأعمدة فترفعها وتضعهـا عليهـا بعنف إلى أن تصـير العجين، فيجمعونهـا ويجعلونها في مـكان آخر إلى أن تيبس، ثـم يعيدونها إلى تلك الجفان فتخـدم أيضاً مرة أخرى قدراً معلوماً ثم يضعونها في مخازنها. وحين يريدون صناعة الكاغد يملـؤون صهريجاً بالماء ويجعلون فيه من تلك الخرق المخدومة ويحركونه فيمتـزج بالماء ويصير أبيض، فيأتي بقالب من السلك على قدر الورقة التي يريـد كبر أو صغر، فيغمسـه في الماء فيعلق به شيء منه فيضعه على أطراف معدة عنده ثوب خشـن فيعلق به ما علق بالقالب فيستف منه الماء ويجعل فوقها طرفاً آخر ويضع قالباً، وهكذا حتى يجعل من ذلك شيئاً كثيراً ويجعله تحـت آلة تسمى التخت فيديره فيخرج ما بقـي فيه من الماء ثم يخرجه من تحت التخت وينزع الأوراق من بـين تلك الأطراف ويجعل بعضها فوق بعض ويضعها في مخـازن فييبس بعضها على بعض، ثـم أطرافاً من جلود البقـر وغيرها في الماء حتى يصير مثل الغر الذي يلصق به في حوض ويضع فيـه الكاغد الذي يبس بعضه على بعض حتـى يتخلله، ثم ينتزع الأوراق واحـدة بعد واحدة وينشرها على الأحبال في مواضع مستطيلة لها طيقان عديـدة لإدخال الهـواء فإذا يبسـت الأوراق تدلكها النسـاء بحجر على

رخامه تمرر الحجر على كل واحدة مرتين أو ثلاثة بأسرع ما يكون، وقد رأيتهم في إسبانية يجعلون مكان ذلك حديدة مفروشة فوقها عمود في رأسه حديدة يحركها الماء فيقبض المعلم عدة أوراق يضعها فوق الحديدة فينزل عليها العمود المذكور فيدلكها وهذا أسرع.

ورأينا أيضاً هنالك الدار التي يصنع بها البارود وهي من العجائب أيضاً. فلما أردنا الدخول إليها تلقانا كبيرها وفرح بنا ورحب ثم طاف على جميع من معنا من المسلمين والنصارى وكل من وجد معه حديدة انتزعها منه حتى من كانت بيده عصى في أسفلها زج، فقال: هذا حذر من البارود فإنه لا يدخل أحد إلى هذه الدار بالحديد لأنه ربما يقع على حجر فتقدح النار منه. وأدخلنا المواضع التي يدق فيها البارود فوجدنا حياضاً من الحجر فوق كل حوض خشبة غليظة، فيملأ الحياض بالبارود ويرسل الماء على حركات تلك الخشب فتدق البارود إلى أن يصل الغاية، وأخبرني أنه يجعل معه شيئاً من الماء خشية أن تضطرم النار بمجرد دقة وقد وقع لهم ذلك فانهدمت الدار وما حولها ثم أدخلنا الموضع الذي فيه الغرابيل فوجدنا أقواماً كثيرين يغربون بالغرابيل كبلادنا، وعندهم غرابيل أخر مستديرات مثل الأطبال في طول نحو ستة أذرع وكل واحد في جوف صندوق، فغباره يسقط في الصندوق حتى يعاد إلى الخدمة، ومفتوله يخرج من الصندوق إلى حفرة أمامه معدة لذلك، وقد سألت المعلم عن مقدار ما يصنع من البارود كل سنة فأخبرني وظل عني! إلا أنه قال يلزمه، مع الطاغية وحده في الأعياد، ما ينيف على ألفي قنطار اثنين في السنة. وقد رأيت اختبارهم للعدة بالبارود باحتياط كبير، والصواب معهم، فإنهم

يجعلون في الجعاب البارود المعلوم وفوقه حائل ثم الرصاصة ويسندونهم على خشبة مستطيلة منصوبة في بيت، ويجعلون تحتهم حديدة مستطيلة على قدرهم ثم يجعل عليها البارود ويخرج من البيت ولا يبقى به أحد، ويأتي من وراء الجدران فيدخل حديدة أخرى من ثقب بعد أن يجعل فيها البارود إلى أن يوصلها إلى المكاحل ثم يفتح البيت فيميز السالم من المتكسر، ولا يتضرر أحد. والحاصل أن الاعتناء والاهتمام بهذه الأمور عليهم مقصور.

ومن عادة الطاغية أن يقيم بنابل زمن الربيع والمصيف ثم ينتقل في الخريف إلى داره ببلد يقال له برطج، وهو بلد في قبلة نابل بينهما نحو ساعة ونصف ثم ينتقل في فصل الشتاء إلى دار له في بلد يقال لها كزرته.

ولما قرب انتقاله من نابل إلى برطج بعث إلينا أحد خاصته وقال: إن الملك يسلم عليك وقد عزم أن ينتقل إلى برطج، ويحب أن تتوجه إلى رؤية داره التي بها قبل أن ينتقل إليها فتشغل ولا تتمكن من رؤية جميعها فبيتنا على ذلك.

ومن الغد ركبنا وتوجهنا إليها، فبعث الطاغية إلى قيم الدار فأمره بملاقاتنا وأن يرينا جميع ما اشتملت عليه الدار المذكورة فلما وصلناها وجدناه ببابها فرحب بنا وتقدم أمامنا يرينا الطريق فأرانا جميع قببها وما اشتملت عليه من العجائب والغرائب، والمواضع الخاصة بالطاغية ومواضع زوجته وما فيها من الآنية الفائقة، فقد أرانا قبة جدرانها كلها من الودع الفائق الذي لا نظير له المشتمل على صورة الآدميين وغيرهم من الحيوانات البرية والبحرية، وفيها مرايا عظام في طول نحو اثني عشر شبراً يقابل بعضها

بعضـاً في إتقان فائق، ووضع رائق ثم أدخلنـا قبباً مملوءة من آثار الأقدمين الذيـن أحرقتهـم النار وطمسـت مدينتهم بنبيانـة المتقدم ذكرهـا، فأرانا خبزهـم محرقاً، والأرز والتين والقمح وغير ذلـك من الأقوات، كل ذلك بـاق علـى شكله منذ سبع عشرة سنة، سوى ما لحقـه من الإحراق. وأرانا أيضـاً آنيتهم من النحاس وصور الآدميين مـن النحاس من عملهم وآلات الأطبـاء، وفتحوا خزانة أخرجوا منها لوحاً مركوزاً فيه خواتم فيها أحجار نفيسـة وما أشبه ذلـك مما وجد في تلك المدينة من أثـر أولئك القوم، وقد انتزع من ذلك اللوح خاتماً وقال: هذه الخاتم كان يستعمله كارلوس ملك إسبانيـة لما كان في نابل ولمـا أراد التوجه إلى إسبانية انتزعها من يده وردها إلى موضعهـا. فانظر إلى اعتناء القـوم بأثر من تقدم، فهذا ملك لم تتشوف نفسـه إلى أن يأخذ خاتمـاً ويصحبه معه إلى بلد آخر حيث كان من أثر هذه المدينة!!

ومـن أغرب ما رأينا بهذه الدار قبة فيها راهب بين يديه أوراق محرقة قد لصـق بعضها فوق بعض كادت تصير هبـاء، فسألته عنها فقال: إنها كتب أهل المدينة المحرقة نجدهم (كذا) تحت ردوماتها فننتسخ ما فيها حتى نعلم مـا كانوا عليه فبهـت وجعلت أفكر كيف يصنع حتـى ينقل ما في أوراق محرقـة لزق بعضها ببعضـ، إذا مسهـا الإنسان تصير رمـاداً، فأراني عدة أوراق انتسخها من ذلك، فقلت: أحب أن أرى كيف تصنع معاينة، فعمد إلى خيوط حفر لها في جرائر عنده فوق طبلة وأتى بأصفاق رقاق من أمعاء الشـاه مثل نسج العنكبوت، فجعل يلصقهـا في الأوراق المحرقة بآلة بيده ويلصـق عليها الخيوط ثم يدير الجرائر فتنحل الأوراق شيئاً فشيئاً وينقل ما

فيها، وهذا عجب مبين لا يدرك إلا بالمشاهد.

وبينما نحن نرى ما في هذه الدار من العجائب إذ قيل: الطاغية أقبل وهو يعتقد أنك تشرف عليه من إحدى المقاعد فيتشوف إليك ليسلم عليك فإنه يناسب أن تشرف عليه من أجل المقاعد، فإذا الخيل أقبلت مغيرة علامة عليه وبأثرهم كدش الطاغية فقيل إن الطاغية يسلم عليك وقد نزع شمريره عن رأسه وهو يشير إليه بيده، فأمعنت النظر في داخل الكدش فرأيت أقواماً آخرين ليس فيهم الطاغية فأعدت النظر فإذا هو راكب خارج الكدش في موضوع الخادم الذي يسوق الخيل التي تجر الكدش، فقلت لأي شيء فعل هذا، وما حمله على أن قعد مقعد الخادم؟ فقيل: هذا دأبه. وقد قيل له في ذلك، فقال: أحب أن أدرك ما ينال الخدمة من التعب والمشاق وحتى نقدر مقدار ذلك، فأعرف لهم حقهم!

وقد أخبرت أنه إذا دخل بعض أجنته ينتزع الفؤوس من أيدي الخدمة ويخدم بيده ويلزم كل من معه من الأكابر أن يخدم ويأكلون الخبز والبصل! فإذا ركب في البحر أمسك المجادف من جملة الملاحين ويصطاد السمك، وله ولع كثير بالصيد على الدوام، لم يوطن نفسه على دعة ولا راحة، فلو ترى يديه من كثرة الخدمة الشاقة لما ميزته عن أهل البادية وأهل الفاقة!

ثم دخل الطاغية إلى جنان له بقرب الدار فتوجهنا إلى رؤيته ودخلنا الجنان في براح متسع هو وخاصته فأعاد السلام وفرح بنا وقال: جئنا إلى هذا البستان لنلعب الكرة(1).

(1) - CRICKET.

فشمر وشمر جميع من معه وبقي في قميص من الكتان لا غير، وقسم من معــه قسمين طائفة معه وطائفة في مقابلته، وأتوا بكور معدة من جلد غير مدبوغ وجعلــوا يعمرونه بالريح بآلة، وجعلوا بأيديهم أعواداً مثل السوار ساترة من الكوع إلى المرفقين وأخذوا يضربون الكرة بتلك الخشب فتردها إحــدى الطائفتين للأخرى. وواحد واقف يحسب حساباً معلوماً عندهم ليعلم لمن الغلب لأن لهم في ذلك قماراً معلوماً، ويربحون من الطاغية في ذلــك مالاً معتبراً فــإن الطائفة المقابلة له تظهر لــه الغلب فيربح الطاغية ثم يطالبهــم باللعب مرة فيتعللون بأنهم أتلفوا جميــع ما كان عندهم، والآن فــلا نلعب معــك إلا إذا كان مالاً معتبراً فيعينــون الآلاف لمن غلب، ويقع الاتفــاق من الطائفتين معاً على الطاغية فيخذله أصحابه ويقع الغلب عليه ويقتسمون ما يربحون منه وهكذا دأبهم معه. فوقفنا هنيهة ننظر إلى لعبهم فرأينــا فيه تعباً كثيراً ومشقة عظيمة وإن تلك الكــرة إن صادفت أحداً في جنبــه أو رجله أو ضربها ولم يصادفها بتلــك الخشبة وأصابت ذراعه فإنها تؤلمه ألماً شديداً.

ولمــا أراد الطاغية أن يتوجه إلى داره التي في كِزرته التي تقدمت الإشارة إليهــا بعــث إلينا وطلب منا أن نــرى داره المذكورة قبــل أن يتحول إليها. فتأهبنا لذلك وتوجهنا إليها فوصلناها على ثلاث ساعات بالسير الحثيث، وقد بعث الطاغية خيلاً كثيرة على عدد الأكداش التي كانت معي وجدناها في منتصــف الطريق فأطلقت الخيل التي كانــت في الأكداش لتعبها لأنها تمر مغيرة، وربطوا الخيل الأخــرى واستمروا على مسيرهم الحثيث إلى أن وصلنا الدار المذكورة. فتلقانا كبير البلد الذي على يده دار الطاغية ورحب

بنـا وتوجه بنا إلى داره وأنزلنا بها ثم توجهنـا إلى دار الطاغية فإذا هي من عجائب الدنيـا وغرائبها، في ضخامة البنيان، ولطافـة النقش والصنائع، لهـا سبع طبقات وأربعة صحن أو خمسـة، شككت، ولمساكن كل طبقة مقاعـد لها شبابيك من الحديد بارزات، وأبـواب من الزجاج في جانبيها أعمـدة الرخام في غاية العظم والطول، فقد أخبرني القيم عليها أن بها من القبـب اثنتي عشرة مائـة قبة وإحدى عشرة قبة، وهذه الـدار أنشأها والد هذا الطاغية كارلوس ملك إسبانية لما كان متولياً بتلك البلاد. ولما سافر إلى إسبانية تركها ولم يكملها ولا زالت الخدمة بها إلى الآن.

وأغـرب ما رأينا في هذه المدينة المـاء المجلوب إليها المسمى جلي؟ جلبه كارلوس المذكـور إلى داره المذكورة مسيرة عشريـن ميلاً بين جبال وعرة فاعترضتـه شعبة كثيرة العمق فاحتاج إلى جعـل القنطرة ليجوز عليها الماء فبنى قنطـرة على ثلاث طبقات عـدد أقواس جميعها تسعـون قوساً: في الطبقـة السفلى تسعة عشر قوساً، في الطبقة الثانيـة ثمانية وعشرون قوساً علوهـا من الأرض إلى فوق ثلاثمائة قدم، وقيـل إن أساسها تحت الأرض مائتـين وخمسين قدماً، وطولها من إحدى العدوتين إلى الأخرى ألفا قدم اثنتـان، ما رأيت أحكم من بنائها ولا أغرب مـن إنشائها، والماء مار فوق طبقاتهـا العليا لا أثر لـه ولا رشوحة كأن لم يكن هناك ماء أصلاً وما رأيت ما يقرب من هذه القنطرة إلا قنطرة بشقوبية من بلاد إسبانية في وسط البلد جوزوا عليها الماء إلى طرفها الآخر لها طبقتان قنطرة فوق قنطرة من عمل الرومانيين، فعمل هذا الطاغية على مثالها وزاد، ولما قرب الماء المذكور من الدار بنحـو ميلين أو ثلاثة أخرجه في مقابلتها وجعـل له صهاريج وبركاً

متعددات في طريق مستقيمة، كل واحد على شكل مغاير للآخر، فمنها ما فيه الصور ترمى بالماء على اختلافها ومنها ما يخرج الماء منه على أشكال العيون إلى أن قرب من الدار فجعل للماء المذكور صهريجاً كبيراً مستطيلاً على جانبيه شبابيك الحديد وعن يمينه وعن شماله أجنة مخضرة، والصهاريج والبرك وسطها كأنها مباسم مفترة أو طريق المجرة. وقد شرع الطاغية في صنع طريق مستقيمة خطاً واحداً من هذه الدار المذكورة إلى نابل.

وقد استدعتنا ذات يوم الراهبات المسماة بالمنخات: وهن راهبات يلزمن الديار ولا يخرجن منها بقية عمرهن، وذلك أن من أرادت الترهب من النساء فإنها تدخل لتلك الديار وتمكث بها سنة فإن كانت بالغة فإنها تستشار في المكث أو الخروج إلى سبيلها، فإن اختارت الخروج خرجت وإن آثرت الترهب والزهد في الدنيا ولم يبق لها أرب في زوج ولا في غيره من زينة الدنيا فإنهم يطوفون بها في البلد حتى تراها كالمودعة ويدخلونها الدار وتمكث فيها إلى أن تموت، وإن كانت صبية فإنها تمكث بالدار إلى أن تبلغ مبلغ النساء وتستشار ويفعل بها مثل ما تقدم. وكثير من النصارى يدخلون بناتهم للديار المذكورات بقصد الحفظ والصون وتعلم الحرف لا غير، فإذا أراد أبوها أن يزوجها يخرجها. ولا يدخل عليهن رجل أصلاً، فإذا مرضت إحداهن ودعت الضرورة إلى إدخال الطبيب فإنهم يأتون به ويحففن به نساء عجائز مع مقدمة الدار حتى ينظر المريضة ويخرج وقد أخبرت أن نبراطور دلمانية أخرج جميع الراهبات المذكورات وأمرهن أن يتزوجن وأمر بإبطال هذه الديار وبلغ ذلك البابا قاعدة الكفر فأثر فيه ذلك أثراً عظيماً وخشي على دعائم كفره أن تنقض شيئاً فشيئاً ويسمع بذلك

النصـارى فيتبعونه. فركب بنفسه وتوجـه إلى لنبرطور تلاقى معه وحذره وخوفـه من هـذا الفعل الذي أحدث، وإبطاله ترهـب النساء، ورجع عنه فقيـل إنه لم يقبل منه وتمـادى على إبطال ذلك وشأن هـؤلاء الراهبات في عزلتهـن، مناكر معتكفـات عليهن، قد جالوا مـن المساحقة في مجال، مع إبليس حيثما جال، واستغنوا عن الرجل. وبهذه المدينة من ديار الراهبات عـدد كثير، ولـكل دار مقدمة، وأخـبرت أن عدد الراهبـات بهذه المدينة نحو خمسة آلاف! وقـد كان عندي ذلك محققاً في المبيضة التي ضاعت. ولهن صنائع فائقات من الرقم والنسج وصنعة النوار المستعمل من الكاغد والكتـان الذي لا يشك فيه أنه نـوار، وأما صناعة الحلاوي على اختلاف الأنواع والألوف فشيء انفردن به فقد بعثوا إلينا كم من مرة من صنائعهن على سبيل الإهداء والإكرام.

ومن غريب ما رأينا بنابل تعويم المراكب في البحر، فقد استدعانا الطاغية ذات يـوم لرؤية ذلـك فتوجهنـا إلى شاطئ البحـر المعد لتعـويم المراكب فوجدنا عسكراً من أهل البحر المعلمين ومن له خبرة بأمور المراكب، وقد هيئـوا للطاغية مقعداً مكسواً بالحرير على شاطـئ البحر وهيئوا لنا مقعداً بإزائـه وزينوه فصعدنا إلى الموضع المعين لنا وأشرفنا منه على المركب الذي يريدون عومه، وبعد هنيئة أتـى الطاغية في خاصته فرفع رأسه إلى الموضع الـذي نحن فيه وأزال الشمرير عن رأسـه وأظهر بشاشة وانشراحاً وصعد إلى الموضع المعد له، ثم حفت الخدمة بالمركب المذكور وأزالوا القوائم التي كانـت بجانبيه ممسكة له وصعد إليه بسلم اثنـان من الرهبان بيد أحدهما آنية من الفضة فيها ماء فرش المركب به ونزلا، فسألت عن ذلك فقيل إنهم

صبوا ماء العمودية ووضعوا له -أي المركب- اسماً ثم أداروا محركات وضعوها أمام المركب يسمونها (البوجي) وحبالها مربوطة في المركب حتى جبد ولم يبق قابضاً له إلا حبال مربوط بها من ورائه، فعمد إليها المعلم فقطعها بشاقور وسار المركب إلى أن دخل البحر وذلك بأيسر عمل ثم نزل الطاغية ونزلنا وتلاقينا معه واستفهمنا عما رأينا من عمله فشكرنا له اعتناءه وإتقانه ففرح بذلك.

ورأينا هنالك بيتاً فيه معلم يصنع السفن على شكل صغير فيراها الطاغية أولاً وما يعجبه من تلك الأشكال يأمرهم أن يصنعوا على مثاله، وقد رأيت بقرب المركب الذي عام مركباً آخر وكنت أفكر في إمكان عومه لأن الموضع الذي تدخل منه المراكب في البحر كأنه ساقية مبنية جوانبه لذلك الغرض، وقد كان المركب الذي عام في مقابلتها فأمكن دخوله البحر منها، وهذا المركب الثاني حائد عنها فاستبعدت عومه فتكلمنا مع النصارى في ذلك فقيل إنهم يرفعونه من ذلك المكان الذي هو به إلى موضع المركب الأول، فزادني في ذلك استبعاداً فقلت لهم: أريد أن أرى كيفية العمل في نقله من مكانه إلى مكان آخر، فهذا مركب تام الخدمة مثل الجبل وكيف يمكن ما تقولون؟ فقالوا هو ما ذكرنا لك ونحن نعلمك إذا أردنا نقله.

وبعد أيام قلائل آذنوا بنقله، فتوجهنا لرؤية ذلك فهيئوا لنا المقعد الذي كنا فيه أول مرة وفرشوا الأرض بالخشب وطلوه بالشحم والزيت وأشياء غير ذلك وربطوا أيضاً البوجي تجاه جانب المركب من مقدمه ومؤخره وجعلوا يديرونه ويجذبون المركب إلى أن أوصلوه موضع المركب الأول

وأدخلوه البحر في مدة يسيرة. الحاصل أمور الدنيا لم يعجزوا في شيء منها (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون).

ومما رأينا بنابل عيد من أعظم أعيادهم يستعملونه مرة في السنة لزيارة كنيسة فتكنس الأزقة قبل ذلك اليوم وترش وتركز البنود على حاشية الطريق، وكل راية يظل ويبيت معها واحد من العسكر، ومن الغد يخرج بائعو الأطعمة والأشربة والحلاوي، وتكسى الجدران والمقاعد بستور الحرير المرصعة، وضربت الفساطيط على حاشية الطريق موضوعة فيها الكراسي والديار التي على الطريق تكون مقاعدها بكراءٍ معتبر لرؤية ذلك.

فبعث إلينا الطاغية رسوله فتوجهنا إليه، فأرانا الرسول المذكور الأكداش المعدة لركوب الطاغية وأولاده وحاشيته، ولا يخرجونها في غير ذلك اليوم فأرانا أكداشاً ما رأينا أعظم منها كأنها أبراج مشيدة وكلها محلات بالذهب، وأرانا بعدها مرابط الخيل التي بقصد جر الأكداش، فكل نوع منها مربوطة في إسطبل وحده، فالدُّهم وحدهم والحمر وحدهم والزرق والصفر، وغير ذلك من ألوان الخيل، وكل فرس معلقة حليته مناسبة في خشبة حتى استوعبنا رؤية خيله، ثم أدخلنا إلى دار صناعة الودع حتى رأينا جميع ما بها وفتح خزائنها فإذا هي ملأى بآنية الودع على اختلاف ألوانها وأشكالها. ولما أردنا الخروج منها أهدى لنا صاحب الدار آنيتين من صنعته.

ووجدناهم قد هيؤوا طبلة الطاغية للغداء ووضعوا عليها الفواكه الموجودة في الوقت وغيره من تفاح وإجاص وعنب وتين وغير ذلك،

والخدمة دائرون بأيديهم أغصـان خضر يطردون بها الذباب. فبينما نحن نرى ما عندهم إذ سمعنا نقر الطبول والمزامير فقيل: الطاغية أقبل، فخرجنا إلى لقائـه، فأقبل راكباً على فرسـه وبيده سيف مصلت فأزال الشمرير عن رأسـه إشـارة إلى السلام، ومن ورائـه عسكر من الرمـاة يتبعه على شكل واحد من اللباس حتـى استكمل تعبئته ووقوفه، ورتب صفوفه، ثم صاح بهم الطاغية فتغيروا إلى تعبئة أخرى، ثم صاح بهم مرة ثالثة وجعل يأمرهم وينهاهـم في أمـور الحرب وهم يظهرون ما عندهـم في ذلك، ثم وضعوا العـدة من أيديهم على الأرض، ونـزل الطاغية عن الفرس وأتى إلينا فأعاد السلام، وقـال: هؤلاء أبناء الأكابـر وأنا قائدهـم ولا يأمرهم ولا ينهاهم غـيري. فشكرتهم لـه، وشكرت له ترتيبـه وتدريبه إياهـم على الحرب، فانشـرح لذلك، ثـم أخـذ يستفهمني عن عسكـر بلادنا وعـن أحواله، فأخبرته بما أنكاه حتى ندم على سؤاله فبقي واقفاً معنا إلى أن زالت الشمس وانصرف إلى غدائه وتوجهنا نحن أيضاً إلى ذلك.

فلما وصلنـا الدار أقبلت العساكـر خيلاً ورماة بطبولهـم ومزاميرهم، واصطـف الرماة أولاً من بـاب دار الطاغية حتى انتهوا، واصطفت الخيل إلى باب الكنيسة التي يمرون إليها وبقوا واقفين في أماكنهم ونحن مشرفون على الجميع من مقاعد بالدار مشرفة على ذلك إلى أن صلينا العصر، فسمعنا دويـاً على بعد، قيل: الطاغية أتى، فتقدمت الخيل مغيرة أمامه على العادة، ثـم تبعها كدش من الأكداش المذكورة أولاً وقد خفت به الخدام والأعوان بأيديهـم العصي، فقيل: هذا صاحب الحق، يعنـون به صاحب شريعتهم، ثـم تبعه كدش من تلـك الأكداش فارغ، فقيل هذا يجنـب فارغاً للطاغية

بقصد إن وقع في كدشه شيء يركب فيه، ثم أتى أقوام بأيديهم الرماح، ثم تبعهم الطاغية راكباً في أحد الأكداش ومعه زوجته فسلم بالإشارة، ثم تبعه كدش آخر فيه ولده الكبير ثم تبعه أولاده كل واحد في كدش يجذبه ثمانية من الخيل على لون واحد حتى وصلوا الكنيسة المذكورة وجددوا كفرهم وفجورهم، ثم رجعوا على تعبئتهم الأولى حتى انتهوا، ثم تبعتهم عساكر الرماة والخيل إلى أن جن الليل.

ورأينا من أعيادهم عيداً يسمونه بِيزَلمن[1] معناه: تقبيل اليد، وذلك إذا كان اليوم الذي ازداد فيه الطاغية يلبس الأكابر والأعيان فاخر الثياب، ويتأهب الطاغية كذلك ويقف في قبة وتجتمع النصارى كلهم في دار الطاغية ويدخلون عليه متتابعين وهو باسط يديه وكل واحد يجثو عليه ركبته ويقبل يديه وينصرف، إلى أن يقبلوا يده جميعاً. وقد مررنا لرؤية ذلك فوجدنا الدار ملأى بصناديد الكفر، فلما أشرفنا على الطاغية ترك القوم ودخل على قبة أخرى وأدخلنا معه، وقال: لم أرد أن تقف مع هؤلاء القوم لأنك أعظم منهم منزلة عندنا، ثم دعا ببنيه، وقد كان قبل ذلك علمهم كيف يسلمون علينا، فأتوا ومع كل واحد امرأة تؤدبه وتهذبه، فأظهروا من الأدب ما قضينا منه العجب.

ومن جميل آثار هذه الحاضرة أننا دخلنا ذات يوم إلى دار معينة للفقراء والمساكين، أنشأها كارلوس طرسير ملك إسبانية لما كان في نابل، ولما سافر منها تركها لم تكمل، فشرع ولده فرناند في تكميلها ولا زالت الخدمة بها

(1) - BESA LAMNO.

إلى الآن. ولما وصلناها تلقانا كبيرها وفرح بنا وقال: وددنا أن لو أعلمتنا بقدومك لنتأهب للملاقاة، ثم تقدم أمامنا إلى براح ونادى على الصبيان الفقراء أن يحضروا فلبسوا ثيابهم واصطفوا أمامنا، ثم أقبلت طائفة منهم فاستعملت الموسيقى أمامنا، وقال: لو أعلمتنا بقدومك لوجدتهم يخدمون الحرف والصنائع التي يتعلمون.

وهذه الدار عينها الطاغية لليتامى والأرامل الذين ليس عندهم من يكفلهم وعين أقواماً يبحثون عنهم في الأزقة ويأتون بهم إلى هذه الدار وبها جميع الحرف والصنائع، فكل واحد يتعلم ما تميل إليه نفسه، والطاغية يقوم بمؤونتهم من أكل وشرب وكسوة. فقد عين لهذه الدار سبعين ألف ريال في السنة تصرف على من فيها من الأرامل والأيتام في المأكول والمشروب والكسوة والفرش وأجرة المعلمين الذين يعلمون الصنائع، وعند رأس كل سنة يتفقدهم، فمن بلغ ثماني عشرة سنة وتعلم حرفة تقوم بمعاشه يعطيه الطاغية الآلة التي يخدم بها حرفته، ويخرجونه يخدم على رأسه! وعلى هذا عملهم يجمعون فيها الأرامل، حتى يتعلمون ما يقوم بمعاشهم من الحرف ويبلغون ثماني عشرة سنة ويخرجون. وقد أخبرني القيم على الدار المذكورة أن فيها ثلاثة آلاف قبة[1] ونيف، ولا زالت الخدمة بها إلى الآن، وهذا والله من علم الناس، ويا ليتهم لو بنوا على أساس!

ومن عجائب البنيان الذي رأينا بهذه المدينة كنيسة في غربيها من أعلى جبل يسكنها قوم من الرهبان لا يخرجون منها أبداً، ومن مات منهم

(1) – يعني حجرة.

يدفن بها، لها حصن كبير قائم على أعمدة من الرخام الأبيض وأحنيته منه في إتقان كبير، ثم دخلنا الكنيسة فإذا بها من العجائب وغرائب الصنائع والتزاويق من الرخام ما يكل القلم عن وصفه مرصع بحجر لازوردي، قيل إن ثمنه زنته بالذهب، وأما صور الذهب والفضة والذخائر فشيء لا يعبر عنه لكثرته. وقيل إن هذه الكنيسة من أغنى كنائس الروم وإنه ليس في تلك الناحية أغنى منها، فقيل إن الطاغية فاتحهم في مدخولها وقال لهم: هذا مال له بال فما يصنع به هؤلاء الجيف؟ فالأولى أن يصرف على مراكب الحرب أو يقام به عسكر، ونعين للكنيسة ما يقوم بوظائفها ومؤون رهبانها. فتشفع إليه الرهبان المذكورون وصالحوه على أداء خمسين ألف ريال يؤدونها إليه كل سنة ويتركهم عنه، فقبل منهم ذلك واشترط عليهم ألا يزيدوا عليهم أحداً بقصد الترهب والدخول في زمرتهم، قصد بذلك أن ينقطع خبرهم بموت جميعهم بقطع المادة!!

ومن غريب البنيان الذي رأينا في نابل دار أعدها الطاغية لوضع ما يعثر عليه من آثار الأقدمين، ولا زالت الخدمة إلى الآن في غاية الإتقان والضخامة والإغراب والإعجاب. فمن غريب ما رأينا من بنيانها قبة طولها مائتا قدم اثنان، وعرضها ثمانون قدماً، هي المعينة من الدار المذكورة لوضع حوائج الأقدمين، ولا زالوا مشتغلين بخدمتها، ذكروا أنهم يصنعون لها المرافع في جميع جهاتها الأربع على طبقات إلى السقف وعليها توضع الحوائج المذكورة. وهي التي عنده بالدار التي بمدينة برطج، المتقدم ذكرها مع ما يظهر بعد ذلك، ورأيتهم جعلوا لها في أركانها الأربع مدارج تدور مع عمود يصعد منها لتناول ما يوضع هنالك، ورأينا بالدار

المذكور عظام حوت لفظة البحر بشاطئ نابل قبل تاريخه بنحو اثني عشر عاماً، قيل: إنــه كان يتبع مراكب للموسكو وخافوه على أنفسهم فضربوه بالكور فصادفوه، فمات فأتى به البحر فلفظه بالساحل المذكور فنتن لحمه فكشطـوه عن عظامه وأبقـوا العظام تذكره، وذكر أنهـم وجدوا له ذكراً واثنين زنة ذكره ثمانون رطلاً وزنة اثنين وأربعون رطلاً وزنة جميعه ألف قنطـار: ورطلهم فيه ثلاثة وثلاثون ريالاً، وقد أرونا عظم فكه الأسفل فيه نحـو عشرة أشبـار، وأسنانه نابتة فيه، وذكـروا أن طول هذا الحوت بضع وسبعـون قدماً، ودائرته بضع وأربعون قدمـاً، وسعة جوفه عشرون قدماً، وطـول ريش ذنبه عشـرون قدماً. ورأينا بها أيضاً فيـلاً ميتاً فركبوا عظامه كما كانت وأبقوه واقفاً وحشوا جلده وأوقفوه بإزائه.

وقـد عزم الطاغيـة ذات يوم علـى الاصطياد فبعث إلينـا رسوله وقال: إن الطاغيـة يريـد أن تخرج معه غـداً، فبيتنا على ذلك. ومـن الغد أصبح الصائـدون متقدمين بمئتين عديدة من الـكلاب والطبول والرماة، وتبعهم الطاغيـة في كدشـه راكباً ومر ببـاب دارنا ثم تبعته زوجتـه، فركبنا الخيل ولحقنا بهـم فاعترضنا في الطريق جبل حفروا في أسفله نفقاً كبيراً في علو كثير وسعة نحو العشرين شبراً أو أكثر، إلى أن جاوزنا الجبل كله، وابتدعوا هـذه الطريق تحته مسافة نحو ميلين وقد كان عندي ذلك محققاً في المبيضة التي ضاعـت، قيل إن ذلك من عمل الرومانيين لمـا كانوا في تلك البلاد. وقـد أوقدوا شمعاً كثـيراً في تلك الطريق لما مررنا بها لكونها تحت الجبل، وأهل البلد لا يحتاجون شيئاً من ذلك لكثرة مرورهم معه إلا من جاز معه بالليـل، ثم تمادينا علـى المسير حتى وصلنا الطاغيـة في غابة حماها، فيها

أنواع الوحش: بقر الوحش والخنزير والذئب والثعلب وغير ذلك، وأدار الطاغيــة بتلك الغابة السور على متن جبالها لأنها في بلاد وعرة فالوحش يتوالد فيها ولا يخرج منها، ففرح بنا وجعل يصف لنا تلك الغابة وما فيها من الوحش، وقد سألني عن بلادنا وهل فيها صيد مثل ذلك فقلت له: إن الصيــد في بلادنا كثير ونحن نصطاد في بلادنا الأسد والنمر، فتعجب من اصطيــاد الأسد لعدم إيلافهم إياه في بلادهم، ثــم قال: أردنا أن نشرع في الصيد، فجعل العلامة بينه وبين الصائدين، وقد كان قبل ذلك قسمهم إلى قسمين: قسم في طرف الغابة، والقسم الآخر في مقابلته، فأرسلت إحدى الطائفتــين كلابها ونقروا الطبول وأطلقوا المدافــع بالبارود فأزعج الصيد من جهتهــم وفر إلى الجهة الأخــرى، فلما أشرف عليهــم أرسلوا كلابهم ونقروا طبولهــم، وأخرجوا المدافع، فرجع فتلقاه الآخرون وفعلوا مثل ما فعلوا أول مرة والطائفتان يدنوا بعضهم من بعض يريدون بذلك أن ينزلوا إلى براح متسع كبير بوسط الغابة أدار به الطاغية قوائم الخشب وهو واقف بــه بخيله وكلابه، فيلجؤون الوحش إلى أن ينزل إلى ذلك البراح، فكل ما ينزل إليه يرسل عليه الطاغية الكلاب وتتبعه الخيل ولا يجد مفراً ويقتلونه، فبقينا معه إلى منتصف النهــار وتوجهنا من عنده. فقتلوا من الخنازير نحو الثلاثــين وعدداً مــن بقر الوحش وغــير ذلك، وأتــت الكراريط[1] لحمل ذلــك، ولما وصلنــا إلى دار نزولنا بعث إلينا الطاغية سبــع أو ثمان من بقر الوحش، وكبشاً وحشياً أمواتاً من الصيد وقال: هذا حظك، فأعطينا ذلك

(1) – تعريب CARRETA.

للنصارى الذين كانوا بجوارنا!!

ومن غريب ما رأينا في نابل كهف قيل إن من نام فيه يموت، فكنت استبعدت ذلك، فتوجهنا لرؤيته فتقدم إلينا أصحاب الكهف القائمون عليه فقلت لهم: سمعت أن هذا الكهف من نام فيه مات وأردت أن أطلع على حقيقة ذلك، فقالوا: هو كذلك. فقبضوا على كلب وربطوا أرجله وفتح الكهف واضطجع الكلب على الأرض وألصق رأسه بها فلم يكن إلا كرجع الطرف إلا والكلب أغمي عليه وفتح فاه وسال لعابه وانقلبت عيناه، فصحت له ليخرج الكلب لكيلا يموت، فأخرجه وبقي ملقى بالأرض ساعة ثم أفاق، فقال صاحبه: لو أبقيته هنا، أي بالكهف، لمات فقلت: وكيف أطلع على ذلك، فقال: ذكروا أنه كان في الزمان القديم راعي غنم فحميت الهجيرة فدخلا لهذا الكهف بقصد القائلة فناما به فماتا، فاطلع عليهما فنظروا أجسامهما فلم يوجد بها أثر ضرب ولا جرح فبهت الناس في ذلك، فقبضوا كلباً بقصد التجربة وربطوه وأضجعوه فيه فمات الكلب لحينه وفي هذا الكهف نادرة أخرى وذلك أن صاحب الكهف أتى بمدفع وجعل فيه البارود وحكه ناعماً ليكون أسرع لخروجه، فصلد الزناد ولم يقدح ناراً وأعاد ذلك مراراً فلم يقدح شيئاً وحين يخرج خارج الكهف تقدح النار ويخرج البارود!!

ومن غريب ما رأينا بنابل قوم يلعبون على الحبال، فأتوا إليها وطلبوا منا أن يلعبوا أمامنا حتى نرى لعبهم فأذنا لهم فدخلوا إلى الدار وعينوا موضعاً متسعاً فيها وربطوا فيها الحبال. ومن الغد وردوا بقصد اللعب، فجلسنا في مكان مقابل لهم فلعبوا بأشياء لا يقبلها العقل، فجعل أحدهم

يمشي على الحبل مقبلاً ومدبراً بنعله بإسراع كثير ويثب فيصعد في الجو وينعزل عن الحبل بمقدار نصف قامة، ثم يرجع إلى الحبل واقفاً على قدميه وتارة على قدم واحدة وتارة قاعداً ورجلاه معاً إلى ناحية ثم يستقبل قائماً ثم يجعل رأسه على الحبل ويرفع رجليه إلى الهواء ثم ينشب رجليه في الحبل ويدلي رأسه إلى الأرض، ومن غريب لعبه أنه أتى بلوح فوضعه فوق الحبل وجعل في رجليه سلتين، في كل واحدة سلة، وجعل يمشي فوق اللوح الموضوع فوق الحبل، وأغرب منه أنه وقف على الحبل وناولوه آلة مثل عود الغناء فوقف على رجل وأخرج يده اليمنى وأمسك العود باليد اليسرى وجعل ينقره من غير تعب ولا جزع.

ومن غريب ما رأينا من لين عظامهم لعب بنت منهم وضعوا لها طبلة من الخشب مرتفعة بمقدار نصف قامة ونصبوا فوقها خشبتين في طول نحو ذراع، ثم وقفت عليها ووضعت رجلاً على خشبة والأخرى على الخشبة والأخرى ووضعوا لها ريالاً على الطبلة من خلفها ثم انثنت من ورائها شيئاً فشيئاً حتى أوصلت رأسها إلى الطبلة وأمسكت الريال بفيها ورجعت حتى استقلت قائمة، وهذا من العجب المبين الذي لا يقبله العقل إلا بالمشاهدة.

ومن غريب ما رأينا بهذه المدينة قوم وردوا من بلاد الإنجليز يلعبون على الخيل. فبعثوا أيضاً يطلبون منا أن نرى لعبهم، وعندهم موضع معد للعب: وهو براح متسع أداروا به الخشب مركوز في الأرض مثل السور في داخله بيوت من الخشب يقعد بها من يريد التفرج، فتوجهنا لرؤية ذلك وهيؤوا لنا موضعاً للفرجة فتلقانا كبيرهم وأدخلنا، ثم شرع أصحاب الموسيقى في

استعمالها فوق مقعد وخرجت فتاة راكبة على فرس وحملت على الفرس مغـيرة وهو يدور بهـا في ذلك البراح مراراً، ثم وقفـت على ظهر الفرس وبقـي الفرس مغـيراً بها وهي واقفة، ثـم أخرجوا لها فرسـاً آخر فركبت وأجنبـت آخر! وبقـي الفرسان يغيران بها مدة ثـم اضطجعت على ظهر الفرسـين معاً وهما مغيران، وقـد قيل إنها تضع رأسهـا على ظهر الفرس ورجلاها إلى أعلاه ولم تصنع ذلك أمامنا في تلك الليلة.

ولا غرابـة في هـذا وفي هـؤلاء الشياطـين فإنهم كادوا يأتـوا بالمحال! فقـد ركب أحدهم على فرس عري وحمل عليـه وجعل ينزل إلى الأرض ويرجع إلى ظهر الفرس مراراً والفرس مغير، وربما نزل فرجع فجاوز ظهر الفرس للناحية الأخرى ثم يرجع راكباً، وقد أتى بعضهم بسلم فوق طبلة وصعـد في مدارجه ثم أوقف به السلم منعزلاً غـير متكئ على جدار ولا علـى غيره وجعل يمشي بـه يتقدم ويتأخر ويصنعـون الموسيقى فيتبع وزن ألحانهـم بأرجل السلـم ثم يصعد مع مدارجه ثم ينـزل إلى بعضها من غير استناد على شيء، وطال لعبه هذا نحو ساعة وهذا والله من أغرب الغرائب وأعجب العجائب!

وممـا رأينا بهـذه المدينة دار الطاغيـة التي بناها والـد كارلوس، الطاغية بإسبانيـة، أسسها في بسيط من الأرض مرتفع مشرف على نابل من جهة الشمـال، تظهر منه المدينة كلها على كبرهـا. فتلقانا كبيرهم وأدخلنا إياها وأرانا جميع قببها، وفيها خزانة من الكتب مجموع فيها كتب الملل كلها من المسلمين والنصارى واليهود فقلت لهم: ما تصنعون بكتب القوم الذين لا تعرفون لغتهم ولا شرائعهم؟ فقالـوا: قصدنا أن تكون الخزانة جامعة وإذا

أتى أحد من رجال البلاد نريهم ذلك، فهم يفتخرون بهذا كثيراً، وقد أرانا كبير الدار المذكورة خزانة كبيرة موضوع فيها الغرائب، فأغرب ما رأينا في ذلك حجراً واحداً صغيراً أصغر من الأكف فيه ثلاث صور من الخيل، أحدهم أدهم والآخر أحمر والثالث أبيض، ثم أخذ يرينا من مثال هذه الغرائب إلى أن جن الليل، واتفقنا على الرجوع مرة أخرى لنشفي الغليل في تلك العجائب، فلم يتفق ذلك بسبب ما كنا بصدده من الأشغال.

وأما الأسبطار[1] الذي يأوي إليه المرضى والضعفاء والمساكين والقيام بحقوقهم رجالاً ونساء من فراش وأكل وشرب وكسوة وعلاج، فهو أمر مشهور في بلاد النصارى كلها فلا نطيل بذكره لشهرته.

وقد رأينا موضعاً كبيراً متسعاً جداً يقال له كنب سنط[2] محفور فيه ثلاث مائة وست وستون حفرة على عدد أيام السنة، وكل حفرة متسعة من داخلها مبنية بناء متقناً وفمها ضيق متساوياً مع الأرض ولكل حفرة غطاء من الحجر على قدر فيها (محكما) وقد أداروا بهذا الموضع سوراً عالياً وله خدمة يظلون فيه، وهذا الموضع معد عندهم لدفن الأموات الغرباء مثل الذين بالأسبطار، ففي كل يوم يفتح الخدمة الموكولون به حفرة من الحفر ينزعون عنها الحجر الموضوع فيها بسلاسل وحركات ويظل مفتوحاً، فكل من مات في ذلك اليوم يرمونه فيه ويغلقونه ولا يفتح إلا السنة المقبلة، ومن الغد يفتحون الحفرة الموالية لها وهكذا على سائر أيام السنة قبحهم الله.

(1) - HOSPITAL.
(2) - Canpo-Santo.

وأمـا الديار المعـدة لـلأكل والشرب فكذلـك أمرها مشهـور في بلاد النصـارى كلهـا حتى في الطرقـات، فكل ما يريد المسافـر يجده فيها من الأكل والشـرب والفراش، فإذا أراد أن يقيم يومـين أو ثلاثة أو عمره كله يأكل ما يشاء ويتحكم كيف يشاء ويؤدي ما هو معلوم.

وقد سمعت في هذه المدينة نادرة وهي أن كل من يبين بالديار المذكورات من المسافرين فإن صاحـب الدار يزممهم ويدفع الزمام إلى حاكم البلد بعد أن يفحص عن كل واحد من أين أتى، وقد وقع من حكام المدن اتفاق على أن مـن جنى جناية وفر فإن حاكم البلد الذي وقع فيه ذلك يكتب كتبه إلى جميع البلدان بأنه وقع كذا، وأن صاحب الدعوى اسمه كذا وصفته كذا، ومعلوم أن هؤلاء المسافرين لا يجدون أين يأكلون ولا يشربون إلا في هذه الديـار فحين يأتي الخـبر إلى حاكم المدينة بشيء من ذلـك ينظر في الديار المذكورات وكثيراً ما يجدهم في تلك الديار!

الحاصل هـذه المدينة من عجائـب الدنيا، لا تنقضـي عجائبها ولو أقام الإنسان سنين فيها، ولا يحصى عجائبها ولا يستوفيها.

وأما ما بها من الخيرات، فحدث عن البحر ولا حرج، فالفواكه موجودة فيها في غير إبانها حتى تجتمع فاكهة السنتين معاً.

ولنرجـع إلى تتميم الخبر، لما كانت إليه الرحلة والسفر. وذلك أننا لما كنا عنـد والد هذا الطاغيـة ملك إسبانية وعقدنا معه الصلـح أدخل ولده معه فيـه، فلما قدمنا على هذا الطاغية شرعنا معه في عقد شروطه، فاشترط كل واحد منا ما فيه مصلحته لجانبه، ولما تم الاتفاق، وحصل الالتئام والوفاق، استنسخنا الشروط، وأنزلنا عليه الخطوط.

وأما خبر الأسارى فقد تقدم جوابه ثم إن الله تعالى فتح علينا في فداء مائة أسير تصدق بهم الطاغية على بعض النصارى ليبيعوهم ويفدوا إخوانهم من الأسر، فاستنقدناهم من فضل الله زيادة في الثواب والأجر، وجمعناهم مع إخوانهم الذين كانوا عندنا، وحمدنا وإياهم الله تعالى سراً وعلناً، وقد كانوا عزموا على بيعهم من نصارى مالطة زيادة على الأسر والاغتراب، خدمة الغراب[1]، ويصير الرزء فيها رزأين، والأسر بلا حد ولا أين، فأنقذهم الله تعالى بسيدنا صاحب الكرامات واضحة الدلائل والعلامات.

ثم تكلمنا معهم في مركب من مراكب سيدنا[2] أيده الله كان بعثه لأمير طرابلس حاملاً القمح بسبب المسبغة التي كانت في بلاد فتلقته مراكب صاحب نابلطان وقبضوه وأخذوه، فقلت له: ترد على سيدنا ومولانا، أمير المؤمنين، المركب الذي أخذت حاملاً القمح إلى طرابلس، فقال: كيف أرده وقد أخذته في زمن الحرب وكذا أهل طرابلس الذين كان متوجهاً إليهم ليس بيننا وبينهم إلا الحرب؟ ولم يتقدم عهد بيننا ولا بينكم جمعياً وليس من المألوف رد ما تُفيته الحرب. فقلت لهم: هو كذلك، ولكن إن أردتم سلامة الصدور، وفعلكم بكل خير عليكم يدور، فافعلوا ما أرشدتكم إليه وإن كنتم له متكلفين، وستحمدون عاقبة رد هذا السفين. فثقلت عليهم وطأة سيدنا ومولانا أمير المؤمنين وتيقن الأعداء، أن لا يبريهم

(1) - الغراب نوع من السفن، راجع ما علقنا به على الموضوع والسفير موجود في مالطا.

(2) - راجع الدراسة التمهيدية.

إلا الأداء. فبعث إلي ذات يوم وقال: إن المركب بزرعه قد فات، وها أنا أمرت أن يحصى ما قبض في المركب وزرعه وأؤديه إليك ابتغاء خاطر سيدنا أيده الله، فأعلمه بذلك المحصون وبذله إلينا طلباً لما ينجي به نفسه ويصون، وعلمنا أن مولانا أيده الله غني بنصر الله عن الأنصار، في الأقطار والأمصار، أدام الله وجوده للإسلام، وأبقاه منصور العساكر والأعلام.

ثم إننا لما تممنا بفضل الله عملنا، وبلغنا بمحض منته أملنا، عزمنا على السفر من بلاد من تولى عن الحق وكفر، وتولى ونفر، فبعثنا إلى الطاغية بالإعلام مع أحد خاصته وقد كان بداره التي بكزرته، المتقدم ذكرها، فقال: أنا أقدم إلى نابل بقصد وداعك ولا نتعبك بالمجيء إلينا فعين الطاغية اليوم الذي يقدم فيه فقدم، وبعث يعلمنا بأنه ينتظرنا بين العشاءين بقصد الملاقاة للوداع.

فأخذنا الأُهبة، وبعد صلاة المغرب ورد علينا أحد الأكابر الذي هو معين لملاقاة الباشطور مع الطاغية وقال: إن الطاغية في انتظاري، وأتت معه شرذمة من الخيل اصطفت بباب الدار تنتظر خروجنا ثم أحضرت الأكداش فركبنا وتقدمت الخيل أمامنا مصلتي السيوف كما فعلوا أول مرة إلى أن وصلنا دار الطاغية.

فوجدنا ببابها من النصارىٰ ما لا يحصى عدداً، وأوقدوا بها من الشمع ما استنارت به الأزقة والطرقات، ثم صعدنا مدارجها حتى انتهينا إلى أعلاها والنصارى مصطفون على طبقاتهم كأنما على رؤوسهم الطير، إلى أن وصلنا القبة التي كانت فيها ملاقاتنا حين قدمنا عليه، فوجدناه على هيئته الأولى واقفاً على طبلة مكسوة بالحرير وعن يمينه طبلة ومن خلفه كرسي مرصع بالذهب، والقبة ملأى بالوزراء والأعيان من أهل المملكة،

فلما قابلناه أزال الشمرير عن رأسه، يريد بذلك السلام، فأشرنا إليه بيدنا ثم دنونـا منه ففعل ثلاث مرات، ففاتحته بالكلام وجازيته خيراً عما فعل معنا مـن الإحسان والإكرام، وفرحه بنا هـو وجميع رعيته من الخاص والعام، وأننـي أنهي إلى سيدنا ومولانا ما رأيناه منكم من صدق الوداد في جانبه، حتى تحمدون عاقبة هذا الصلح الذي أثبتنا شروطه، وتكون أحوالكم عند جميـع الأجناس مغبوطـة، فأحسن الرد، بما تجـاوز في أعرافهم الحد: إن بـلادي بلادك، وما فيها طريفك وتلادك، ثم توجهنا من عنده على الهيئة التي دخلنـا عليها، فتلقانا رسول زوجة الطاغية وقـال: إن الملكة تنتظرك لتشيعـك فجئنا إلى منزلها فدخلنـا قبة فإذا هي واقفة علـى هيئتها الأولى وعن يمينهـا وعن شمالها نساء الأكابر وأرباب الدولة، فسلمت علينا كما فعـل زوجها، إلا أن تسليم النسـاء بانحدارهن إلى الأرض شيئاً ما، فعلت ذلك ثلاث مرات ثم جازيناها خيراً عما فعلوا معنا من الإكرام والإحسان مـدة مقامنا عندهم ووقوفهم معنـا في قضاء مآرب سيدنـا أمير المؤمنين، فقالـت: كلما يحب سيدنـا في بلادنا نقضيه وفق ما يجـب. ثم ودعناها وفعلـت من الأدب مثـل ما فعلت حـين أقبلنا عليها. ثـم توجهنا إلى دار نزولنا وتقدمت أمامنا الخيل مصلتي السيوف على العادة، وشرعنا في أخذ الأهبة للسفر وبعد ذلك بعث إلينا الطاغية كتابه جواباً لمولانا أيده الله على الكتاب الذي أتيناهم به.

ثـم من العادة اللازمـة للبشطور عند إرادته السفر مـن عندهم أن يطبع أوراقاً مكتوب فيها اسمه ويركب بقصد توديع الأكابر والأعيان فمن كان بينـه وبينه معرفة أكيـدة لابد أن يدخل داره، وغـيره يكتفي بوضع كاغد

من الكواغد المذكورة بداره من غير أن يدخل إليها، وحين يرجع إلى داره يقدمون عليه بقصد الوداع، وهذا الفعل نفسه يفعله حين يرد عليهم لأنهم يقدمــون عليه أولاً بقصد السلام عليه فيحتــاج إلى أن يحصي كل من يرد عليه في زمان ويلزمه أن يرد عليهم إما بنفسه أو بالكواغد كما ذكر.

هــذا من جملة قواعدهم وأعراف بلادهم، ومن لم يفعل ذلك يعد بربرياً أجلــف[1]، قد أحدث بفعله جنفــاً، وينسبونه إلى الهمــل، ولا عبرة تبقى بــه ولا عمل، فيتعين على العاقــل الذي قدر عليه جــوب البلاد، وملاقاة الأجناســ من العباد، أن يسلك مسالـــك القوم، لكيلا يتوجه إليه عتاب أو لوم، وذلك أسلم لنفسه، وعدم تكدير يومه وأمسه.

لا تخالف وإن أتـــوا بمحال

تستدم ودهــم بترك الخلاف[2]

والله تعالى يتولى السرائر، ويجازي على ما في الضمائر.

ثم انتخب الطاغية هدية لمولانا أمير المؤمنين من صنع بلده الفائقة، وتحفه الرائقة، وبعثها إلينا وبعث إلينا هدية خاصة بنا.

ولمــا شرعنا في البحث عن المركب الذي يحملنا إلى بلادنا، فوجدنا عدة مراكــب فبينما نحن نتخير في أيها يكون ركوبنا، إذ أتانا رئيس من رؤساء البحــر من جنســ الراكوزة، وقــال: إني سمعت أنــك تبحث عن مركب تتوجــه فيه إلى بلاد سيدنا أمير المؤمنين، فقال: هذا مركبي أحملك فيه إلى

(1) – كلمة بربري كانت تعني الشخص الذي لا يتكلم لغة المستعمر، انظر التازي التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج 2.

(2) – هناك مثل عربي ذكي حول أداء هذه الفكرة وهو يقول: من دخل ظفار حمّر أي تكلم بالحميرية.

حيث تريد ولا أقبض منك درهماً واحداً في كرائه، محبة في خدمة سيدنا أيده الله واستجلاباً لخاطره عسى أن يلاحظ جنسنا بين الأجناس، فقلت له: لكم ما تريدون وإنكم ستنالون بهذه الخدمة حظاً وافراً من خاطره.

ثم أخذ الرئيس في الاستعداد وحمل الماء والزاد، وأطلع أثاثنا وحوائجنا، إلا أن الريح لم يساعدنا للسفر فبقيت حوائجنا بالمركب ونحن بالبر نحو عشرين يوماً. فتحرك ريح مساعد فركبنا البحر من نابل رابع المحرم الحرام فاتح سنة سبعة وتسعين، فهيأت الأكداش فركبنا وتوجهنا إلى شاطئ البحر فوجدنا الفلائك فركبنا وتوجهنا إلى المركب فصعدنا إليه وأخرج صاحبه المدافع ثم سافرنا بقية يومنا والليلة بعده.

وأتى البحر والأهوال، وتناقض الأحوال بما عنده وأقبلت الرياح مخالفة، بعد أن كانت مساعفة، ونزلت عليها بكلكلها عساكر الرياح، ونشرت علينا -لولا فضل الله- بنود الاجتياح، فملأت الأقطار الشاسعة، والجهات الواسعة، فحالت بيننا وبين القصد والآمال، وما أمكننا إلا الفرار إلى حيث ينتهي البحر إن دامت لأي شاطئ كان من الحجارة أو الرمال، فسلبنا من القلق والفزع منزور الهجوع، ويئسنا من العود إلى الدنيا والرجوع، وشوارع[1] المركب خاشعة خاضعة، والسفينة لثدي الأمواج راضعة، حتى يئسنا من الحياة بما ظهر من عظيم الآيات، فأوفر الله بخبر الفرج وكتائب البشرى، ونشر علينا رحمته نشراً، فهب ريح أخرجنا من تلك المزادة التي استحال منها الخروج، واطمأنت النفوس، ورفعت من ميدها الرؤوس. إلى أن وصلنا طرف جزيرة

(1) - شوارع جمع شارع.

صقلية فاختلفت القوانين، ولم يطرد ما رسم من أمور البحر في الدواوين، وفتحت أفواهها ورفعت أصواتها الرياح الدبور، بأن لا عبور، فعجز الحول، وخشينا في المسألة العول، وأن يكون قد وقع القول، ففرقت علينا من كل جانب كتائبها، وقطبت فاطلعت مسودة سحائبها، فلا تسمع إلا تصفير الحبال وهمهمة الرحال، فاستشاط البحر غضباً وقال: يا عجباً! على هذا الريح يصول في وقت هيجائي على جميع الفصول، وأنا البحر الزاخر، الذي تحمل الفلك أثقال الدنيا فتمر في مواخر، فيعترض لها كأنه بي ساخر، فجرد من عساكر أمواجه جنوداً ونصب رايات لمقارعة الرياح وبنوداً وأقبلت من كل جانب أمواج مفارقها قد شابت تقتفي أثر الرياح فما قصرت وما ارتابت، تسمو إلى السماء في طلب الرياح، فكم من مرة مدت أيديها إلى الجفن لنأخذ منه حبالاً، فأكسبت العيون أرقاً، والقلوب فرقاً، لولا فضل الله وخبالاً، فبقينا نطاول البحر ونقارعه، ونتلقاه بالله وندافعه! فرأينا بحراً لا يطاق غلاباً، وخشينا أن يكون ذلك من الله عقاباً، فتفتح جبال أمواجه في المركب أنقاباً، فما أمكن إلا إرخاء العنان أمامه قسراً، وإن تعرضنا لهيجانه لا يعقب إلا غرقاً أو كسراً، وإن النجاة في مساعفة الرياح ولسو بلغت بنا مدائن هرقل وكسرى، ثم ردنا الريح مرة ثانية، بعد أن أشرفنا على التلف في البلاد الخالية، إلى طريقنا المقصودة، وضالتنا المنشودة، ففرحنا إلا أنه فرح مكدر، بارتقاب ما يخشى من هول البحر المقدر، فسرنا إلى أن جاوزنا جزيرة صقلية فاعترضنا ريح عائق -نعوذ بالله من كل بلية- فعزمنا على أن نتمسك ببلاد الإسلام، ونشفع هذه الخدمة الشريفة بملاقاة بعض العلماء الصالحين الأعلام، فيممنا تونس، حذراً مما أصاب يونس، فما بقي بيننا وبينها إلا مقدار خمسين ميلاً بحسب التقريب ونودي إلا أن لا تثريب، ولا ما

يريب، وجعلت الجماعة تتطلع إلى انكشاف البر بأعناقها، وتحدد النظر بآماقها، إذ تحركت رياح متغايرة، سحائبها في الجو متطايرة، ردتنا قهراً إلى حيث كنا، وأفصحت بلسان الإجمال إن لم نفر أمامها لتصيرن لنا بطن الحوت كنا، حتى تمنى أن لم يكن في الوجود كل منا، وبقينا نسير في غير قصد حتى بلغنا الجهد تلعب بنا أيدي الرياح، في الغدو والرواح، ثم بدا منا العجز والاستسلام للملك العلام، والقلب قريح، والجسم طريح، وألصق بالوسادة الخد، ولسان الحال بتعطيل لسان المقال يقول: (يا ليتنا نرد)، فكم من مرة ترفع جبال الماء فيدخل المركب بينها في سرب: (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجيتنا من هذا لنكونن من الشاكرين، قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب)، والمركب بين الفريقين من شدة تقلبه كقطعة حديد بيد قيد، وطرد المآقي، وبلغت الروح التراقي، وجفت من دموعها المآقي، لولا فضل الله الواقي، فبقينا على هذه الحالة من يوم سفرنا تسعة أيام لا صلاة ولا منام، فرجعنا إلى الله تعالى أن يرحمنا لضعف اقتدارنا وبعد دارنا، معترفين بقلة زادنا من التقوى، وفراغ مزادنا إلا من كل مصيبة وبلوى، يا عالم السر والنجوى. ثم ناديت رئيس المركب وقلت له: سر بنا إلى حيثما قرب من المراسي لنستريح، حتى يأتي الله بما يوافق من الريح، فأجسامنا في تعب وتبريح، والقلب قريح، وجفن العين جريح، فقصدنا مرسى من مراسي صقلية يقال لها بررم[1]، سافرنا إليها يوماً وليلة وأرسينا بها في جنابها.

(1) – باليرمو PALERME.



الفصل الرابع



صقلية

تمهيد

كمــا كان الأمــر بالنسبة للرحالــة ابن جبير منذ قــرون... فقد أرغمت العواصــف البحرية ابن عثمان بما يصحبه من أسرى علــى الرسو يوم 14 محــرم 1197 – 20 دجنــبر 1782 بجزيرة صقليــة أو (كيمياء الشمس) كما يسميها الشاعر الصقلي ابن حمديس[1].

إن المــرء ليشعر من خــلال قراءته للمذكــرات التي حررهــا ابن عثمان ســواء عن باليرم... بأنه أمام دليــل تاريخي وجغرافي وزراعي واجتماعي وديموغــرافي وحضاري ومعمــاري وسياسي يضــاف إلى (المكتبة العربية الصقليــة) التــي كان الفضــل في إنشائهــا للمستشرق الإيطــالي المشهور ميشيــل أماري. وقد أربى في وصفه لعاصمة صقلية على ما كتبه الجغرافي المعروف الإدريســي... وابن الخطيب... ويعتبر ما كتبه ابن عثمان أوحد زمانــه ممن تحدث للناطقين بالضاد عن هذه الجزيرة التي كانت تزود ممالك أوروبا بما تفيضه مروجها الخضراء سواء في الشمال أو الجنوب أو الشرق..

لقــد سجل التاريخ القديم عن علاقات جــد مطرفة بين المغرب وصقلية عندما وردت سفارة من غليالم الثاني على أبي يعقوب المنصور وهو بإفريقية سنة 575 – 1180 فانتهت إلى اتفاقية مهادنة بحرية كان لها أثر على إرجاع

(1) – يقول ابن حمديس:

ومشرق كمياء الشمس في يده ... ففضة الماء من إلقائها ذهب

غليالم لكريمة الخليفة أبي يعقوب التي سطا القراصنة على المركب الذي نقلها وهي في طريقها للزفاف بأحد أمراء إفريقية على ما أوضحناه في موسوعتنا: التاريخ الدبلوماسي للمغرب[1]...

وقد بعث فريديريك الثاني بدوره سنة 640 – 1242 بسفارة إلى مراكش تحمل الهدايا إلى الخليفة الموحدي الرشيد، ولما صادفت السفارة وفاته استقبلها أخوه السعيد الذي أجاب عن الهدايا بمثلها... وقد جاءت مذكرات ابن عثمان –بعد أزيد من خمسة قرون– لتترجم عن جو الود الذي ظل سائداً بين صقلية والمغرب، بل لتقدم لقراء اللغة العربية لوحة ملونة لمختلف مظاهر الحياة في صقلية التي تنتسب إليها عشرات البيوت الأصيلة ممن احتضنتهم الأرض المغربية...

وتأتي أهمية مذكرات ابن عثمان من أنها كانت أيام فيرناندو الرابع وأنها كانت تعاصر خمائر الوطنية والاستقلال التي كانت تتأجج في الجزيرة ضد البوربون، تلك الخمائر التي مهدت لثورة صقلية وحركة أماري وكافور... فقد سجل استقباله لوالي المدينة الذي ورد لتحيته في موكب حافل، وقد كان هذا كافياً للتعبير عن المشاعر، بيد أنه لم يلبث أن تلقى استئذاناً بزيارة أهل البلاد أنفسهم الذين وردوا في عدد لا يحصى من الخلق حيث ألقوا أمامه في القبة الكبرى خطاب ترحيبهم معلنين عن أن الجزيرة جزيرته، وكأنما يقدمون إليه هم مفتاح المدينة!!

وقد أكد ابن عثمان في مذكراته الفكرة التي تقول: إن الوجود العربي

(1) – الجزء 6 ص 236 وما بعدها...

بالجزيرة لم يظهر أثره إلا بعد انسحاب العرب، وهكذا نقرأ عن معالم تاريخية وملامح عربية بل وعن تعلق تلقائي بالآثار الإسلامية، فقد وقف على مباني عديدة عملت فيها يد العمال المسلمين ووجد نفسه أمام قوم لا يختلفون عنه في العادة والسلوك والمعشر...

وإذا كان زميلنا الدكتور مورينو أهمل في تعريفه بصقلية الحديث عن الثروة الحيوانية فإن ابن عثمان يتحدث في معرض كلامه على ازدهار الفلاحة وفن البساتين ووفرة الزروع والخيول وعن نوع من الأغنام لا يوجد بالمغرب وهو الذي يمتاز بالذيل الممتلئ، ومن الطريف أن يذكر أن هذا النوع معروف بالأغنام الشعيبية، وهي ظاهرة لها علاقة بتأثر صقلية بالشرق الذي يحفظ بهذا النوع من الخرفان إلى اليوم.

وقد قام ابن عثمان بتقديم مقارنة بين أهل صقلية وسكان (نابل) وكأنه يشير إلى البصمات التي خلفها الوجود العربي بالجزيرة مؤكداً أن الصقليين أنسوه غربته وأنسوه وحشته ولم يدعوا فرجة إلا أوجدوها ولا نزهة إلا جددوها على حد تعبيره.

وكما شاهد ابن عثمان (الأوبيره) في إسبانية ونابل فقد استجاب لحضورها في صقلية معتبراً أن هذا التكريم هو في الواقع تنويه بقدر العاهل المغربي.

وقد قدم وصفاً دقيقاً وجيداً لأوبيره (باليرم) -التي كانت تفوق في نظره أوبيرة مالطة- بما كان يضيئها من شموع كثيرة وبما كانت برامجها تشتمل عليه من موسيقى.

لقد أثارت انتباهه تلك الرسوم التي تخيلها الفنانون، كما وقد أعجب

بحركات اللاعبين..

وبعد أن أسدل الستار عاد مرة ثانية ليرى مشاهد أخرى تمثل البحر والأساطيل، وليرى حواراً غرامياً بين عشيق ومعشوقة... ووصف ابن عثمان للأوبيره لا يقل عن وصف صحفي دقيق في تعبيره، مشوق في صياغته.

ولم يفته أن يسهب في الحديث عن أيام (الكرنفال).بما يتخللها من مفاجآت وتعليقات... لقد أمسى ابن عثمان من هواة هذه المشاهد حيث نجده يتردد على رؤيتها مرات عديدة أثناء مقامه بالجزيرة!

وكما فعل ابن عثمان عند سفارته السابقة إلى إسبانية فقد تحدث عن الحياة الدينية في العاصمة ونظام الإرث وعبادة الصوم في العالم المسيحي...

وبعد أن يبحر السفير يوم 10 صفر – 15 يناير 1783 بإشارة من ربان المركب يعود مرة أخرى بعد أن قضى خمسة أيام بين صراع الموج وهول العاصفة، وقد صادفت عودته احتفالات البلاد بيوم أعياد ميلاد الملك كارلوس (20 يناير) فوجدها ابن عثمان فرصة لبى فيها دعوة لحضور حفلة الاستقبال الكبرى حيث روح عن نفسه من عناء تلك الأيام الهوجاء التي قضاها في المركب.

لقد قدمت له الأشربة المعقودة على الثلج التي لم يخف ابن عثمان استحسانه لها، كما سبق أن قلنا، والتي لم تزل عادة الصقليين إلى اليوم، يتفننون فيها حسب أذواقهم وأرزاقهم... وقد اهتم ابن عثمان بالميزانية التي تخصص من طرف الحكومة لأجل توفير هذا الجيلاطي

(Gelati) للناس!!.

وكانت مناسبة لتجديد الحديث عن تقاليد الرقص في الحياة الاجتماعية الأوربية، وتعلـق الإنسان بل حتى الحيوان[1] بالطـرب والموسيقى (حتى تعـب أولئك الخود وتصبـب على وجناتهن الموردة عـرق زاد في نصاعة محياهن) على حد وصف السيد السفير!

ولقـد كان ابـن عثمـان يلاحـظ في كل مناسبـة حضـور السيـدات الصقليـات إلى جانب أزواجهن يساعدنهم على القيام بواجب الترحيب والمؤانسة...

وإذا كان التاريـخ الدبلوماسي للمغرب احتفظ قبل ستة قرون باسم عبد الله ابـن العربـي سفير المرابطين لدى بلاط العباسيـين على أنه بارز وبز في الشطـرنج شخصية تنتمي لطرابلس، فإن التاريـخ سيحتفظ أيضاً باسم ابن عثمـان على أنه بارز وبز شخصية أخرى في صقلية أمام أعضاء نادي بلرم الذي كان ضمن مزاراته في العاصمة!!

لقـد أسهـب ابن عثمان في الحديـث عن هذه المقابلة المثـيرة من غير أن يخفـي إستراتيجيتـه في اصطياد منافسه! وقد كان مسـروراً جداً من غلبه لخصمه واعتبر ذلك نصراً يذكر في عداد توفيقاته!!

وقد كان مما استرعى انتباه ابن عثمان كنيسة سان مارتينو (San Martino) التي توجد على بعد سبعة أميال من (بلرم)[2] والتي زارها صحبة الأسقف

(1) – ذكر ابن عثمان أنه شاهد كلباً يتفاعل مع جوقة للموسيقى الأمر الذي يذكر بما نراه اليوم في (السيرك) حيث نجد الأسود والفيلة تتبع حركات الموسيقى.

(2) – رسمها الناسخ (سنمرتيل) والقصد إلى (San Martino).

(فيلا)، إن الكنيسة رممت بعد أن كانت تأثرت عند فتح المسلمين لصقلية وأنها تحتضن عدداً من المخطوطات العربية كان من بينها سيرة ابن سيد الناس اليعمري، وعدد من الكتب الطبية[1].

إن ما حكاه ابن عثمان عما شاهده في هذه (الكنيسة) يعطي فكرة عن أنها كانت أيضاً معهداً علمياً للبحث حيث شاهد من خلال صناديق زجاجية مخلوقات غريبة وطيوراً مجمدة كان منها الشرقراق، وكانت فرصة ليقدم لنا طريقة تحنيط الحيوان على ذلك العهد...

وبعد أن تستوقفه دار الحضانة المعدة لتعليم الأشغال اليدوية للبنات يسترعي انتباهه انتشار الكتابة حتى بين الصم والبكم متخلصاً إلى حديث طويل وعريض عن مؤسسة علمية عليا تحتوي على مكتبة تضم زهاء ثلاثين ألف مجلد، ويتلقى فيها الطلاب علم الحساب والنجوم وعلوم البحر واللاتينية والطب والفلسفة والأدب.

وقد أضحكني وهو يتحدث عن التعليم في صقلية، أضحكني حديثه الممتع عن الصبيان الصغار الذين قاموا بما نسميه اليوم مظاهرة، كان

(1) – من الطريف أن نكتشف أن الذي صحب ابن عثمان إلى (سان مارتينو) كان راهباً من أصل مالطي قدم على صقلية واشغل نفسه بأمر جرد المخطوطات العربية ولم يكن هذا غير كيسيبي فيلا (G. Vella) الذي ذكر أنه في أثناء المحاولات الرامية للعثور على المخطوطات وصل إلى باليرمو قادماً من نابولي عام 1782 السفير محمد بن عثمان المكناسي الذي كان قد كلف من الإمبراطور المغربي بمهمة تمس العلاقات بين الطرفين، قال فيلا: وقد تحدثنا معاً حول موضوعات مختلفة وكنت أنا القائم بوظيفة المترجم، وذهبنا إلى دير سان مارتينو حيث كانت المكتبة هناك غنية بالمخطوطات، ومن الغريب أن يذكر فيلا أن ابن عثمان وعده بأن يرسل إليه ما يكمل بعض المخطوطات التي تتعلق بتاريخ صقلية على يد أخيه السيد مصطفى حيث إن ابن عثمان كان على أهبة سفر إلى القسطنطينية إلا أن البروفيسور روزيطانو يشكك –ومعه الحق– في بعض المعلومات التي يقدمها فيلا حول تلك المخطوطات. Guiseppe Vella، Codice Diplpmatico di sicillia Sobt، dit Govemo dela arabi Palermo 1789، P 30–34
امبرتو ريزيطانو: تاريخ الأدب العربي في صقلية 1965، ص 22.

الصبيان يصيحون بصوت واحد يرددون جملة واحدة، فسأل ابن عثمان ترجمانه عما يقوله الأطفال، فأجابه الترجمان: إنهم يطلبون منك أن تشفع لهم إلى المعلمين ليسرحوهم!! وكانت العادة تقضي بتعطيل التلاميذ إذا ما زار البلاد عظيم من العظماء...!

قال ابن عثمان: بعثنا للمعلمين بذلك فسرحوهم ثلاثة أيام!!

ولاشك أن ابن عثمان سر وهو يسمع الأطفال يهتفون بحياة ملك المغرب!!

ولقد شاهد هنا الهياكل البشرية معروضة للدرس، وكانت بالنسبة إليه فرصة للتدبر والتأمل في تركيب الإنسان!

وقد كان فيما زاره ابن عثمان دير للرهبان المنقطعين: كابوشيني (Cappuccini) حيث لقى منهم ترحيباً زائداً...

وقد تأثر ابن عثمان عندما نزل إلى سفلى الدير حيث شاهد المقابر (Catacombe) والموتى وقوفاً مع الجدران في أقواس داخلة في جوف الجدار، وكل واحد علقت على عنقه خشبة مكتوب فيها اسمه... ومن تساقطت عظامه يجمعونها ويضعونها فوق مرافع من كان من أكابرهم يضعونه في صندوق، وقد وقف ابن عثمان على صفوف من تلك الصناديق[1].

ومن هذا الدير انتقل لزيارة طائفة من دور الراهبات، وقد كان منهن المعروفات باسم (المونخات) سالفات الذكر..

(1) - كانت الدولة الرومانية تناهض الدين المسيحي، ولذلك كان المسيحيون في القرون الثلاثة الأولى يقومون بعملية الدفن على هذه الطريقة، في سفلى المعبد إلى أن صدر قرار قسطنطين أوائل القرن الرابع، ومع ذلك فقد بقيت تلك الطريقة تقليداً لرجال الدين والعائلات الأرستقراطية حيث كان لكل طائفة دينية أو أسرة معبد أو (زاوية) يدفنون أعيانهم بها غير أن هذه العادة تلاشت مؤخراً حيث عوضت المقابر العمومية هذا التقليد القديم.

وإن من أبـرز الصفحات التاريخية التي سجلها ابـن عثمان عن صقلية تلـك التي تتعلق بالزلـزال المهول الذي حدث زوال يـوم الأربعاء 2 ربيع الأول 1197 – 5 يبرايـر 1783 وتجـدد بعد منتصف الليل مـن يوم الثلاثاء الموالي... لقد فـر الناس بأنفسهم إلى الأجنة والبساتين ودمرت طائفة من المـدن كان في أشهرهـا مدينة مسينـة... إن حديثه عن هـذا الزلزال يظل مرجعـاً للمهتمـين بتاريخ الظواهـر الطبيعية للجزيرة بما يضمـه من أرقام وما يحتويه مـن تفصيلات وما يعبر عنه من يأس وبؤس دفعا بالسكان إلى الالتجاء إلى الكنائس طلباً للمغفرة والتماساً للعفو!

ويصـف ابن عثمان الفن الرائع والمدهش الـذي شاهده في كنيسة على بعـد ثلاثة أميال مـن المدينة تكون في صدر ما يقـوم السائح اليوم بزيارته في بالبرمو: (مونريال) Monreale لأنها فعلاً متحف على مستوى عالمي، وقـد قدم نبذة تاريخية مسهبة عن حياة غليـالم الأول والثاني، لقد أبهته ما وقف عليه هنا عن عجائب الذخائر وما عاينه من الصور المموهة بالذهب والفضـة، وما لفت نظره من الترصيع بقطع المرمر الدقيقة، وهو يستغرب مـن صمود هذا الأثر العظيم مع تقادم الإعصار... ويحكي عن مشاهدته لجثتي غليـالم الأول والثاني الموجودتين كل منهما في تابوت على حدة[1]، وهـو يفسر وجود الأضرحـة الملكية هنا بأن صقلية كانـت هي دار الملك وليـس نابل! لقـد قدم ابن عثمان صورة دقيقة جميلـة لمونريال monrenl

(1) – تعرضت كنيسة مونريال للقصف إبان حروب عام 1811 حيث أصيب أحد التابوتين بعطب وهو ما دعا إلى إعادة بنائه وإحكام الإغلاق، وهكذا فإن ابن عثمان يستأثر دون غيره بتقديم لما قبل قرنين من الزمن.

قبـل أن تستيقظ حاسة الجهات السياحية لذلـك، وأنا على مثل اليقين من أن سفيرنـا زار أيضـاً (الكابيلا البلاطية) التي تعتبر قمـة للفن، وزار أيضاً الكاتدرال التـي تحتضن قبر فريديرك الثاني، ولكـن ضياع مبيضته الأولى حرمتنا من إعطاء وصفه لهذين الموقعين الجميلين... كما تسبب في تأخير أو تقديم بعض الأحداث عن مكانها اللائق بها.

ويتخلص ابـن عثمان مـن هـذا التاريـخ إلى بداية ظهـور المسلمين بالجزيـرة، ويلاحـظ أن السفير المغربي أجمل الحديـث عن المحاولات الأولى التـي تمت أيـام الخليفة عثمـان ابن عفان حـوالي سنة ثلاثين من الهجـرة 650م أجمله في قوله إن النـزول الأول تم أيام مروان بن الحكم سنة 64 – 684 وأن الفتح تتابع وتوالى ولكن من غير أن يردد اسم زيادة الله الـذي أرسل سنـة 212 – 827 بقواته بقيادة القاضي أسد بن الفرات دفـين (باليرم) الذي نـزل في (مـزارة) أولاً ثم (سرقـوزة)... وبعد أن يستعرض تاريخ المسلمين فيها وانسيابهم في اتجاه روما وغاراتهم على جميـع بلاد (ليطاليا) على حد تعبيره يصـل إلى الظروف التي ظهر فيها روجـيرو النورماندي وما صحبها من حـروب وفظائع أدت إلى النهاية –وخاصة أيام فريديريك الثاني– إلى إجلاء المسلمين نهائياً عن ديار نشأ بها جدودهم وأسلافهم!

وقد وقـف ابن عثمان طويلاً أمام سطو النورمـان وتسلطه، وكان عليه أن يلوذ بالآيات والأمثال ويستلهم بالعظات والحكم ليتغلب على مشاعر الحـزن والأسـى إزاء تلك الأحـداث الجسام، وكأني به يـردد زفرات ابن حمديس عندما قال:

ذكرت صقلية والأسى

يجدد للنفس تذكارها

فإن كنت أخرجت من جنة

فإني أحدث أخبارها!

ولولا ملوحة ماء البكا

حسبت دموعي أنهارها!!

وقد دفعه هذا الحديث إلى تفقد آثار المسلمين الباقية هناك بعد أن قضوا فيها بضعة قرون... وهكذا وقف على آثار لمسجد كبير تغير عن حاله الأول[1]، كما رأى بظاهر المدينة بحيرة كبيرة نعتقد أنها البحيرة التي تغنى بها الشاعر عبد الرحمن الأطرابنشي[2]، هذا إلى حمام كان أحد مرافق (المنزه) المجاور الذي كان -فيما يقول ابن عثمان رواية عن الناس- من منشآت مروان ولو أن الرواية اليوم تحكي أنه من منشآت جعفر الكلبي قبل أن يوسعه روجيرو الثاني.

ولم يعدم ابن عثمان من يناظره بلغة عربية فصيحة[3] حول مواضيع

(1) – القصد إلى كنيسة القديس يوحنا شفيع النساك (San Giovanni degli Eremiti) وهي التي بناها روجار الثاني ودشنها القديس المذكور والتي يقول الدكتور مورينو عنها إنها تشبه جامعاً تقام فيه صلاة الجمعة!

(2) – الأطرابنشي نسبة إلى مدينة طراباني (Trapani) غربي الجزيرة وهو يقول:

فوارة البحرين، جمعت المنى
عيش يطيب، ومنظر يستعظم

قسمت مياهك في جداول تسعة
يا حبذا جريانها المتقسم

في ملتقى بحريك معترك الهوى
وعلى خليجيك الغرام مخيم

(3) – نميل إلى الاعتقاد بأن هذه المناظرة كانت له مع زميله الراهب فيلا السابق الذكر أو على الأقل بمساعدته.

فلسفية معقدة، ولا شك أن وجود مثل هؤلاء المستشرقين على ذلك العهد ينم عن الاهتمام بقوم تركوا لهم في صقلية جذوراً عميقة يعبر عنها الكلم والصورة، ويترجم عنها الطبع والعادة...

متن الرحلة...

الوصول إلى بلرم

فقصدنا مرسى من مراسي صقلية، يقال لها بلرم[1] سافرنا إليها يوماً وليلة وأرسينا بها. وحللنا في جنابها، فلما أرسينا بالمخاطف، وأمن الوجل الخايف تهادينا بشرى السلامة وعددنا النجاة من تلك الأهوال كرامة، فأتت إلينا الفلايك من المدينة تستفهم رئيس المركب على العادة، فأخبرهم أنه من الجنس الفلاني حاملاً بشطور[2] المسلمين، فرجعوا إلى كبير البلد في الحين، ثم أقبلوا إلينا مع جماعة من الأعيان فرحين، وقالوا: الحمد لله الذي أقدمك علينا وأتى بك إلينا. ثم ترادفت أعيان البلد للسلام علينا في المراكب، يتزاحمون بالمناكب، ثم ورد نائب الحاكم وقال: إن حاكم البلد يسلم عليك، وهو يعرض عليك النزول في بلادنا للاستراحة إلى أن يصحو الجو ويصير البحر رهواً، ويستكمل كل القوم برؤيتكم سروره وأفراحه والدار لنزولك قد أوجدناها وفرشناها وهيأناها فعزمت على أن لا أنزل بدار لا منزل،

(1) — يرسمها الناسخ دائماً بررم بالراء بدل اللام سواء في مخطوطة (المكتبة الملكية) أو (الخزانة العامة).

(2) — بشظور أو باشدور محرفة من الإيطالية (Ambasclatorl).

وأن أبقى عنهم في المركب بمعزل! ثم تأملت حال أسارى المسلمين الذين معي في المركب فوجدتهم في عذاب أليم من كثرة الازدحام، مع العفونات التي بالمركب والأوخام، فرأيت النزول بهم إلى البر يتعين للأمر الذي عرض، خشية عليهم من العفونة وقلت لهم نزولنا يكون إن شاء الله غداً فبتنا تلك الليلة بالمركب، ومن الغد وردت من المدينة فلايك مستكملات الزينة وتقدم فيها جماعة من الأعيان بقصد مصاحبتها ومرافقتها فتأهبنا للركوب في الزورق المزين، الذي هو لركوبنا معين، فلما استوينا عليه أخرج صاحب المركب من المدافع ما لديه، ثم توجهنا إلى ساحل بحر البلد، فوجدنا النصارى به كأنما حشر منهم الوالد والولد، ووجدنا أكداشاً على ركوبنا موقوفة، وخيلاً مصفوفة فركبنا وركب من معنا وتقدمت الخيل أمامنا مصلتي السيوف إلى أن وصلنا للدار المعدة لنزولنا فإذا ببابها من العسكر صفوف، ثم دخلنا ودخل من معنا من أعيان البلد حتى استقر بنا المجلس وأرونا جميع ما أعدوا هناك، ثم أقبلت طوائف أهل الغناء والطرب، حتى امتلأ بهم القصر واضطرب ومن الغد وردت أعيان البلد وأكابرها بقصد رؤيتها والسلام علينا نساء ورجالاً.

زيارة حاكم الجزيرة للسفير المغربي

ثم بعث حاكم البلد وهو عامل الجزيرة كلها يستأذن في القدوم علينا للسلام ويطلب تعيين الوقت لذلك، فعينت له الوقت. ومن الغد لما وصل الوقت المعين أقبل في كدشه، وتلته أكداش فيها الأكابر، وتقدمته الخيل

مثل ما يفعل مع الطاغية[1]، فدخل الدار وصعد إلينا وأدخلناه موضعاً كما هي العادة، ودخل معه قومه وأظهروا من الفرح بقدومنا ونجاتنا من البحر وأهواله ما ظهر أثره عليهم وبقوا معنا هنيئة يتحدثون ثم أرادوا الانصراف فاستأذنونـا، فأذنا لهم وشيعناهــم، فركب في كدشه وسار على هيئته التي قدم عليها.

زيارة أعيان المدينة للسفير

ثــم ورد رسول أهل البلد وقــال: إن أهل المدينة يريدون القدوم عليك بقصد السـلام ويطلبــون منك أن تعين لهم الوقــت الذي يأتون فيـه فأجبناهم إلى ما طلبــوا فلما وصل الوقت سمعنا دوياً عظيماً ومزامــر وطبولاً وارتجت المدينة، فسألــت عــن ذلك فقيل: هؤلاء أهــل البلد وردوا بقصد السلام فــإذا بأكداش مستكملــة، تبعهم من النصارى مــا لا يحصى عدده ولا يدرك غايته ولا أمده، إلى أن وصلوا الدار فأدخلناهم، ولما قربنا من القبة المعينة للملاقاة، تأخر جميع القــوم وتقدم منهم ثلاثة أناس لابسو السواد فجلسوا معنا على كراسي نصبت لذلك، وتكلم أحدهم بما معناه: إننا جئنا نائبين عن أهل البلد في السلام عليك، وإنهــم قد فرحوا بقدومك عليهم، والبلاد بلادك وعليهم في كل ما تريد منهم إسعافـك وإنجادك اقتداء بسيرة الملك معــك حيث أجلك ورفعك فقابلناهـم بما يجب أن يقابلوا به وودعناهم وانصرفوا على هيئتهم التي وردوا عليها.

(1) – الطاغيــة لقلــب كانت الحكومة المغربية تعبر به عن ملوك أوروبــا ولم يستبدل إلا بعد أن توصل إلى اتفاق بتحديد الألقاب المستعملة، وقد قدمنا عن رأي الفقهاء حول اللفظ.

وصف بلرم

وهــذه المدينــة مؤسســة على ســاحــل صقلية من جهة الجنــوب[1] وهي كبــيرة كثيرة العمارة قيل: إن فيها مائتين اثنتين وأربعين ألفاً من المخلوقات وبهــا يكون مثوى خليفــة الطاغية على الجزيرة كلهــا يسمونه أي الخليفة بيزالري[2].

الحديث عن جزيرة صقلية

وهــذه الجزيرة كثيرة الخيرات والأجنات والبساتين والمياه، كثيرة الزرع ومنهــا يجلب لجميع بلاد النصارى، ودائرتهــا سبعمائة ميل[3] وهي مثلثة الشكل.

عودة إلى وصف بلرم وتصميمها

وأما هذه المدينــة ففيها من الأجنة والبساتين مع إتقان وأغراب ما يعجز الماضــين والآتين[4] بلغت من النظــارة والاستحسان أن لا يصف حقيقتها اللســان، ويشــك فيها أن تكون من عمــل الإنسان! ما شئــت من تزويق في النبــات تعجز عن إدراكه شفا الأقلام، ويظــن ناظره أن رؤيته أضغاث

(1) – يلاحــظ أن بالــيرم تقع شمال الجزيرة وربما كان ابن عثمان يعتمد على خريطــة الإدريسي الذي كان له تاريخ حافل بهذه الجزيرة والذي كان يرسم الشمال جنوباً والشرق غرباً على ما هو معلوم. ومن الراجح أنه يقصد جنوب نابولي.

(2) – بيزالري عن اللاتينية (Vice el rie).

(3) – لقد أعاد ابن عثمان بعض هذه المعلومات في الورقة 260 من المخطوطة.

(4) – نلاحظ أن ابن عثمان يعتبر الفن الصقلي تحدياً للأمم الأخرى في الماضي والمستقبل كذلك.

أحلام ومنــازه ومقاعد على كل بستان مشرفات، تنسيك من الدنيا ما هو موجــود منها أو فــات، فقد رأيت بستاناً غرسه صاحبــه على شكل الدار بقببهــا وطرقها وجدرانها من النبات وسقفها كذلك، ومنزهاً قببه مسقفة بصفائح البلور، وقد دخلت إلى بستان امرأة من الأكابر فقالت: إنها بلغت مــن الإنفاق عليه خمسين ألف ريــال. ولهذه المدينة منظر عجيب ومرأى غريــب قد قسموها علــى أربعة أقسام بأن اختطوا طريقــاً من أحد أبوابها إلى البــاب المقابل له في غايــة الاستقامة ثم قسموها بطريــق آخر مستقيم مــاراً من أحد طرفيها إلى الآخر وجعلــوا في مجتمع الطرق بوسطها براحاً متسعــاً مستديراً وفي وسطــه بركة ماء في شكل أنيــق، والطرق المذكورة كلها أسواق.

إطراء لأخلاق السكان

ولأهل المدينة بشاشة (وطلاقة) وحسن خلق ولهم اعتناء بمن يفد عليهم، فبينهم وبين أهل (نابل) فرق كبير، وما أحق أهل (نابل) يقول القائل:

فــأمــا أرضــهــا فــأجــل أرض

وأمــا ناسها فأحسن نــاس!!

وقــد فرح بنا أهل المدينة وأكرمونا غايــة الإكرام وأهدونا سوابغ الأنعام وأنسونــا غربتنا وأنسوا وحشتنا فلم يدعوا فرجــة إلا أوجدوها ولا نزهة إلا جددوها ويبحثون فإن أعجبتنا أعادوها! فقد بعث إلينا حاكم البلد مع جماعة من الأعيان وقــال: إننا قد هيأنا اليوم فرجة بالليل، ونريد منك أن تحضرها فثقل علي ذلك، ثم تأملت وعلمت أن القوم إنما صنعوا ما صنعوا

بقصد إكرامنا والتنويه بقـدر سيدنا المنصور أمامنا! فتتعين مساعفتهم ولا تناسب مخالفتهـم، وإلا فتتطرق الألسنة بما قيل فيمن لا يقبل الكرامة، ولا يألونـه عتاباً ولا ملامة، فأجبتهم لما طلبوا، وحضرت ناديهم فيمن جمعوا وجلبوا.

مشاهدة الأبيرة

فـإذا دار كبيرة لها طبقـات مشرفات على سفليها مثل الـدار التي تقدم ذكرها في (نابل) المسماة بالوبرة[1] بلغتهم و(الكميدية)[2] بلغة الصبنيول، وأوقدوا بها شمعاً كثيراً وحضرها الأعيان والأكابر من الرجال والنساء، ثم شرع أصحاب الموسيقى في استعمالهـا بأصوات وألحان أعجمية متناسبة متناسقة، ثم رفـع الحجاب الساتر فكشف على دار غريبة الشكل من رقة صنائعهـا ودقة بدائعهـا ينقلب إليك البصر خاسئاً وهـو حاسر، ثم برزت فتاة هي المعلمة ومعها جماعة من الخدمة والأعوان، صنوان وغير صنوان على شكل واحد من اللباس فلا تكاد تميزهم من الالتباس، فأتوا من أنواع اللعب بما كلف به كل واحد منهم وتعب، فطوراً يرقصون فتراهم يزيدون فيـه ولا ينقصون ويتقدمون وينكصون، فأغربـوا من لعبهم بما كاد يكون محـالاً، أو تقـول الإنس جنـاً استحال! ثـم يرخي الستائـر ويصفر صافر فيرفـع عن أشياء مخالفة لمـا كان، وتستبعد في الوجـود والإمكان من ديار

(1) – الأوبرة (Opera).
(2) – الكميدية (Comedia).

ومقاعد وأناس من قائم وقاعد، وطريق مستطيل وآونة البحر والأساطيل أساطيل وليس لجميع ذلك حقيقة إلا زخارف الفعل والأباطيل! وتارة تبرز للحرب الأمراء والعساكر، فلا تسمع إلا وقع المهند الباتر، وآونة يبرز رجل متيم عاشق أخو دنف، أشرف على التلف، ومعشوقته لا تريه إلا الإعراض عنه والميل والجنف، بينما هو سراً وجهراً يستعطفها فيأتي آخر فيحتملها ويختطفها ولعبهم في هذا المعنى ليست له غاية، ولا أحد ولا نهاية ولما قرب دخول صيامهم الذي يسمونه (الكريجمة)[1] زادوا لعباً آخر في الديار المذكورات وفرجات يستعملونها مثل (شعبانة)[2]، فتجد الأسواق كلها مغلقة بصور أوجه من الكتان المشمع على شكل الوجه الآدمي، لها أنف وثقبتان في مقابلة العينين فيشترونها ويجعل واحد على وجه واحدة من ذلك ويغيرون لباسهم نساء ورجالاً ويقصدون الديار المذكورة ليلاً مختلطين، ولا يعرف أحد الآخر إلا من كان مرافقاً مع أحد أو عمل أحد مع آخر علامة يميز بها بعضهم بعضاً، وتجدهم في تلك الديار يرقصون رجالاً ونساء ولا يتعارفون ومن الغد يتحدثون بذلك ويسأل بعضهم بعضاً في أي موضع كان وما لبس وإن عرف أحدهم الآخر يقول له عرفتك وميزتك ولهم بذلك اعتناء مكين وأما ما في ضمن ذلك من الفساد فشيء ظاهر مشهور، من سالف الدهور، والأعوام والشهور، على

---

(1) – القصد إلى صوم الأربعين (Cuaresma) وهي الفترة الواقعة بين (أربعاء الرماد) ويوم الأحد المسمى (أحد الأغصان) ممدتها أربعون يوماً، ويقع أربعاء الرماد يوم 23 يبراير حيث كان ابن عثمان أثناء مقامه الثاني، أما أحد الأغصان (D – mingo de Ramos) فيقع يوم 3 أبريل وهذه التواريخ تتغير سنوياً.

(2) – شعبانة يقصد بها في المغرب الأيام الأخيرة من شهر شعبان وهي تتميز باحتفالات وأفراح احتفاء بشهر الصوم، وهو يتحدث عن أيام (كرنفال) Camaval الثلاثة التي تسبق أربعاء الرماد (Microles de Ceniza).

أنه في شريعتهم منكور! وقد ألممنا به في خبر (مالطة) المتقدم ذكرها المشهور نكرها. وبهذه المدينة رأينا هذا اللعب أكثر من ذلك فتجد هذه الدار المعدة للعب تمتلئ ليلاً من هؤلاء القوم الذين يغيرون لباسهم وأشكالهم عجل الله نكالهم، فيرقصون نساء ورجالاً ويجعلون لمنتهى ذلك طلوع الشمس آجالاً! وهناك دار معدة للمآكل والمشارب وغير ذلك من المشارب فمن أراد شيئاً من ذلك من القوم يدخل الدار فيأكل ويشرب ويخرج فيرقص ويطرب. وأغرب ما رأيتهم صنعوا في هذه الدار أنه كان بإحدى زواياها براح متسع كبير مرتفع على الأرض بنحو نصف قامة وهو من الخشب وبه يكون اللعب فعمدوا إليه وأنزلوه حتى تساوى مع الأرض وزادوا في جانبيه ستة عشر مقعداً على شكل مقاعد الدار موازياً لمراتبها وطبقاتها وأوقدوا بها الشمع مثل المقاعد الأخرى وأكروهم[1] ممن يقعد فيهم بقصد التفرج، وهذا العمل كله فعلوه في نصف ساعة ولا يمكن فعل ذلك على ما هو معتاد من الخدمة في يومين بلا مين، وتغيرت الدار وخرجت عن حالها بحيث أن لو دخلها إنسان، ولم يضع ذلك أمامه لما عرفها. ومن حضارة هؤلاء القوم أن الخدمة يترددون بكؤوس الماء البارد العذب، ويتخللون صفوفهم فمن أراد أن يشرب يناولونه، وذلك لازم لرب الدار القيم عليها، وكل من يدخل إلى تلك الدار فعليه أداء كراء معين: للطبقة السفلى قدر معلوم وللمقاعد المرتفعة، قدر معلوم على اختلاف طبقاتها وقد رأينا لعبهم هذا عدة مرات متعددات.

(1) - يعني أكروها... من يقعد فيها.

زلزال صقلية.. 5 يبراير 1782

حتى وقعت زلزلة في يوم الأربعاء ثاني ربيع الأول من سنة تاريخية[1] عند الزوال، فاهتزت المدينة، ووقعت أيضاً ليلة الثلاثاء تليه بعد نصف الليل، فانزعج أهل المدينة كلهم وفروا إلى الأجنة والبساتين ووقعت عدة مدن في جزيرة صقلية وأعظمها وأشهرها مدينة مسينة، مؤسسة على المجاز الذي بين صقلية والبر الكبير، لها مرسى عجيب، قيل إنه لم يكن مثلها في المراسي، وبعث أهل هذه المدينة إلى بلرم المدينة التي كنا فيها يستغيثون أن يبعثوا لهم الخدمة والميرة لأن كان ما عندهم من القوات وقعت عليه الجدران! ووقعت بهذه الزلزلة أيضاً عدة مدائن في البر الكبير في الأرض المقابلة لصقلية التي يسمونها (كلابرية) فمن قائل خمسون مدينة، ومن مقلل ومن مكثر، وأما الأموات فتركناهم ولم يضبطوا حسابهم فالمكثرون يقولون: مائة ألف والمقللون يقولون: عشرون ألفاً.

وأما ما ضاع من الأموال فقد اضطربت فيه الأقوال، وقد عمت العدو الكافر من هذه الوقعة المصايب وأصمى بسنه السهم الصائب، ومن بعد ما خرب الوجار، أعقب التخريب، حريق النار حتى ستر القتام مطالع الأنوار فخذل الله حامية الكفر التي يعيي عدها الحساب وأهلكهم، فكل أخذ تحت الردم رمسه فانصاب، ونكست هذه المدينة

(1) – كان ذلك يوافق 5 يبراير 1782 ويلاحظ أن هذا الحادث وقع عند المقام الثاني للسفير بصقلية ولكنه أثبت ذلك هنا أثناء المقام الأول نظراً فيما يبدو لضياع مبيضته الأصلية وسهوه عن تسلسل التاريخ.

رؤوس أبراجها التي بالسحاب تعصبت، ولحماية الكفر تبرجت وتعصبت، فاستأصلها العفاء وجللها غرقاً البحر فأباد أهلها ومن نجا منهم نفي.

وحقت عليهم كلمة الله التي لا ترد ولم ينفعهم قولهم (يا ليتنا نرد)، وبقيت رسومهم ورموسهم وجسومهم ورؤوسهم عبرة للمعتبرين، وآية للمستبصرين وتذكرة للمسافرين وقُطع دابر الكافرين. ولما حل بهم هذا الخطب الجلل الذي أكسب الفرق والوجل نزعوا عن الفرجات وما كانوا عليه من الهزل معتكفين ورجعوا وأنابوا إلى الله خائفين وأغلقوا تلك الديار وفتحوا الكنائس والبيع واجتمعت الرهبان والأساقفة ووعظوا وحذروا مما وقع في الأيام السالفة، وبعث الطاغية عدة مراكب إلى أهل مسينة حاملة الأقوات والأدوية والأطباء وآلة الخدمة والبناء، وبعث إليهم كبير مالطة أيضاً عدة مراكب فيها الأقوات والأفرشة والمال النقد بقصد إعانة الطاغية ليتخذ عنده بذلك يداً، فأما الأقوات والفرش فقبلها منه وأما المال فرده عليه.

الصيام عند المسيحيين

وأما صيامهم الذي ذكرنا فإنما هو إمساك عن أكل اللحم وما يخرج منه مثل اللبن والسمن والجبن والبيض، فأما اللبن وما ذكر معه فإنهم يبيحون أكله بإعطاء نحو الدرهم أو الدرهمين على كل فرد من النصارى يشتري به (البولة)[1] أي الأذن في أكله. وإلا فلا، وأما اللحم فلا يأكله إلا المريض الذي

(1) – القصد بالإسبانية إلى (Bula) وهي كل أمر صادر عن البابا وكل رسالة موجهة لعموم النصارى.

يشــير به عليه الطبيب، وربما يباح للعسكر إن كانت حرب[1] ويأكلون ما عدا ذلــك من السمك والخضــر والزيت والخبز، فيأكلــون في منتصف النهار أكلاً ذريعــاً ويأكلون في الليل ما خف ويشربون المــاء مطلقاً ويستعملون كطباق[2] وعــدة صيامهــم ستة وأربعون يومــاً فحيث يكملون أربعين يومــاً يستعملون الأعيــاء ويحكون فيها مــا وقع للمسيــح عيسى عليه الســلام في زعمهم مع اليهود وقد ذكرت ذلك مستوفى في رحلتنا (الإكسير في فكاك الأسير)[3].

نظام الإرث

وأمــا إراثتهم فإذا هلك هالك وترك مالاً وأولاداً فإن ولده الكبير يحيط بجميع متخلفه وليس لإخوانــه الصغار إلا الأكل والكسوة كما كانوا في حيــاة أبيهم ومن أجل ذلك يترهبون لا رغبة عن الدنيا وعن طيب نفس[4] وإذا كانــت له أخــت فإنه يعطيها ما تتزوج به لأن المرأة عندهم تعطى مالاً معتبراً للزوج ليأخذها ولا يتزوج عليها بعد ولا يطلقها.

مغادرة ابن عثمان لصقلية المرة الأولى

ولمــا أقمنا في هذه المدينة ستة وعشرين يوماً أتى رئيس المركب وقال: إن

(1) – يقصد ابن عثمان بولة الحرب الصليبية (Bulla de la Crusada).

(2) – طباقو أو طاباقو (Tabaco) يعني النبات الذي يستعمل في التدخين أو يستعمل مسحوقاً.

(3) – نشر هذه الرحلة الأستاذ محمد الفاسي رئيس جامعة محمد الخامس ضمن منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي 1965 على ما أسلفنا.

(4) – يتحدث الدكتور مارتينو أن (حق البكورية) هذا كان يجبر الأصاغر على المهاجرة والارتزاق بحمل السلاح! المسلمون في صقلية 1957 ص 17.

ريح السفر قد تنسم وثغره قد تبسم، فتأهبنا للمسير واعتمدنا على من العسير عليه يسير، وركبنا عشية ذلك اليوم، وما درينا بأننا نرجع على أنفسنا بكل عتاب ولوم، لأننا توهمنا أن الريح موافق، فغرنا فاستنفرنا فركبنا فسافرنا فاعترضنا فبان أنه منافق، فما سافرنا إلا نحو ثلاثين من الأميال، حتى اعترضتنا الأهوال، وأمواجٌ كالجبال، والرياح تقول: إلى أين بألسنة الجبال، فبقينا خمسة أيام نترجى من هذا الهول العظيم انكشافه، وننتظر أن يأتينا الله بريح خلافة، حتى عظم الأمر وتوقعنا الوقائع، وخشينا الخوف الذي يحار فيه الرافع ونحن وسط ذلك المركب يضرب بعضنا ببعض لا نستطيع أكلاً ولا شرباً ولا صلاة نفل ولا فرض، والقوم صرعى الأذقان لا يبينون كلاماً ولا حرفاً، كأنما سقاهم الحانوتي صرفاً، وأذاقهم الحمام حتفاً، فناديت على الرئيس وهو من الحيرة يئيس، فقلت له ما الرأي، ما التدبير، فأنت بهذا الفن بصير، وهل عندنا مع الشقة مسير، فقال إلا أن يأتينا به اللطيف الخبير، فلما رأيت تقلبنا في البحر بلا فائدة وأن لبثنا فيه محنة زائدة، لجسومنا بالضرر عائدة، وإن مصادمة جبال الأمواج فوق البحر الأجاج، واليم العجاج لمن الحمق واللجاج.

العودة إلى صقلية

فأشرت إليه بالميل إلى مرسانا حتى يجعل الله لنا سبيلاً، واتخذت قوله تعالى (وهو الذي يسيركم في البر والبحر) برجوعنا كفيلاً، فوصلنا المرسى، بعد مكابدة خطوب لا تنسى، فورد أهل المدينة مهنئين بالسلامة وأعدوها من كثرة ما عاينوا من الأهوال كرامة، وقالوا، الدار الذي كنتم

فيها لا زالت بصددكم فانزل إليه حتى يأتي الله بما يوافق سفركم، فرأينا أن ذلـك يتعين لما ذكرنا من أوخام المركـب وتبين، فنزلنا وأنزلنا من كان معنا من المسلمين.

حضور السفير حفلة استقبال بمناسبة عيد الملك كارلوس الثالث

وفي عشية ذلك اليوم بعث إلينا حاكم البلد وأعيانها وقالوا إن في هذه الليلـة عندنا جمع كبير بدار الحاكم، وهذه الليلـة ازداد في الطاغية[1]، وفي كل سنـة عنـد وصول اليـوم المذكور يكون عندهـم عيد فيجتمع في دار الحاكـم الأعيان والأكابر مـن الرجال والنساء ويوقد بها الشمع الكثـير إلى الصبـاح من المسـاء، فلم نجد بداً مـن مساعفتهم لكوننا في ضيافتهـم، فتوجهنـا إليهم بعد صلاة العشاء فتلقانـا بباب الدار ولدان بأيديهم الشمع وصعدنا إلى فوقي الدار لكون الجمع به فوجدناها بضياء الشمع تتوقد، ومن كثرة ما فيها من النصارى يضل الإنسان عن صاحبه ويفقـد فنهضوا للسلام جميعـاً وأظهروا فرحاً وترحيبـاً فلا تسمع إلا إعـادة الترحيب وترجيعها، ثم أتى حاكم البلد فأعاد السلام ونهض بنا إلى موضـع أعده لجلوسنا فوق مراتب القوم، وقالوا: هذه مرتبة الحاكـم لأنـه لا مرتبة فوق مرتبته في هذه المدينـة، ولو لم تحضر لجلس بها، فلما حضرت فأنت أكبر منه مرتبة فتجلس بها! فلما أخذت الناس مواضعها

(1) – القصد إلى شارل الثالث الذي ازداد يوم 20 يناير، وقد كان لقب الطاغية مستعملاً قبل أن يعدل عنه إلى اللقب المتفق عليه على ما قدمنا وهذا العيد يحمل عندهم تقبيل اليد (BESA LAMANO).

أتت الخدمة بأواني الفضة ففرقتها على جميع من حضر، ثم تلتهم خدمة آخرون بأيديهم كؤوس الأشربة المعقودة على الثلج فناولوها جميع القوم وبدءوا بنا حتى روى كل من في المجلس واستكفى، وقد جاوزوا ألفاً، ثم شرع أهل الغناء والطرب في استعمال نغمات رقيقة وأصوات حسان من حسان لطيفة أنيقة، بتعذيب القلوب خليقة، ثم جعلوا يرقصون على الترتيب الأكبر فالأكبر، كل رجل يرقص مع امرأة مكافئاً لها، فأول من فتح الرقص الحاكم وامرأة من الأكابر، ذكر بعض الحاضرين من النصارى أن مدخولها كل سنة مائتا ألف ريال، ثم تتابع الرقص وتوالى وحمي الوطيس فاتخذوا له مجالاً حتى تعبن[1] الخود ورش من عرقهن ما من وجناتهن تورد! فنصع وتجدد، والقوم في غمرة ساهرون وكل فريق بحسائه يباهون وهم عن الدنيا والآخرة لاهون، ومما تعب القوم أديرت عليهم الكؤوس والأواني، بلا مهلة ولا تواني، فيستريحون ويشربون، ثم يرقصون ويطربون، وقد بالغ هذا الحاكم في الإكرام بما عم الخاص والعام حتى أشفقت عليه، قال بعض النصارى إنه له مدخول[2] كبير من قبل الطاغية على القيام بوظيف هذه الليلة، فلما رأيت أن القوم قد خالطتهم من النوم عساكر، وهم بين صاح وساكر[3]، مستحسن لكل مليحة وشاكر، ولا ناهي ولا ناكر، علمت

(1) – الصواب قراءة هذه الجملة هكذا: حتى تعب هؤلاء الخود، ورش من عرقهن ما.. يراجع التمهيد.

(2) -- المدخول يغني المرتب المالي.

(3) – قارن هذا مع حكاية ابن عثمان عن سهرة قضاها في (نابل) كانت بطلتها ابنة الوزير التي سحرت الحاضرين، قال وهو يمهد للرغبة في الخروج ولما رأيت القوم ممنوعين من الصرف، للعجمة والتأنيب في الوصف...

أنها ليلة مناكر فشمرت للمسير في بقية الليل قبل أن يشمر قوم لآخرين الذيل! وتركتهم نساء ورجالاً مختلطين، وما أدرى ما يفعل بعدي، أظنهم يصبحون كالكلاب مرتبطين!!

زيارة النادي ومبارزته في الشطرنج

وقد استدعانا ذات يوم أحد الأكابر من هذه البلد وقال: إن أعيان البلد طلبوا منك أن تأتي إلى دارهم التي يجتمعون فيها لتنظرها، وذلك أن لهؤلاء الأكابر داراً يجتمعون فيها نساء ورجالاً كل ليلة بقصد التآنس والمحادثة ولها وكلاء يقومون بوظائفها من فرش وكراسي وإيقاد الشمع وصنع الأشربة والحلاوي لمن يرد من الأكابر، فمن أراد منهم أن يأتي فليأت ومن ثقل عليه أو كان له شغل فلا يلزمه الإتيان إلا أنه يلزم كل فرد أداء قدر معلوم رأس كل سنة ومن مجموع ذلك يصرفون على الدار المذكورة ما ذكر مع أجرة الخدمة ونحو ذلك، فلما طلبوا منا القدوم عليهم، وقد سمعوا برؤيتنا في دار الأكابر بنابل، ما أمكن إلا مساعفتهم فتوجهنا إليهم بالليل فوجدناهم بباب الدار وقوفاً وقد أوقدوا بها شمعاً كثيراً وفرحوا ورحبوا ترحيباً كبيراً وأدخلونا الدار وأرونا جميع ما فيها ومقاعدها ومراقبها، ووجدنا بها جمعاً من الأعيان نساء ورجالاً فبعضهم يتحدث وبعضهم يلعب اللعب المسمى بالكارطة بأوراق فيها حساب ووجدنا اثنين من الأكابر بينهما رقعة الشطرنج وهما يلعبان وقد اتفق أن كانا بالقرب منا فأمعنت النظر في لعبهما فسألني أحدهما: هل نلعب هذا اللعب في بلدنا فقلت له: كثير، فقال هل تعرفه، وقد كانت

تقدمت به معرفة فقلت له: نعم وما دريت أنهم يحتمون علينا لعبه، فما شعرت حتى طلب مني أحد الخصمين اللعب معه فقلت له: لا ألعبه، وهذه سنون بيني وبين لعبه، فألح علي وجعل يتشفع، وكلما امتنعت زاد في الرغبة حتى أفضى به الحال إلا أن جمع أهل الدار وأتى بهم شفعاء، فما أمكنني إلا إجابتهم لما طلبوا وقبول شفاعاتهم فيما رغبوا، لئلا تظن بي الظنون ويتوهم المبطلون أو يقال: إن تأخري من كثرة الرجف أو فرار من الزحف، وقد كانت تقدمت معرفة به زمن الصبا وقد علمت أن التعلم في الصغر كالنقش على الحجر، لكنني خشيت من هذا الطالب أن يكون هو الغالب لأن الحرب كما علمت دول وسجال وكم تلفت فيها من الأبطال والرجال، فالأخذ بالأحوط أولى، فعلاً وقولاً، فنظرت إلى جهة صاحبه ومسايرة ملاعبه فوجدته قد توجه عليه الغلب، فما بقي إلا لعبة أو لعبتان ويكون عليه المنقلب فقلت له: أكمل معكما هذا الزحف الذي شرعتما فيه وأتمم معك لعبه وأوفيه، فقال هذا مغلوب، فأرنا لعباً آخر من بر العدوة مجلوب، يشير إلى لعبنا معه من أول وهلة وأحضر لذلك قومه وأهله فقلت له لا أتمم معك إلا هذا الذي بينكما جبراً لخاطر كما وقصدي بذلك أنه إن كان الغلب له لم يحكم به لأنه حكم بغلبه وإن كان الغلب لنا كان أضر عليه وأنكى وأضحك جانبنا وجانبه أبكى، فجلنا في ذلك الميدان بعاكر العيدان، فأعطيته البيذق الذي في طرف الميمنة وبقي مجال الرخ عارياً وهو يتمطى بما ظهر له من الغلب ساهياً فأتيت بالفرز إلى الميسرة في الوادي، وفتحت طريقها وأخذت لذلك استعدادي، فما كان إلا كجولان طرف، وإذا بالشاه مات بالفرز في حمى الرخ في

الطـرف، فبهت وانقطع، ورمى الإقطاع مـن يده ووضع وسقط واتضع وثدي الخزي رضع، وظهر نصر الله ونصع ثم استغشى ثيابه كالقنفوذ إذا قبع، وقلت هذا لعب العـرب الذي طلبت حتى جلبت من أجله الشفعاء الذيـن جلبت، فاشكر لي ما بقيت وتذكـرني ما حييت! وطافت به القوم يستفهمونه عن شجاعته ونجدته وبراعته، وكيف وقع عليه الغلب لساعته بمحضـر أسرته وجماعته، وكلمـا رام إبداء عذر سكت، ثم انتهر وبكت، وكان كمن جنى على حتفه بظلفه، فبقي يشخص ببصره ويحدق ويقول: البـلاء موكل بالمنطق، هذا جـزاء من تعلق بعسى التوقـع، وليت التمني، ولعـل الرجاء وأن من صمت نجـا، وعاهد نفسه ألا يطلب البراز من عابر سبيل مجتاز على أوجاز.

زيارة كنيسة سنتمرتيل

ومـن الغريب ما رأينا بهذه المدينة كنيسة يقـال لها (سنتمرتيل)[1] وهي كنيســة منعزلة كالدير بينها وبين المدينة نحو سبعة أميال مؤسسة بين جبال لها بناء عظيم وعمل جسيم يسكنها قوم من الرهبان من أبناء الأكابر فقط، فلما وصلنا إليهم فرحوا بنا فرحاً شديداً وأدخلونا الدار فإذا هي دار كبيرة علـى شكل المدرسة في بيوتهـا وطرقاتها إلا أن طرقاتهـا واسعة وغاباتها شاسعــة وبيوتها في الكبر مثل القبب ومقاعـد ورتب، وقد أرونا جميعها وأدخلونا خزانة كتبهم، فإذا هي خزانة بهية وفيها عدة من كتب المسلمين

(1) – هكذا يرسمها سنتمرتيل في المخطوطتين والقصد إلى (San Martino).

رحمهم الله، وقفت على سيرة ابن سيد الناس اليعمري بخط شرقي قديم[1] وبعض كتب الطب، ولا زالت الخدمة بهذه الكنيسة إلى الآن لأنها كانت كنيسة في القديم فلما استولى المسلمون على جزيرة صقلية هدموها وبقيت كذلك إلى أن بناها هؤلاء القوم.

الثوب الذي لا تحرقه النار، والمعروضات الأخرى

ومن الغريب ما رأينا بهذه الكنيسة ثوب لا تحرقه النار مستعمل من الحجر فأروني الثوب واستبعدت أن يكون من الحجر، فأخرجوا حجراً وفي وسطه شيء مثل القطن فقيل: هذا الثوب من هذا وأرونا حجراً آخر وفيه شكل حوت ذهب لحمه وبقيت عظامه لازقة بالحجر وقالوا: إنهم وجدوا هذا الحجر في قمة جبل ويرون أن ذلك من زمن الطوفان حيث غمر الماء الدنيا وستر الجبال، ولما رجع بقي هذا الحوت هناك وأرونا أيضاً صبيين ملتصقين من صدورهما وصبيين آخرين ملتصقين من إستاهما وصبياً له رأسان وقد جعلوه في آنية من الزجاج مملوءة بماء قيل إنهم يتركونه في تلك الزجاجة ستة أشهر وهو في ذلك الماء، ثم يخرجونه ويضعونه في الآخرين ولا يعرض لهم فساد بعد. وعندهم من الغرائب ما لا يحصى ولهم بذلك اعتناء كبير حتى الشقشاق[2] وجدناه عندهم ميتاً موضوعاً مع ما ذكر لغرابته عندهم لكونهم لا

(1) – لليعمري سيرتان: الكبرى (عيون الأثر) مطبوعة، والصغرى (نور العيون) مخطوطة، الزركلي 7، 263.

(2) – على ما يبدو، يقصد الشرقراق: طائر يكون في منابت النخيل والمروج بمقدار الهدهد مرقط بحمرة وخضرة وبياض وسواد.

يعرفونـه وليس في بلدهم، وبقينا عندهم إلى أن صلينا العصر وركبنا إلى المدينـة وطلبوا منا أن نبيت عندهم فأبيت لأنهـم لم يتركوا أصحابنا أن يشتروا شيئاً بـل أوجدوا كل شيء من عندهم فثقل علي ذلك وتوجهنا من عندهم.

كلب يهوى الموسيقى

ومن غريب ما رأينا بهذه المدينة جماعة من أهل الموسيقى ولهم صندوق داخلـه جعاب وحركات يديرونها فتنشـأ نغمات وألحان ولهم كلب يتبع الألحان بصوته ويرفع رأسه ويتمايل مع الألحان يميناً وشمالاً.

زيارة دار اليتامى

ومـن حضارة أهل هـذه المدينة أننا دخلنا ذات يـوم إلى دار كبيرة معينة للصبيـات اليتامـى المهملة فتلقانا كبيرهـا وفرح بنا ثم أتـت امرأة مقدمة مسنـة على البنات التي بالـدار المذكورة وأرتنا مواضـع نوم الصبيات في أماكـن مستطيلات لكل واحدة سرير مـن الخشب ووطاء وغطاء ووسادة ثم أرتنا الموضع الـذي يأكلون فيه وأرتنا المعلمات اللاتي يعلمن الصبيات المذكـورات الصنايـع من الغـزل والنسيج والرقم والطبـخ وغير ذلك من حـرف النساء، وقالت المقدمـة إن الطاغية ينفق عليهن من عنده ويعطيهن الكسـوة كل سنة ويعطي المعلمات أجـرة تعليمهن ويمكث البنات هنالك إلى أن يتزوجـن فلا تخـرج من الدار المذكورة إلا وقـد تعلمت صنعة من الصنايع وتُدفع لزوجها.

بكم صم ولكنهم يكتبون

ومن غريب ما رأينا بهذه المدينة ثلاثة إخوة كل منهم أبكم أصم ويكتبون وقد استبعدت ذلك لما سمعته فأحضرتهم وكتبوا أمامنا وهذا والله من الغريب.

زيارة معهد ومدرسة للطب

ومن حضارة هذه المدينة أيضاً أنني دخلت إلى دار كبيرة يتعلم فيها الصبيان الذكور فلما دخلنا إليها مررنا بقببها وكل قبة فيها معلم وجماعة من الصبيان يتعلمون عليه فيتعلمون الحساب وعلم النجوم والبحر واللّطين الذي هو بمنزلة النحو عندنا والفلسفة والطب إلى غير ذلك ولهم اعتناء به كبير، وقد أدخلونا خزانة كتبهم فرأيت ما يتقضى منه العجب في الإتقان والإحكام فقيل: إن فيها نحو ثلاثين ألف مجلد وقد صيروا على مرافع الخزانة نحو اثني عشر ألف ريال، وهؤلاء الصبيان يبيتون في ديار آبائهم ويأكلون ويشربون وليس لهم من الدار إلا التعلم فقط، ولما أشرفنا على سفلى الدار وجدناها كالجراد المنتشر بالصبيان وهم يصيحون فسألت الترجمان[1] عما يقولون؟ فقال إنهم يطلبون منك أن تشفع فيهم إلى المعلمين ليسرحوهم فبعثنا إلى المعلمين بذلك فسرحوهم ثلاثة أيام، ورأيت بهذه الدار العجب المبين رجلاً وامرأة كشطوا لحومها عن عظامهما وردوا العروق عليها كما كانت، فالإنسان كأنه في شبكة من العروق حتى مصارينه انتزعوا عروقها

(1) – يتأكد أن ترجمانه كان هو (فيلا) الذي تقدمت الإشارة إليه.

وردوها على هيئتها ملتوية في الجوف، وكذا ذكره وأنثياه، والقلب، انتزعوه وجعلوا مكانه مثاله من شيء أحمر، والقلب وضعوه في حُق وأرونا إياه، وأوقفوا الرجل على الرخامة بعد أن ألصقوا عظامه بعضها ببعض وركبوها على هيئتها قيد حياته، وتلك الرخامة تدور فيقبل ويدبر، وكذلك المرأة معها جنينها بإزائها كشط أيضاً لحمه عن عظامه وردت عليها العروق.

تأملات ابن عثمان بعد مشاهدته للهياكل المحنطة

هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذي من دونه وقال تعالى: (وفي أنفسكم أفلا تبصرون)، سمع أعرابي اختلاف المتكلمين في مسجد البصرة في الإنسان وانتزاع كل واحد الحجة على رأيه فخرج وهو يقول:

من كثرة التخليط فيَّ من أنه؟

إنْ كنتُ أدري فعليّ بدنه!

فمن عجز عن أقرب الأشياء منه فكيف يقدر على أبعد الأمور حقيقة عنه، من عرف نفسه عرف ربه فالعجز عن الإدراك، إدراك، والغاية التي لا تدرك يجب أن تترك، فهو على ما يليق لجلاله تعالى من واجب ومستحيل وجايز، اللهم إيماناً كإيمان العجائز، ولله در القائل:

كل ما ترتقي إليه بوهم

من جلال وقدرة وسناء

فالذي أبدع البرية أعلا

منه سبحان مبدع الأشياء!

فحسب العاقل أن يتفكر في نفسه ولا يتعدى أبناء جنسه، قيل لأعرابي بم عرفت ربك قال: البعرة تدل على البعير والروث يدل على الحمير، وآثار الأقدام تدل على المسير فمساء ذات أبراج، وبحار ذات أمواج، أما يدل ذلك على العليم القدير:

قد يستدل بظاهرٍ عن باطنٍ

حيث الدخان يكون مَوْقد نار

زيارة دير يحتوي على مقابر واقفة

ودخلت ذات يوم إلى دار منعزلة يسكنها الرهبان ذوو اللحى الذين يلبسون الخشن ويسمونهم (كبشن)[1] فيزعمون أنهم لا يدخرون شيئاً، وإنما يعيشون من الصدقات وما فضل عن أقواتهم به، ففرحوا بنا وأرونا دارهم كلها بما اشتملت عليه من مواضع النوم والأكل وقد رأيتهم يأكلون ومن آداب أكلهم أن يكون أحدهم يقرأ عليهم كتاباً وهم يأكلون ويستمعون ثم انحدروا إلى سفليها فإذا فيه موتاهم وقوفاً مع الجدران جعلوا فيها أقواساً على قدر قامة الإنسان داخلة في جوف الجدران بنحو ذراع والموتى مصطفون في تلك الأقواس، وكل واحد معلقة في عنقه خشبة مكتوب فيها اسمه لأن أجسامهم تغيرت، وفي عنق كل منهم حبل دليل على ترهبه يسحب به إلى جهنم ويجر به!

(1) – (Cappuccini) والقصد إلى مقابر (Catacombe) التي أشرنا إليها سابقاً.

وفي تلـك الجدران بيوت لها أبواب صغـار محكمات، فالميت أول أمره يدخلونه في أحد البيوت المذكورة ويجلسونه على حجر مثقوب ويغلقون عليه ويبقى هنالك ستة أشهر حتى تسيل مائيته ويذهب نتنه، ويخرجونه ويوقفونـه في المواضـع المذكـورة، ومـن تساقطـت عظامـه يجمعونها ويضعونهـا فوق مرافق ومن كان مـن أكابرهم يضعونه في صندوق. وقد أرونا صفوفاً من الصناديق.

زيارة الراهبات

وقـد رأينا بهذه المدينة عدة من ديار الراهبـات المونخات[1] فالكلام في خبرهن واحد وقد تقدم فلا نعيده.

المدرسة الصناعية للبنات

وهنالـك دار أخـرى يجتمعن بها بنـات الأكابر ولسـن براهبات وإنما يضعهن هنالك آباؤهن بقصد الصون وتعلم الحرف إلى أن تتزوج وتخرج.

زيارة كنيسة بظاهر المدينة

ومـن غريب ما رأينا بهـذه المدينة كنيسة في قرية من عمـل بلرم بينهما نحو ثلاثة أميال[2] وهي التي تقدمت الإشارة إليها سابقاً عند ذكر طواغي

(1) – القصد إلى مونخات (Monache) الراهبة.
(2) – القصد إلى موقع (Montreale) السالفة الذكر.

الكفرة في خبر (كليلم البون) الذي استخرج المال الذي دفن أبوه وبنى به هذه الكنيسة وحبس الباقي عليها. فلما وصلناها تلقانا رهباناً وفرحوا بنا وأرونا من عجايب ذخائرها وما بها من الصور الذهبية والفضية ما لا يأتي عليه الحصر، وأغرب من ذلك صنائعها الفائقة وبدائعها الرائقة فجدرانها كلها مرصعة بالرخام من قدر الشعرة فما دون، وفي ذلك من صور الآدميين بالترصيع المذكور ما يحار فيه العقل، والجميع مموه بالذهب، وما زال إلى ذلك مع تقادم الإعصار، هذه الكنيسة من أشهر كنائس النصارى وأبدعها، ولما بناها (كليلم البون) كما ألمنا به سابقاً[1] من المال الذي اغتصب أبوه ودفنه، وحبس ما بقي من المال على الكنيسة المذكورة، من مستغلاته مال معتبر ضل عني مقداره بتلف المبيضة[2] وبقي ذلك جارياً عليها إلى زمن هذا الطاغية (فرناندو) الموجود الآن فقال لهم ما بال هذا المال محصن بلا فائدة، فعين للكنيسة ما يقوم بها وحاز الباقي وعين له مصرفاً في مصالحه[3]، وقد أرونا صندوقاً من الحجر في هذه الكنيسة وفتحوا عليه فإذا فيه شلو (كليلم البون) باني الكنيسة وفتحوا صندوقاً

(1) – يلاحظ أن ابن عثمان يستعمل نعت (البون) بمعنى المليح، هذا وقد تقدمت الإشارة فعلاً عند حديث ابن عثمان في نابل إلى أنه بعد روجيرو الذي انتزع صقلية ومالطة وتملك نابل في العشرة الثانية، أو الثالثة، من المائة الثانية عشرة من المسيح... بعده، تولى روجيرو الثاني وبعدها غليام القبيح الذي خلفه ولده غليام المليح، وقد بقيت، يقول ابن عثمان، المملكة في أعقابهم إلى أن أخذها إمبراطور ألمانيا فريديرك الثاني ثم الفرانسيس... حتى انتهى أمرها أخيراً للاصبنيول الذي انتزعها من الفرنسيس على يد فرناندو كاطوليك، ولما مات هذا تولت ابنته إيزابيل ثم ولدها كارلوص كينطو، وتولى بعده فيليب طويس ثم ولده فيليب كوارط ثم كارلوص سكوند الذي مات من غير عقب وكان له أختان واحدة عند الإمبراطور والثانية عند ملك فرنسا خال أيه فدامت الحرب ثماني عشرة سنة وفي خلالها انساب ملك سردينية فيكتور أميديي فتملك صقلية واستخلصها وسار فيها سيرة حسنة... هذا ما كان أشار إليه ابن عثمان، وهو يتطابق مع ما سيردده من بعد.

(2) – يؤكد ابن عثمان مراراً تلف المبيضة.

(3) – يلاحظ من ابن عثمان أن الأمير فيرنادو، كان يتصرف في صقلية أيضاً ولو أنه لم يحمل بعد لقب (ملك الصقليتين).

آخر فيه أبوه (كليلم المال)[1] الذي غصب المال لأن دار الملك عندهم في صقلية. وأما (نابل) فإنما يجعلون فيها الخلايف عكس ما هم عليه اليوم ولذلك يدعون طاغيتهم سلطان صقلية.

عودة لوصف صقلية

وهي جزيرة كبيرة دائرتها سبع مائة ميل، مثلثة الشكل وهي في البحر الشامي[2] قريبة من بر النصارى يقابل طرفها بلاد (كلابرية) من عمل (نابل) بينهما مجاز ضيق يقال له بُغاز أي مجاز مسينة، أضافوه إلى هذه المدينة لكونها على ساحله وهي التي وقعت بها الزلزلة التي تقدم ذكرها وهذا المجاز ضيق صعب للغاية يدور به الماء، قلما تنجو به المراكب وبه أناس ساكنون في قرى على ساحليه، لهم معرفة بذلك المجاز فإذا أقبل المركب ليلاً أو نهاراً وأرادوا العبور فإنه يخرج مدفعاً علامة على أنه يطلب من يخرج إليه ليجيزه فتخرج له الفلايك وفيها أحد العرفاء فيركب في المركب ويتولى الأمر والنهي فيها إلى أن يجيزه ويعطون على ذلك جعلاً معلوماً، وبهذه الجزيرة من الخيل ما لا يحصى، وما رأيت أسمن من غنمها، وقد كنا فيها زمن الشتاء، وقد أخبرني بعض أصحابنا أنه وزن شاة فوجد فيها سبعة وخمسين رطلاً كبيراً[3] زنة كل رطل ثلاثون ريالاً، وبها

(1) – يلاحظ أن ابن عثمان استعمل لقب (المال): القبيح...

(2) – كان الرومان أيام غزوهم يسموه (بحرنا نسبة إليهم Mare nostrum) ويسمى بعد الفتح الإسلامي البحر الشامي لأنه ينفذ إلى الشام، وقد جاءت تسميته أخيراً بالبحر المتوسط تجنباً للحساسيات فيما يبدو.

(3) – ما يزال لفظ (الرطل) معروفاً في بليرم Rotolo كعدد آخر من الكلمات ذات الأصل العربي.

الغنــم المعروفة بالشعيبية ذوات الذيــول[1]، وأما كثرة زرعها فشيء معلوم مشهور يجلب منها إلىساير بلاد النصارى.

مرتب الوالي وما ينفقه في المبردات

ورأيــت ذات يوم نصرانيــاً فسألته عن مقدار مدخــول الطاغية كل سنة فقال ما بين أربعة ملايين! والمليون ألف ريال وقد أخبرني أنهم ينفقون من الثلــج الذي يبرد به الماء في هذه المدينة... مائتي ألف ريال، ويتعجبون... من كثرة الثلج في بلدنا... ولا نبرد به الماء! وتعقد به شربة عندهــم... وهــم يجلبونه من البلاد التي بها إلى البلاد التي ليس بها.

تاريخ فتح المسلمين لصقلية ونزوحهم عنها

وكان للمسلمــين رحمهم الله بها جهادٌ عظيم ورباط جسيم، وكان أول فتحهم إياها في خلافة مــروان بن الحكم[2]، نزل المسلمون وأول قدومهم عليها في بلد منها يقال لها (سرقوزة)[3] على ساحلها مما يقابل ناحية مالطة، وكانت صقلية لذلك العهد بيد (لقريق)[4] وكان ملكهم قسطنطين، وقاعدة

(1) – يعطينــا ابــن عثمان اسمــاً لنوع الغنم الذي يمتاز بليته والذي يوجد في الشرق العربي وهــو يقابل النوع المغربي ذي الذيل الرقيق المعروف في أوروبا باسم (المريني) نسبة لملوك المغرب السابقين من بني مرين.

(2) – يوجد على هامش ص 271 تعليق ينقل عن صاحب الخميس أنه في سنة 82 – 701م تم فتح صقلية على يد عطاء بن نافع في خلافة عبد الملك بن مروان، ويحاول المعلق أن يجمع بين الروايتين، إن صح فتحها أيام مروان، بأن جيشاً توجه إليها زمن مروان، هذا ومن المعلوم أن النزول الحاسم بها كان على يد أسد بن الفرات مستشار زيادة الله في (مزارة) ربيع الثاني 212 – يونيه 827.

(3) – قدر للسفير ابن عثمان أن ينزل بهذه المدينة لدى رحلته اللاحقة إلى الديار الشرقية التي تحمل اسم (المعلى والرقيب)، وقد تحدثنا عنها.

(4) – القصد إلى الإغريق كما سلفنا القول.

ملكه القسطنطينية العظمى، وقد ورد على صقلية قبل ورود المسلمين عليها وتفقد أحوالها ورجع إلى القسطنطينية وبعدما سافر منها نزلت بها عساكر المسلمين فخذل الله الصليب ومن تولاه ونكس على رأسه من أعلاه ونصر دينه القويم بما أنعم به على المسلمين وحماة الدين الأبطال ما لا يطاق ولا يطال إلى أن أتى الفتح على أكثرها، ونادت ألسنة الكفر يا لَثارها، وبقي من بها من النصارى تحت حكم المسلمين وذمتهم وأداء الجزية عن أنفسهم وأولادهم وآبائهم وأمهاتهم ووصل خبر هذا الفتح لأقاصي البلاد، وبما وقع من القتال والجلاد فغضب قاعدة الكفر الذي يدعونه (البابا) على قسطنطين وأحضر الأساقفة وأشهدهم إن لم يراجع صقلية لمن المسخوطين، وبقي المسلمون على حالتهم بالجزيرة، وقد أذاقوها شديد النزال، متجرئين على الكفرة دعواهم فيها نزال، إلى أن تولى الوليد بن عبد الملك ووجه موسى بن نصير إلى إفريقية وما وراءها من بلاد المغرب، فأجمع الكفار أمرهم وديوانهم على أنه قد أمكنت الفرصة من صقلية بكون عساكر المسلمين توجه منها حظ مع موسى بن نصير وأنه الآن في محاربة لذريق آخر ملوك القوط بإسبانية، فجردوا عساكرهم وشحنوا المراكب وأتوا إلى صقلية فنزلوا بها ووقع بينهم وبين المسلمين حروب كثيرة وأتى المسلمين المدد وانهزم المشركون أقبح هزيمة وولوا الأدبار وجد المسلمون في طلبهم فقطعت العساكر البحر إلى البر الكبير (رومة) وأغاروا في جميع بلاد (ليطالية)[1] ودوخوها وأذاقوا أهلها شديد النزال وبلغت عساكر المسلمين

(1) – يكتبها الناسخ لطاليا.

إلى تخوم البلاد حتى ألجؤوهم إلى أطرافها، وخلصت صقلية للمسلمين وبقيت بأيديهم إلى مضي إحدى عشرة مائة سنة من المسيح، فظهر عدو من أعداء الله الكفرة يقال له الكندرجير[1] من بلاد يقال لها (نورماندية) فأتى بعساكره ونزل في بلد من بلدان صقلية يقال لها (سرقوزة)، ومنها كان دخول المسلمين واشتد كلبه عليهم، ولم يأت المسلمين مدد من بر العدوة بسبب الفتن التي وقعت بين المسلمين[2]، وضايق العدو الكافر بالمسلمين وجعل يستخلص المعاقل والحصون والمدن من سكانها، (ألم تر أنّا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها)، إلى أن ألجأ المسلمين إلى بلد يقال لهم (بلرم) وهي التي تقدم ذكرها، وحاصرها، حصاراً شديداً واستخلصها من يد المسلمين بعد حروب كثيرة ومات من النصارى ما لا يحصى وفرّ المسلمون وتبعهم العدو إلى أن ألجأهم إلى مدينة يقال لها (مشينة) وهي التي وقعت فيها الزلزلة المتقدم ذكرها ونزل عليها بعسكره وضايق أهلها ففروا في المراكب في البحر وأخذ البلاد، وذلك آخر عهد المسلمين بصقلية وبما فيها من البلاد.

---

(1) – كان ظهور روجيرو (Ruggero) على الحكم العربي منذ سنة 1091م أي قبل التاريخ الذي ذكره ابن عثمان سواء هنا أو أثناء حديثه وهو في نابل عندما قال أن روجير انتزع صقلية في العشرة الثانية أو الثالثة من المائة الثانية عشرة من المسيح – راجع التعليق رقم 1 ورقة (268 – 269).

(2) – يشير ابن عثمان إلى العمليات التي كان يقوم بها الموحدون ضد المتساهلين في تسليم المهدية وطرابلس لروجار حاكم صقلية وقد أشار أبو الحسن عبد الملك ابن عياش إلى هذا في شعره:

خسفت صقلية جهلاً فوقرها
خرق الحسام وطيش من القنا السلب
وشيعت ملكها للحرب محتفلاً
لما دعت أختها بالويل والحرب

ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، تحقيق د. التازي، الطبعة الثالثة 1998، دار الغرب الإسلامي، ص.ب 104.

إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده..

وليس لأمرٍ حاول الله جمعه

مُشتّ ولا ما شتّت الله جامعُ

وقال آخر:

تريد النفسُ أن تعطى مناها

ويأبى الله إلا ما يشاء!!

وقال آخر:

نفسي تنازعني فقلت لها قري

موت يريحك أو صعود المنبر

ما قد قضى سيكون، فاصطبري له

ولك الأمان من الذي لم يُقدر

ولتعلمي أن المقدر كائنٌ

لابد منه صبرت أو لم تصبر!!

ومنه قولهم: الهارب من المقدور كالمتقلب في كف الطالب، ومن ذلك ما قال يزيد بن المهلب لموسى بن نصير: أنت أدهى الناس وأعلمهم كيف طرحت نفسك في يد سليمان؟ فقال إن الهَدهاد يهتدي إلى الماء في الأرض الفيفاء وينصب له الصبي الفخ، بالدودة أو الحبة فيقع فيه! وقال الآخر:

ولو جرت الأمور على قياس

لوُقّي شرها الفطن اللبيب

لكن أولى ما يتسلى به عن هذه المصايب كتاب الله، قال الله العظيم:

(ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما أتاكم)، والأمر له من قبل ومن بعد.

الآثار الإسلامية التي رآها ابن عثمان

وما رأيت بهذه الجزيرة من أثر المسلمين إلا مسجداً كبيراً غير عن حاله[1]، وصهريجاً بخارج المدينة كبيراً كانوا يدخلون إليه ماء ساقية بإزائه فيمتلئ ويجعلون به المراكب الصغار بقصد الفرجة[2] وبقربه حمام[3] وأثر بناء أظنه منزهاً كان مشرفاً على ذلك والنصارى إلى الآن ينسبون ذلك لمروان[4].

مناظرة ابن عثمان مع الراهب

وقد تلاقينا ذات يوم مع راهب من رهبان هذه المدينة يتكلم بالعربية فدار الكلام بيني وبينه حتى قلت له ما تقولون في المسيح، قال مِن الله، فقلت

(1) – نظن أن هذا هو دير القديس يوحنا الذي بناه روجيرو الثاني ودشنه القديس المذكور كما تقدم.

(2) – البحيرة فيها يقوم الشاعر عبد الرحمن الصقلي الأطرابنشي المتقدم الذكر:

فوارة البحرين، جمعت المنى
عيش يطيب ومنظر يستعظم
قسمت مياهك في جداول تسعة
يا حبذا جريانها المتقسم
يا نخلتي بحر بالرم سقيتها
صوب الحيا يتواصل لا يصرم
في ملتقى بحريك معترك الهوى
وعلى خليجك الغرام مخيم

(3) – كان هذا الحمام من مرافق أحد القصور الكلبية على ما يؤخذ من الدكتور م.م. مورينو.

(4) – ينسب مؤرخو صقلية هذا المنزل (Villa) إلى جعفر الكلبي وقد وسعه روجيرو الثاني بينما يصر ابن عثمان على أنه من آثار مروان...

له، فما مقصودكم بذلك، تقولون إنه بعض منه؟ قال: لا، قلت ولده على سبيل التناسل، قال لا، قلت له تقولون منه على سبيل الاستحالة، قال: لا، قلت له: فما بقي إلا أن تقولوا كما نقول هو منه أي من صنعه ومن خلقه، فهل بقي غير ذلك، فقال هو الله حل في جسد عيسى ولو كان كما تقولون لكان له أب، فقلت له يلزمكم من باب أولى وأحرى أن تقولوا في آدم ما قلتم في عيسى وكذا ما يتوالد من الحشرات من العفونات والتراب يلزمكم على هذا أن تدعوا فيه ذلك حيث لا أب لها، وكذا ناقة صالح التي خرجت من صخرة، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً فانقطع، ثم جاريته في كلامه وقلت له لم اتحد اللاهوت بالناسوت كما زعمتم؟ فقال: أراد أن يخلص العالم من خطيئة آدم، فقلت له: فهل علم ما وقع به في زعمكم أم لا، فقال: علمه، فقلت هذا يأباه العقل، قال: فإن قلت لم يعلم، قلت أقول لك: فلِم ادعيتم؟ حاصله كل ما لهم من التيقظ وحدة النظر في أمور الدنيا هم على خلافه من أمور الدين ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك.

ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجِنة والناس أجمعين، اللهم احفظ علينا العقل والدين حتى نلقاك بما ترضاه منا يوم الدين بجاه أنبيائك ورسلك وممن اجتبيت من عبادك المهتدين.

وداع ابن عثمان لصقلية

وكان مقامنا في هذه المدينة ثلاثة أشهر وثلاثة أيام ونحن في انتظار الريح الشرق لأن مدة المقام كانت معظم الشتاء دجنبر ويناير ثم أتانا الله

تعالى بريح شرقي فقدم علينا رئيس المركب وأعلمنا لنتأهب للسفر فورد أهل البلد لوداعنا وشيعونا وكان ركوبنا البحر من المدينة المذكورة سادس عشر ربيع الثاني سنة تاريخه[1]، وأدامه الله تعالى علينا، ستة أيام قطعنا فيها الأماكن الصعبة في البحر وجاوزنا الجزر كلها صقلية وسردانية وميورقة ومنرقة ويابسة واعترضتنا ريح غربية مانعة من السفر حابسة، وقد كنا في مقابلة قرطاجنة فعزمنا على أن نلتجىء إليها ونتخذها من أهوال البحر جنة، ثم عللنا النفس بعسا ولعل الرجاء بأن يهب الله لنا من ذلك فرجاً، ويجعل لنا من كل ضيق مخرجاً فدام ذلك الريح يومين كأنهما عامين خشية أن يردنا إلى فيافي وقفار.

وأشد ما يكون الشوق يوماً

إذا دنت الديار من الديار

فأرانا الله قدرته ثم أرانا من فضله عفواً، والدهر كما علمت تارة كدراً وتارة صفواً، ثم أتانا الله تعالى بما يوافقنا من الرياح وحملنا من رحمته تحت جناح ثم أرخينا أمامها العنان في هناء وأمان فأرسينا بمرسى طنجة وكان مدة سفرنا اثني عشر يوماً...

ولما أرسينا بالمرسى المذكورة كان البحر في شدة هياجه، والريح جاد في هبوبه وانزعاجه، فلم يكن نزولنا إلى البر في ذلك اليوم. ومن الغد تحملت مشقة النزول من كثرة ما سئمنا البحر، فبعد أن أرسينا كانت أنفسنا تخشى عوائقه، ولا تأمن بوائقه. فأتت الفلائك فركبناها وأخرج صاحب المركب

(1) - كان ذلك يوافق 21 مارس 1783.

ما به من المدافع. وتوجهنا إلى البر فوجدنا بالشاطئ كافة أهل البلد، وحشر في صعيد واحد منهم الوالد والولــد، وتقدم إلينا الحاكم ووجوه العسكر فسلمــوا علينا وأظهروا من حسن الملاقاة أمام جموع النصارى ما يشكر، ويشــاع ويذكــر، ولا يجحد ولا ينكــر، وقدم إلينا الفرس فركبنا وتقدم أمامنــا العسكر في ترتيــب عجيب وهيبــة والنساء يولولن علــى أسطحة الديار، والطبول تنقر والمزامير تصيح على حاشية التيار، ثم أنزلنا الأسارى أفواجــاً تترى، وفرحوا وفرح المسلمون بسلامتهم سراً وجهراً، وأنزلناهم بديار بالمدينة بقصد الإرفاق، وأجرينا عليهم من إكرام مولانا المنصور بالله مؤناً ضافية الإنفاق.

وكاتبنــا مولانا أمير المؤمنين بحلولنــا بأسرى المسلمــين إيالته السعيدة، الذيــن أنقذهــم الله تعالى ببركتــه وسعادته من تخوم بــلاد الكفر الشاسعة البعيــدة، وذلــك من مآثره وبعضــ مناقبه الحميدة، ونجانــا الله والحمد لله من أهوال شديــدة، ومشاق عديدة، فأقمنا بطنجة حتى ورد علينا جواب سيدنا أيده الله مهنئاً بالسلامة وعين البهائم لحمل الأسارى وأمرنا بالقدوم عليه.

فتوجهنــا إليــه أيده الله وهو بحضــرة مكناسة، فبتنا آخــر ليلة من السفر بوادي فرى بقرب المدينة بنحو ساعتين.

ومــن الغد بعث مولانا أعزه الله عساكــر الخيل لملاقاتنا ووجوه العسكر والقواد ومن حضر من العمــال، وبالغ في التنويه والفرح بهؤلاء المسلمين جعــل الله ذلــك بمنه من خالصــ الأعمــال، وبلغه من حسن نيتــه وصفاء سريرته وطويته جميــع الآمال، ومن هنالك والخيل تلعب وتخرج البارود

إلى أن دخلنا المدينة، فبعث إلينا سيدنا أيده الله أحداً من خدامه بأن ندخل الأسارى المذكورين إلى ضريح جده المقدم المنعم المرحوم سيدنا إسماعيل برد الله ضريحه، وأسكنه من الجنان فسيحها وأحضر لذلك الفقهاء والأشراف والطلبة وأعيان البلد فقرأنا هنالك ما تيسر من القرآن ودعونا لسيدنا بما نرجو من الله قبوله، وبعث سيدنا الطعام للأسارى فأكلوا وأمرنا بإنزالهم بديور أعدها بالمدينة وأمرنا أن نستريح ونطلع لملاقاته عند العصر.

فلما صلينا العصر توجهنا إلى بابه، ورحب جنابه، وأصحبنا إليه الهدية التي أصحبنا إليه الطاغية صاحب نابل، فوجدناه داخل باب السواني ففرح بنا وانشرح لقدومنا ودعا لنا بخير تقبله الله منه ثم ناولناه كتاب الطاغية مع عقد الصلح الذي أبرمنا ووقع عليه الاتفاق، وهدية الطاغية التي بعثها من الخوف والإشفاق، وناولناه أيضاً أزمة ما دفع في الفداء وخطوط أيدي النصارى المفتدى منهم مع قيمة المركب الذي غرموا وقد تقدم خبره.

ومن الغد أطلعنا إليه أسارى المسلمين وهو بالدار البيضاء، فسألهم عن قبائلهم وعشائرهم وعن مدى أسرهم، وأطال معهم الكلام جبراً لخاطرهم، وقال لهم: الحمد لله الذي عجل سراحكم، وكمل بجمع شملكم مع المسلمين أفراحكم، ثم هيأ لهم البهائم تحملهم إلى فاس في الحين، وتوجهوا من عنده أيده الله فرحين، وارتفعت بالدعاء لسيدنا أيده الله الأصوات، حتى كادت أن تسمع الأموات، وكتب لعامل فاس أن يحسن للقوم القرى، ويفيض عليهم من مطائب ما يشترى، ويزيل عنهم هون الأسر، ومذلة القهر والقسر، ثم يكتري لهم البهائم إلى الجزائر ومنها

يتفرقــون في البلاد كالمثل السائــر، والله تعالى يتقبل من سيدنا عمله ويبلغه مــن كل خير ما نواه وأمله، ويبقيه لهذه الحسنات الموقظات من السيئات، ويجعلنــا ممن أخلص العمــل في هذه الخدمة الربانية لوجهــه الكريم، وأن يمنحنا من ثوابها الجسيم بحظ وافر عميم (والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم).





في هذا الكتاب ينقلنا السفير ابن عثمان عبر قادس في طريقه إلى مالطة ونابولي، في مهمة دبلوماسية قام بها عام (1196هـ - 1782م)، لافتداء الأسرى بأمر من الملك المغربي محمد الثالث.

ويضم هذا الكتاب معلومات تصور لنا أحوال البلاد الأوروبية ونظمها في تلك الفترة. وتتنوع انطباعات ابن عثمان بين نقل وقائع المهمة الرسمية (افتداء الأسرى) التي رحل من أجلها. فضلاً عن الجانب السياحي الذي يعطي فكرة على أن السفير كان حاضراً بجميع حواسه مع المعالم التاريخية ومع العادات. هذا إضافة إلى الجانب العاطفي الذي يوضح بجلاء أن ابن عثمان إنسان قبل كل شيء ومن ثم كان صريحاً في التعبيرعما يحسه كإنسان.



52


ISBN 978-603-8086-42-1